قصة واقعية عن بطولات معركة ٦٧

حب.. وحرب



دار
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

□ يونيو ١٩٩٦ □

رئيس مجلس الإدارة :
إبراهيم سعده
رئيس التحرير :
نبيل أباظة

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى ١ دينار
المغرب ١٧ درهم
لبنان ٢٥٠٠ ليرة
الأردن ١٥٠٠ قلس
العراق ٧٠٠٠ قلس
الكويت ١ دينار
السعودية ١٠ ريالات
السودان ٢٢٠٠ قرش
تونس ٢ دينار
الجزائر ١٧٥٠ سنتيما
سوريا ٧٥ ل.س
الحبشة ٦٠٠ سنت
البحرين ١ دينار
سلطنة عمان ١ ريال
غزة ١٥٠ سنت
ج. اليمنية ١٥٠ ريال
الصومال نيجريا ٨٠ بنى
السنغال ٦٠ فرنك
الإمارات ١٠ درهم
قطر ١٠ ريال
انجلترا ١,٧٥ جك
فرنسا ١٠ فرنك
المانيا ١٠ مارك
إيطاليا ٢٠٠٠ ليرة
هولندا ٥ فلورين
باكستان ٣٥ ليرة
سويسرا ٤ فرنك
اليونان ١٠٠ دراخمة
النمسا ٤٠ شلن
الدنمارك ١٥ كرون
السويد ١٥ كرون
الهند ٣٥٠ روبية
كندا امريكا ٣٠٠ سنت
البرازيل ٤٠٠ كروزيرو
نيويورك واشنطن ٣٥٠ سنتا
لوس انجلوس ٤٠٠ سنت
استراليا ٤٠٠ سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوى ٤٨ جنيها مصريا

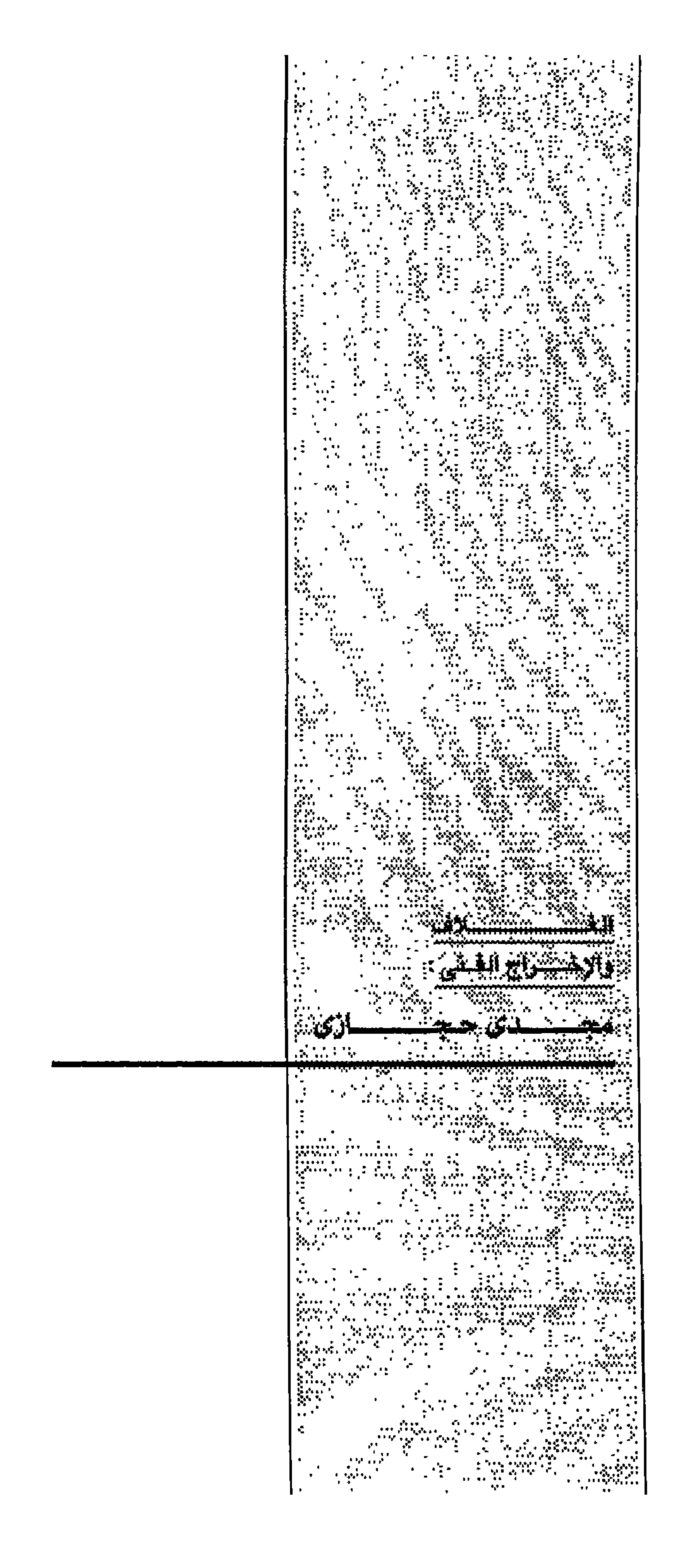
البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٥ دولارا
اتحاد البريد الافريقى ٣٠ دولارا
أوربا وأمريكا ٣٥ دولارا
أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا
٤٥ دولارا أمريكيا أو ما يعادله

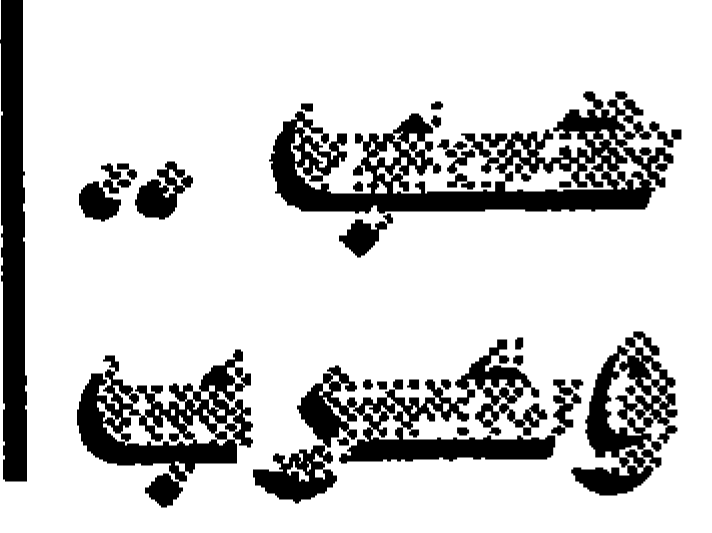
● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة
القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)
● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠
● تلكس دولى : ٣٠٣٢١ ٠
● تلكس محلى : ٢٨٢


كتاب اليوم
يونيو ١٩٩٦
حب.. وحرب
شوقى حامد



الغلاف
والإخراج الفني :
مجدي حجازي



قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧

إهداء..

إلى أرواح الشهداء الذين سطروا بدمائهم أروع آيات البطولة.. وسجلوا بتضحياتهم أرفع سمات الشجاعة..

إلى أرواح الزملاء الذين قدموا ملحمة رائعة من العطاء والفداء..

إلى روح الشهيد النقيب: سيد عبد الغفار والشهيد: سيد ياسين..

إلى روح الضابط جمال والضابط خالد..

إلى روح الشهيد / الرقيب: فاروق عبد الوهاب والرقيب: على سليمان..

إلى أرواح الشهداء الجندى تغيان وزميله الجندى فرغلى والجندى حسن وإسماعيل وإبراهيم.. إلى غيرهم وغيرهم من

الأرواح الطاهـرة التى صعدت إلى بـارئها فى هـدوء دون صخب إعلامى أو ضجيج دعائى.. اختارت التضحية بأنفسها من أجل مصر.. وفضلت الاستشهاد بكرامة على الأسر المهين.

إلى أبطـال الكتيبـة ٣٤٢ مشاة ورجـال اللـواء ١١٤ الـذين خاضوا معارك يونيو ٦٧ غير المتكافئة..

إلى هـؤلاء الصنـاديـد الـذين واجهـوا مــدرعـات اليهـود بصـدورهم وقلوبهم بعـد أن عجـزت نيرانهم عن مواجهتهـا.. وأنتزعـوا رغم ضعفهم وقلة امكـاناتهم من عـدوهم أسمى آيات الاكبار وأرفع أوسمة الإعجاب..

إلى هـؤلاء المغاويـر الذين طمست الهزيمـة معالم بطـولتهم وشوهت مـلامح جسارتهم.. فظلت راسخة فى الأعماق.. ومـاثلة فى الذاكرة.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ولا تحسبـن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا.. بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضلـه.. ويستبشرون بـالـذين لم يلحقـوا بهم من خلفهم.. ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾. صدق الله العظيم

شـوقى حـامـد

حب ..
وحرب

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧

مقدمة

ظلت أهوال الأسر تراودنا ونحن نخطو أولى خطواتنا فى الكلية الحربية عام ١٩٦٢ وحتى واجهناها فى معارك يونيو الخالدة عام ١٩٦٧..

حكى لنا عنها النقيب محمد عبد الرازق زهرة مدرسة فن القتال حينذاك..

وقص علينا كيف واجه الأسرى المصريون فى معارك ١٩٥٦ صنوفا مبتكرة من العذابات مثل نزع أظافر اليد وكى المناطق الحساسة بالحديد والصعق بالتيار الكهربائى ولم يضن علينا النقيب زهرة فى سرد كل ما واجهه الأسرى على أيدى من ليس لهم ذمة أو ضمير لايرعون الله ولايلتزمون بأى مواثيق أو اعراف دولية تحدد أسلوب معاملة الأسير مثل الاعتداء على العفاف وبتر الاعضاء التناسلية وغير ذلك مما لايقره ولايرضاه

حتى الإنســان البـدائى الأول الـذى كــان يعيش فى الغـابـات ويتعامل بلغة الحيوانات!

وعنـدمـا فـرض علينـا الحصـار فى يـونيـو ٦٧ ونحن على مشارف خط المواجهة الأول مع إسرائيل فى أبو عجيلة والحسنة والعـريش.. واجهنـا شبح الأسر بأعيننـا.. وفـاضلنـا بين أن نستسلم له أو نفلت منـه.. لم يكن أخطر مايمكن مـواجهته تلك المذابح الجماعية التى مـارستها القوات الإسرائيلية الغـاشمة فى مواقع أمامية كثيرة لتروى ظمأ رجـالها للدماء.. وتشبع رغبتهم فى القتل.. وتسبر غـورهم فى إزهـاق الأرواح وإنما كان الخطـر الداهـم هو الـوقوع فى الأسر.. هذا الأسر الـذى يبدأ بـانهاء كل مقـومات رجـولة الأسير.. وينتهـى اما بقتلـه بنيران رشاشـات اليهـود أو تحطيم وتدمير عنـاصر الحياة فى تكـوينه الإنســانى وهو أسوأ من القتل.

ألفنا ونحن نحـاور اليهود خـلال حصارنـا فى شبه جـزيرة سيناء مشـاهد القتل وبحيرات الـدماء.. داكنـة الحمرة غليظـة القوام.. اعتـدنا على رؤيـة الجثث وهى مسجاة والاشـلاء وهى متنـاثرة تتخـاطفهـا الطيور الجارحـة لتعلن عن آثـار جريمـة وتفصح عن بشاعـة أسلوب مارسه اليهـود البغاة تجاه أسراهم من المصريين العزل..

وعندمـا فكروا فى ستر فضـائحهم ومداراة جـرائمهم أمروا الأسرى بحفـر قبـورهم قبل أن يمطـروهم بـوابل أسلحتهم ثم يسحقـوهم بجنـازيـر دبابـاتهم حتى لايكلفـوا أنفسهم مشقـة مواراتهم التراب.

واستبـاح اليهـود مع رجـالنـا الصنـاديـد كل شىء.. ولم يتوقفوا عند حد أو يلتزموا بميثـاق.. كانوا أشد من النازى الذى اذاقهم من قبل صنـوف العـذاب وأهـدر آدميتهم وأحـرقهم فى الأفران الجماعيـة.. كانوا أبشع وأقسى من الحيوانـات المفترسة التى تتلذذ بـرؤية الدماء الطـاهرة تسيل.. وبمشاهـدة الأجساد البريئة وهى تخر صرعى.. كانوا لايـرعون الله.. ولايتحلون بذمم أو ضمائر.. وليس لديهم مشـاعر إنسانية وآدمية.. تعـاملوا مع مقاتلينا بقانون الغابة.. وكانوا هم هوامها وضواريها!!

حب .. وحرب ١

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧

الحنين الدائم

الحضن الدافئ

وقف شوقى مشدوها على بعد أمتار من منزله العتيق الكائن بالحى الشعبى المجاور لجامعة القاهرة.. تسمرت قدماه فلم يقو على نقلهما خطوة أخرى وزاغت عيناه فتوقفتا على مشهد مأساوى بدا أمامه من خلال السرادق الضخم المقام قبالة باب منزله تماما.. جال ببصره بين صفوف المعزين الذين إمتلأ بهم السرادق ، جميعهم من جيرانه ومعارفه وأقربائه.. استرعى انتباهه أن جانبا كبيرا منهم زملاءه بالدراسة وأقرانه من جيله الذين أمضوا معه أجمل فترات العمر.. وأحلى أيام الطفولة السعيدة.. وسنوات الصبا المنطلقة.

الجميع واجم.. الكل تنضح قسمات وجوههم بالأسى العميق والحزن الدفين .. أحمد عبد الرحمن ومحمود وفتحى الشبكشى ومحمد حنفى ومحيى حماد.. إنهم بعض رفاقه الذين قطعوا معا مشوار المدرسة اليومى وهم يتضاحكون دون تحفظ.. ويتحدثون بانطلاق.. وعندما انتقلوا من مدرسة الأورمان الاعدادية إلى السعيدية الثانوية لم يتغير من أمرهم شيء.. إختفت فقط حقيبة المدرسة التقليدية وتحولت إلى حافظة جلدية حوت بعض الكتب والكشاكيل تشبها بطلبة الجامعة.. غير أن ملامحهم الصبيانية وملابسهم الطفولية كانت تكشف مراهقتهم وتفضح عدم إنضمامهم بعد إلى المرحلة الجامعية.

راح شوقى يفكر فى كيفية عبور السرادق فى طريقه إلى باب منزله دون أن يشارك فى واجب العزاء.. إنه تواق للقاء أمه وأشقائه بعد فترة غياب زادت عن الشهر.. إنه فى شوق جارف لحضن أمه الدافئ ومشاعرها الحانية التى طالما أمدته بالقوة والقدرة على مواجهة الصعاب.. أين هو من أشقائه الذين أحاطوه بالحنان وغمروه بالحب.. كان لهم دائما الأب والأخ والصديق بعد أن فقدوا والدهم ولم يتعد الخمسين.. كان هو رب العائلة رغم سنوات عمره القصيرة التى لم تتعد العشرين.. كانت أسرتهم الصغيرة تظللها الألفة ويحفها الهدوء ويسودها الود والترابط.. هاأنذا قادم إليكم بعد طول فراق.. ها أنذا أتوحد معكم لايفصلنى عنكم سوى خطوات قليلة أود الإسراع بها لالتقى بكم . هكذا حدثته نفسه وهو يحاورها ــ ولكن كيف يتسنى له أن يعبر هذه المسافة ويدلف إلى منزله دون أن يظهر أمام المعزين.. وحتى لوظهر كيف يمكن له أن يصافح أهل المتوفى فقط ويعدهم بالعودة بعد تغيير ملابسه والسلام على أمه.. ونظر إلى هندامه وكأنه يختبر مظهره قبل أن يخرج من الردهة المظلمة فى طريقه إلى واجهة السرادق.. تحسس الجروح التى ملأت ساقيه.. والأربطة والضمادات التى لفتر أقدامه.. واستعرض ثيابه غير المهندمة التى تسلمها من معسكر الشاردين ببورسعيد وأعدوها لهم على عجل.. لا.. لا.. لايمكن أن يؤدى واجب العزاء فى أحد جيرانه بهذه الهيأة التى لاتليق.. لابد من تغيير ثيابه وتعديل مظهره حتى لايثير على الأقل تساؤلاتهم الفزعة.

فجأة أفاق شوقى من شروده وكأن عقربا لدغه ـ لمح شقيقه الوحيد يتصدر المتلقين للعزاء.. يصافحه شباب الحى بحرارة وقد عجز حتى عن مد يده إليهم لمصافحتهم.. بعضهم ربت على كتفه قبل انصرافه من السرادق وهم يودعونه.. البعض الآخر احتضنه بعنف.. وقبله بصدق.. إن دموعه تنساب بغزارة من مقلتيه.. لايمكن أن تكون دموع شقيقه تأثرا بوفاة أحد الجيران.. لايمكن لهذه العبرات المنهمرة إلا أن تكون لفقد عزيز من أهله.. رباه.. أبعد هذا العذاب الذى كابده وهذه المرارة

التى عايشها طوال الشهر المنقضى وهذه الأهوال التى مرت به والتى لم يكن يتصور أن تنتهى بسلام يجد أمامه لحظة وصوله هذا المشهد الدرامى.. لقد نضب معين دموعه وجفت مآقيه وتجمدت مشاعره.. كان يمنى نفسه بالراحة بعد عذاب.. والسكينة بعد انزعاج.. كان يرنو إلى شحنات معنوية من أفراد أسرته تعود عليها وغمروه هم بها.. لقد وصل فى وقت غير مناسب.. كان يجب أن يصل مبكرا حتى يلحق بالعضو المفقود من أسرته.. ربما استطاع مساعدته. ربما نجح فى انقاذه على الأقل ربما استطاع توديعه وتقبيله قبل أن يفارق الحياة.. لكن هكذا أراد الله ولا راد لقضائه ولابد لنا من الانصياع لمشيئته.. وراح القارىء يردد آيات معبرة عن قدرة الله على بعض عباده.. واختياراته التى لايمكن لعقولنا أن تدركها ولانملك أمامها إلا الرضا والقناعة بما قسمه منها.

(الله يتوفى الأنفس حين موتها.. والتى لم تمت فى منامها.. فيمسك التى قضى عليها الموت.. ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى.. ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

وقع نظره من جديد على وجه شقيقه.. انه ينبىء عن أن المصاب جلل. الخسارة فادحة.. الصلة التى تربطه بالمتوفى صلة وثيقة.. ترى من يكون.. لابد أن يكون واحدا من أعضاء أسرته الصغيرة.. هم خمسة ليس لهم سادس.. أربعة أشقاء وأمهم.. آه.. لقد ماتت أمى.. ماتت من كان يود لقياها ولو للحظة.. كم كان يود أن يرتمى فى حضنها وينهل من نبع حنانها.. كم كان يشتاق لذراعيها وهى تضمه إلى صدرها وكفيها وهو يغمرها بقبلاته ويلثمها بقلبه قبل شفتيه.. آه خرجت من صدره بزفرات ساخنة ، مادت الأرض تحت قدميه واظلمت الدنيا فى عينيه واختفى بريق الثريات التى ملأت السرادق وتحول إلى شعاعات باهتة تلوح من بعيد خلف دموعه التى بللت ملابسه.. لم يستطع أن يكتم آهاته أو يحبس آناته أو يتحكم فى زفراته .. آه قالها من جديد.

كان يود أن يسند رأسه على صدرها ويقترب أكثر من نبض قلبها..

فقد كان دائما ملجأه وملاذه.. كان يتمنى لو حكى لها ما رآه وقص عليها ما مر به طوال هذا الشهر اللعين.. انها وحدها فى هذه الدنيا التى كانت ستصدقه.. لن يجرؤ على سرد تلك الأهوال أو أن يجتر تلك الفظائع إلا لها ومعها.. لكن الآن وبعد أن فقدها لايمكن له إلا أن يصمت.. لن يحكى كيف أنقذته بركة دعواتها والعناية الإلهية من المدرعات اليهودية.. مرت على خنادقهم وداست على أجسادهم وسحقتهم تحت جنازيرها.. وأبدا لم يجبن هؤلاء الجنود.. ولم يخف هؤلاء الرجال.. لم يفقدوا للحظة شجاعتهم ولاإيمانهم بربهم.. واجهوا نيران اليهود بصدورهم.. أوقفوا تقدم دباباتهم بعنادهم.. نالوا منهم وأصابوهم بالذعر وانتزعوا إكبارهم وإعجابهم.. كيف لهذه الامكانات النيرانية الضعيفة أن تتصدى للفولاذ. وتوقف تقدم الدبابات. وتحطم الصلب.. لابد أن هؤلاء المصريين يتمتعون بشجاعة نادرة وبسالة غير طبيعية.. لا انهم يتمتعون برعاية السماء ومساندة الرب.. نعم هم أضعف من الاستمرار فى القتال لكنهم لم يتخاذلوا أو يتهاونوا.. نعم يسقطون بالعشرات وتسيل دماؤهم تروى حبات الرمال.. لكن أقدامهم راسخة فى الأرض.. وأعناقهم تطاول السحاب.. آه.. آه.. آه.. انه لايمل هذه التأوهات ولن تنقطع هذه العبرات مادام على وقفته فى هذه الردهة المظلمة تخيل ابتسامة أمه الحانية وهى تودعه قبل رحيله إلى سيناء وقد ارتسمت على واجهة السرادق.

لم يدر شوقى كم مر عليه من الوقت وهو يختفى فى الردهة المظلمة أمام السرادق الضخم.. تاه مع ذكرياته.. تدافعت الصور إلى ذهنه ومرت المرآى فى خياله سريعة خاطفة.. تصاعدت نغمة الحرب وسيطرت على مشاعر رجل الشارع المصرى.. استولت الأناشيد الحماسية والأغانى الوطنية على البث الإذاعى والتليفزيونى لتحفيز الهمم وتأجيج الأحاسيس القومية.. بات كل أفراد الشعب بمختلف فئاته ونوعياته يترقب لحظة الخلاص وينتظر ساعة الصفر التى ستخلصه من الشوكة التى ذرعها الاستعمار فى قلب المنطقة.. لحظة الانتقام من عدو بغيض

أهـان العرب واحتل قطعـة عزيـزة من أطهـر بقاعـه وطرد أهلهـا وأذل شعبها.

طالما حلم شـوقى بتلك اللحظة.. بالمشـاركة بخبرته.. بقلبـه ونبضه وروحه.. كان يتلقى دروسه العسكرية بالكلية الحربية يستعد لها.. كان يحارب على جبال اليمن ويسـاعد ثورتـه الوليدة وفكره وقلبـه مشغولان بأرض فلسطين.. أرض الميعـاد.. كان يثق فى قضيتـه ويتمسك بعقيدتـه ويـؤمن بهدفـه.. كـان متأكـدا من قـدرتـه ورجالـه على قتـال اليهـود واجلائهم عن بقعـة الأرض العربيـة الطاهرة التى احتلـوها، كـان واثقا أنهم قادرون على دك حصونهم وحصد أرواحهم وطردهم شر طردة.

تـذكـر شوقى تفـاصيل تلك اللحظـات بـوقـائعها وأحـداثهـا.. انها محفورة بـذهنه، مسطورة بـذاكرته. كـان يتعايش مع سـاعاته وأيـامه ترقبا لتلك اللحظة.. يعد لها العدة.. ويؤهل نفسه بدنيا ومهاريا لها.

تذكر شوقى عندمـا زاره رجال سريته بمستشفى الحلمية العسكرى فى أواخـر مايـو ١٩٦٧ كيف أبلغوه انـه ربما كانت آخـر زياراتهم لـه.. أنبأوه بصدور الأوامر الإنذارية للكتيبة.. وطلب منهم قائدها بالاستعداد للتحرك إلى الخطوط الأمامية بسينـاء لكتهم استسمحوه فى زيارة خاطفة لقائدهم طـريح الفراش بالمستشفى.. وهـاهم الآن يودعونـه قبل السفر مباشرة.

آه قالها للمرة العاشرة وهو يتذكر كيـف حرمته إصابة ركبته اللعينة من المشاركة فى لحظـة العمر التى انتظرها كما حـرمته من قبل فى قيادة رجاله على ربوع اليمن.. فى المرة الأولى أصر قـائد كتيبته على عدم نزوله ارساليـة مرضية من اليمن ليجـرى عملية جـراحية بركبتـه واحتفظ به وسط رجالـه حتى فرغت الكتيبـة من مهمتها ونزلت إلى مصر.. أمـا هذه المرة فيجب عليه أن يبادر بانقاذ نفسه من هذه الورطة.

لايمكن أن تمنعـه تلك الإصـابـة القـديمـة من المشـاركـة فى لحظـة الخلاص.. لابـد لـه أن يشـارك فى الـزفـة السعيـدة لفلسطين وعـودتها

لحضن العرب.. لابد له أن يسهم فى إزاحة المحتل البغيض الجاسم على هذه الأرض الطاهرة مهما كانت التضحيات.

اتخذ قراره بسرعة.. لم يتردد لحظة.. ولم يتراجع عما انتواه.. لابد أن يتمرد على إصابته اللعينة.. لابد أن يقهر آلامها ويتناسى أوجاعها.. لابد أن يهرب من مبضع الجراح الذى ينتظره حتى لو كان الثمن عدم شفاء ركبته وإصابته بعاهة فى أهم مفاصل جسده.

بمجرد طلوع شمس اليوم التالى جلس على كرسيه المتحرك وقاده بتصميم نحو غرفة الأطباء.. الحمد لله.. التقى بالجراح حسن رضا.. ورغم قسوته وغلظته التى تعودها من العمليات الجراحية الكثيرة التى يجريها إلا أنه لقيه بوجه باش .. ما لك .. لماذا اتيت إلى هنا.. اننى فى طريقى إليك..؟ أجاب شوقى الأمر لايحتمل الانتظار.. ملامحه تنبىء عما انتواه من قرار نهائى لاحنث فيه.. أود الخروج من المستشفى فورا كى ألحق برجال الكتيبة إلى سيناء — ألحق برجال سريتى وأقودهم فى معركة الشرف وأقاتل معهم لرد الاعتبار والثأر من اليهود العتاة.. لعلك لاتدرى الأواصر الوطيدة التى تربطنى بهم.. لعلك لاتتفهم الوشائج القوية التى تجمعنى وإياهم.. كيف أتركهم لقائد غيرى.. لايدرك امكاناتهم.. ولايتفهم قدراتهم.. ولايحدث التمازج والتجانس المطلوب بينهم لتكوين مجموعة عمل منسقة ومنسجمة لتنفيذ المهام الجسام الملقاة على عاتقهم ؟.. إنهم ينتظروننى بلهفة ويترقبون وصولى بشغف.

ماذا دهاك.. وما الذى تهزى به وتردده ولا أفهمه أنا أفهم فقط أنك لابد أن تستسلم لمبضعى غدا أعمله فى ركبتك كيف أشاء.. أستأصل الأورام الزائدة.. وأصل الأوتار المقطوعة.. وأزيل الغضاريف المتآكلة.. فلتصمت وتسمعنى.. لابد لك من الانصياع فليس أمامك بديلا سواه.. وليس لركبتك لو أردت لها السلامة سوى الجراحة.. هكذا وقعت كلمات د/ حسن رضا عليه كالصاعقة.. لكنها لم تنل من تماسكه ولم تعدل من قراره وقال بنبرات أشد عنفا وصرامة فلتسمعنى حضرتك سأخرج فى التو.. لتذهب ركبتى وجراحتها للجحيم الذى لن أقبل أن أرمى فيه

رجالى لو قاتلوا العدو من غيرى.. ركبتى تحتمل التأجيل.. ومفصلى أستطيع أن استعيض عنه بمفصل صناعى أو حتى عكاز خشبى ، لكن المعركة لن تنتظرنى.. ورجالى يحسبون الدقائق ويعدون الأميال التى تفصلنى عنهم.. اذن لك ماشئت رغم اننى أعتبره ضربا من الجنون.. لك ماتريد شريطة أن تكتب إقرارا بتحملك لكافة المسئوليات والتبعات لقرارك الخاطىء.. هكذا انطلقت كلمات د/ حسن بلسما يمنحه الحرية.

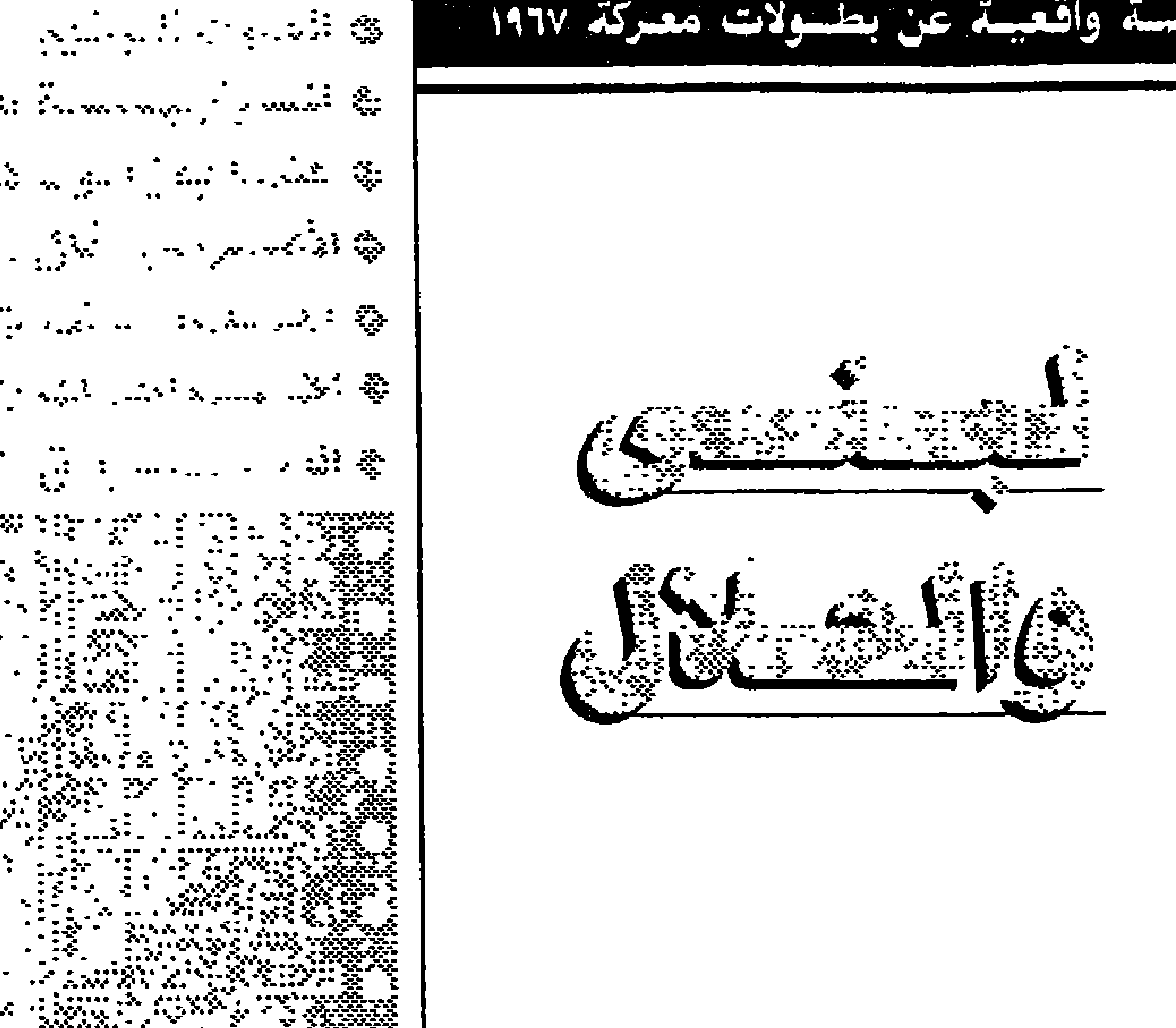
ماهى إلا دقائق حتى كان قلب شوقى يعدو داخل السيارة التى أقلته فى طريقه إلى منزله.. وطلب من والدته التى لم تكد تضمه إلى صدرها أن تعد له حقيبته وتجهز له حاجياته ليستطيع أن يلحق بآخر معدية ليعبر بها القناة قبل حلول المساء.

ليته فطن أنها كانت لحظة الوداع.. ليته شعر ألا لقاء.. آه يا أماه.. وكم كان مرارة تلك الآه وهى تصدر من أعماقه.. كم كان يود حتى ولو شارك فى جنازتها.. وانسابت الدموع فى صمت.. واجتهد الخيال فى قطع مشوار الذكريات.



حب .. وحرب ٢

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧



البنتو والهلال

لبنى والهلال

مرت الساعة الست التى استغرقتها الرحلة من القاهرة إلى المنطقة التى احتلتها الكتيبة بسيناء طويلة وكأنها ست سنوات .. لم يغفل شوقى عينيه عن عداد السرعة وكأنه يرى فيه الخلاص من حالة القلق والتوتر التى انتابته..

إنه غريب وهو بعيد عن رجاله شعر بالوحشة وهم بعيدون عنه .. أنه لن يغفر لنفسه مجرد التفكير فى الركون إلى نصيحة الطبيب والاستسلام لمبضع الجراح .. كيف سمح لهذا الخاطر أن يجول بباله .. كيف لم يذهب مع رجاله الذين زاروه دون أن يمر حتى على الطبيب . ماذا كان يضيره لو تحمل هذه المسئولية. أنها ساقه وهو أدرى بمصلحتها .. أنها صحته وهو الوحيد الذى يتحمل تبعاتها ..

مصر لم تكن بحاجة إلى كل رجالها كما هى فى احتياج إليهم الآن والكتيبة لم تكن مستعدة ومستكملة فى أى فترة من فتراتها كما هى مكتملة الآن .. بمجرد نزولها من اليمن أجتهد رجالها لاستكمال معداتها وتكملة الناقص منها واصلاح التالف وضبط الأسلحة وصرف الذخائر والمهمات.

أخيرا ظهرت الخيام بمنطقة تمركز الكتيبة ـ نعم .. انها خيامهم ..

هى هى بعينها الخيام التى كانت منصوبة بمنطقة هايكستب بعد العودة من اليمن لاعادة التشكيل واستكمال الاستعداد أنـه يعرفها من بين آلاف الخيام.. لقد حفظها كما يعـرف الأب ابناءه أسهم من قبل فى رتق الممزق منها وشارك فى دق أوتادها .. وشـد حبالها وحفظ ألوانها .. هذه الخيمة (الميس) صـالة الطعـام المتحركـة دائما مع الكتيبـة وصاحبـة النصيب الأوفر من الاهتمام .. أول الخيام المنصوبة كلما ذهبت الكتيبة إلى منطقة وحطت رحـالها سارع رجـالها فى نصب هـذه الخيمة كأول المهـام التى يحرصـون على انجازهـا .. لابد أن يتوافر خلفهـا مكان يصلح للمطبخ .. غالبا مـايتم بناؤه من الخشب والصاج المعرج .. وبـه فتحات تصل بينه وبين الخيمة الميس ليسهل تداول ونقل الصحـاف.

خيمـة الميس لها مكانـة خـاصـة عند الجميع .. فهى مكـان لقـائهم اليومـى.. بعد الظهيرة .. يتجمع كل الضبـاط لتناول وجبة الغـذاء .. كم هو مشتـاق لهذا اللقاء .. لقد فاتـه نحو اسبوعين انقطع خـلالهما لعلاج ركبته وتحضيرها للجـراحة .. ها هو يعود من جـديد لهذا اللقاء الأسرى الهام..

يتصدر العقيـد أركان حرب / عـاطف عبدالغفار الجلسـة .. إنه نعم الأب وخير الأخ الكبير لاخوانه الصغار لايعرف التمييـز طريقا إلى قلبه فى معاملة أخوانه .. كل ضابط يشعر أنه المحظى لديه وهو المفضل عنده .. ومع ذلك فهم جميعا يحترمونه ويخشونه.

عنـدمـا يغضب يثـور لكن فى التـزام .. ويصيح ولكن فى تأدب .. لايخدش حياء من يعملـون معه .. الجنـود لهم مكانة لائقـة فى نفسه .. يعـرفهم بأسمائهم ويفهم احتيـاجـاتهم .. يـوصى قـادتهم الاصـاغـر عليهم.. ويوجههم لطاعتهم وسماع وتنفيذ أوامرهم.

يجلس الرائد رمسيس رئيس عمليات الكتيبة يمين العقيد / عاطف .. انـه الرجل الهادىء .. مخفـف الصدمـة .. وقنـاة التوصيل الجيـدة بين القائد والضباط .. ينقل تعليماته إليهم وييسرها عليهم .. ويبلغه طلباتهم

واحتياجـاتهم .. كم تحمل عنهم بعض المسئوليـة .. وكم شارك معهم فى أداء مهـامهم .. وكان النقيب سيـد عبـدالغفار أقـدم الضبـاط بالكتيبـة يجلس دائما على يسار العقيـد / عاطف ـ إنه يقـربه إليه لمعرفتـه بطيبة قلبه وحسن سريـرته .. إنه بـورسعيدى المولـد ولم تؤثر سنـوات عمره الطويلة التى أمضاها بالقاهرة بعد تخرجه من الكلية الحربية فى لهجته.. تستطيع أن تتبينهـا مـن أول لقـاء .. أمـا النقيب سيـد يـاسين رئيس الشئـون الإداريـة وهـو مايلقبـونـه بـالـرجل الصـامت .. يتأمل كثيرا ويتحدث قليـلا لكنه فى جميع الأحوال ينجـز الأعمال والمهام التى يكلف بها بكفـاءة وإتقان .. ينتـزع اعجـاب الضباط عنـد تعـامله أمـامهم مع القادة.. لايهتز ولايتوتر .. دائما يتحدث بثقة ويفهم قدراته ولايتخلى عن حقوقه..

اصطدم مـره بالعقيـد / عاطف وواجـه ثورتـه بعنف .. ولم يتراجع عن مـوقفه بل طلب تصعيـده إلى العميد / سعيـد قائد اللـواء .. غير أن العقيـد / عـاطف تفهم أخيرا أن النقيب سيـد لم يكن يتعمـد الخطأ ولم يقصر فى واجبه.. فاستدعاه بشجـاعـة أدبية نادرة وطيب خاطره ولم يدع الموقف يزداد تأزما والهوة تزداد اتسـاعا .. تصطف بقية الضباط يمينه ويسـاره تبعا لاقـدميتهم لايـوجـد اثنان فى نفـس المركز .. هنـاك دائما الأقـدم والأقل أقـدمية حتـى مع تساوى الـرتب وتـاريخ التخـرج وكل شىء.. الأقدمية حينئذ تحسب بحروف الهجاء .. من يتغيب لأى ظروف حتى ولو كـان فى أجازة ميدانية.. يتقـدم الذى يليه فـورا ليحل محله .. النقيب صلاح حسين والنقيب صلاح بدوى.

ثم بعـــد ذلك يأتـى الملازم أول / همام ريـاض وزميلـــه ممـــدوح اسماعيل الـذى يسبق شـوقى مباشرة فى الأقـدميـة ويأتى بعـده رستم وأمير السبكى ومحمـد صبحى وعبدالعـزيز مـرعى ومصطفى حسن .. أنه يـذكر جميع زمـلائه .. له مع كل منهم مـوقف .. ويشارك جميعهم ذكريات جميلـة أمضوها معا فى اليمن ثم بها يكتسب .. وهـاهو ذا يعود إلى احضـانهم من جديد..

قفز شـوقى من العربة نـاسيا أن بـركبته آلاما شـديدة لا تحتمل .. شوقه إلى رجـاله انساه هذه الآلام وسعـادته بوصوله بينهـم قبل ساعة الصفر لاحدود لها .. سارع اليه الجندى فرغلى انه يشم رائحته من على بعد أميال.. كان ينتظره دائما عند نهاية مطلع الجبل باليمن ممسكا بيده منشفة ليمسح بها عرقه وباليد الأخـرى يناوله كوب الليمون الذى أعده بعنـايـة ليعـوضه عما افتقـده من سـوائل .. إنــه الآن يسرع إليـه دون المنشفة وكـوب الليمون حسبه لقـاؤه .. والتف حوله بعض الجنـود هذا يسلم عليه والآخر يساعده فى حمل حقيبته وبعد مراسم الاستقبال التى لم تستغرق دقـائق.. كان وجها لوجـه أمام العقيد / عـاطف .. استقبله العقيـد / عاطف بفتـور وبـادره بـالسؤال .. مـاذا أتى بك ؟ يـالها من صدمـة غير متوقعـة .. ماذا دهـاه.. لقد كـان دائماً يقربـه إليه ويغمـره بحنانه وعطفه .. نهره مرة واحدة لأنــه شاهده يدخن وهو يصعد الجبل بـاليمن وقال لــه فى حنان أبـوى .. أتمنى أن أراك وقد أقلعت تمامـا عن التـدخين .. إنى أعلم بمصلحتك لأنـك أحـد أبنـائى.. فكيف لـه الآن أن يتخلى عن أبـوته .. ربما استطـاع أحد الضباط أن يـوقع بينهما ويـوغر صدر العقيـد عاطف عليـه .. إنها خسارة فـادحة .. إن حـزنه لكبير على حرمانه من هذه الأبوة التى عوضتـه عن فقد أبيه وهو فى ريعان شبابه.. أجاب شـوقى على سؤال قـائده .. جئت اشاركك فى الأمل وأشهـد معكم لحظة العمـر .. لحظة الخلاص .. لم يتخل العقيـد / عاطف عـن فتوره واستمر فى جفوتـه وقال أجب على سؤالى .. ماذا أتى بـك ؟ معقول .. إنه ليس العقيـد/ عـاطف .. الأب .. الأخ الكبير الـــذى طـالما هش فى لقـائه واستحسن تصرفاتـه وأشاد بتميزه فى القتـال .. معقول أهذا هـو العقيد عاطف الذى خصه فى أحدى المعارك باليمن بأخطر المهام وأشاد به أمام جميع زملائه وقـال عنه يومهـا .. اخترت شوقى للمهمـة الصعبة لعلمى بمقدرتـه على الاضطلاع بها.. وامكاناتـه وشجاعته على مواجهـة الأهوال

التى اتوقعها فيها .. لا .. إنه ليس العقيد / عاطف .. إنه شخص غيره .. لم يعرف أن قائد الكتيبة قد تغير خـلال فترة وجوده بالمستشفى .. لكنه هو بعينه .. قامته المديدة .. قوامـه الرياضى المشوق .. شعره الرمادى المكـون من خليط متمازج بين الأسـود والأبيض .. كلماتـه السريعـة الحاسمة .. إذن مـاذا تغير إنه العقيد عـاطف .. وهو شوقى الـذى كان يحظى منه بمعـاملة معينة حتى لو أخطأ .. لأنـه دائماً كان يشجعه على الاجتهاد ويـدفعه للابتكار فى اتخاذ القـرارات المناسبة حتى لـو اكتنفها بعض الخطأ ويقـول لـه .. لايوجـد قـرار فى العالم ليس بـه نسبـة من الخطأ.. لكن كلما قلت تلك النسبة كنـت ضابطا ممتـازا وأحسنت قيادة رجالك ووحدتك.

وللمرة الثالثة أسأل لماذا قطعت علاجك وجئت إلى هنا؟

وخرجت كلمات شـوقى أكثر حده وانفعـالا .. ركبتى تتحمل الانتظار لكن المعركـة لن تنتظر ، رجال سريتى يودون مشـاركتى لهم ويترقبون عودتى إليهم.. كنت لاأطيق فـراقهم .. لم أنم ليلتى عندمـا علمت بتحرك الكتيبـة إلى سيناء.. فلتـذهب ركبتى إلى الجحيم حتى لوتم بترهـا لكننى لابد أن أحارب معكم.

وبنبرات أبويـة حانيـة أعاد العقيـد عاطف إلى شـوقى ثقتـه المفتقدة وساعده على التماسك بعد أن كاد الانهيـار يدب فى أوصاله .. أنا أعلم أن ركبتك تمر بحالـة حرجـة لاتستطيع أن تؤدى معهـا مهامك القتـالية .. وإنها تحتاج لجراحـة فورية هكـذا أخبرنى د. حسن رضا عنـدما زرتك بـالمستشفى وأنا أثق فى رأيـه العلمى .. ورد شـوقى لاتحرمنى من حلم حياتى ولاتحكم علىّ بالفناء وأنـا بعيد عنكم فى هذه الظروف العصيبة .. فلتـدع لى بالتـوفيق وسأكون إن شـاء الله عند حسن ظنك كما تعـودت منى دائما منذ أن خـدمت تحت قيادتكم وأنضممت إلى صفـوف الكتيبة وهى تحتل قمم اليمن المحيطة بمداخل العاصمة صنعاء.

تلمس شوقى سريعـا مهام سريته فى اطـار المهمة الشاملة للـوحدات

الأكبر الكتيبة ٣٤٢ واللـواء ١١٤ والفرقة الثـالثة المشـاة .. ورغم صغر رتبته إلا أنه اكتسب بعض الخبرات القتالية من خدمته السابقة باليمن ، وهذه المرة كلفه اللواء بمهمة دفاعية بحتة ..

سد الثغرة المنبسطـة بين جبلى لبنى والحلال والتى يخترقها الطريق الأوسط أحـد الطرق الثـلاثة الـوحيدة التى تخترق المسرح الصحـراوى الجبلى لشبه جـزيرة سيناء .. لـو أن اللواء ١١٤ بقيادة العميـد/ سعيد إبراهيم تمكن من اعـاقة ومنع العدو من التقدم صـوب القناة من خلال هذه الثغرة لفشل اليهود فى تنفيذ جانب كبير من خطتهم.

كانـت القوات المسلحة المصريـة تتبع العقيـدة الشرقية التى تقـودها المدرسـة السـوفيتيـة .. تـدور فى نفس الفلك جيـوش كل من التشيك ورومانيـا والمجر وبلغاريـا وغيرها من دول الكتلة الشرقيـة .. ويحميها مايسمى بحلف وارسـو .. نقل إلينا هـذه العقائد القتـالية بعض الخبراء الروس الـذين أستقدمهم النظـام عقب انتهاء حـرب ١٩٥٦ م مباشرة .. كما أوفدت القـوات المسلحة بعض ضباطهـا النابغين إلى كلية «فـرونز» للحصول على دورات تدريبية هناك.

وكان من بينهم لحسن الحظ العقيـد / عاطف .. لاشك أنـه حجه فى فن القتـال خبير فى طبيعة ودروب سينـاء .. سبق لـه أن قاتل عليهـا فى حرب٥٦.

يعـرف وديـانها كما يعرف طـرقـات وسط البلـد .. ويحفظ تبـابها ووهادها.. يعلم مسالكها ووعورة جبالها.

عقب عـودته مـن تسلم مهمة الكتيبـة من قيـادة اللـواء التى كانـوا يسمعون عنهـا ولايدرون أين هى أجتمع العقيـد عاطف معهم بـالخيمة الميس إياها.

لابد من تعـديل أوضاع الكتيبة التى تم احتـلالها على عجل .. مهمتنا أن نكثف الـدفـاعـات على النسق الثـانى للـواء .. فى الأمـام ستحتل الكتيبتان٣٤٠ و٣٤١ وتفـرد دفاعتها الخطيـة بعرض الثغرة بـالكامل ..

وتأتى دفاعـات كتيبتنا خلفهما بعد ترك مسـاحة مناسبة كمـركز قيادة متقدم للواء .. ستكون المدفعيات المعاونة خلفنا وكذلك الوحدات الإدارية من ذخيرة لتعيينات لمياه وخلافه.

استطـرد العقيد عـاطف القاءه لـواجبات الكتيبـة بالتفصيل .. كـان شوقى فى قمـة تركيزه حتى لـو تعرض لأى سـؤال استطاع أن يتألق فى اجـابتـه وينسيه مـوضـوع ركبتـه المعتلة .. ستكـون السريتـان الأولى والثانية فى الأمام أما السرية الثالثة فستحتل مواقعها خلف قيادة الكتيبة على التبه التـى نقف الآن فى مواجهتهـا وتبعد حـوالى مائة وخمسين مترا عن الخيمـة الميس . كان الضبـاط قـد خرجـوا من جلستهم ليشرح لهم العقيد عاطف مهامهـم وواجباتهم على الأرض .. سرايا الهاون والمضادة للدبابات والرشاشات ستكـون لها واجبات منفصلة تبعا لطبيعة المعارك ومجريات الأمور.

واصل العقيد عـاطف إلقاء المهمـة والضباط ينصتون لـه باهتمام .. تعودوا أن يكـونوا آذانا صـاغية عنـد إلقاء المهمة واستيعـابا لها .. انها الدستور الذى يتعاملون بـه طوال الفترة القادمة .. إنها العقد المبرم بين الـوحـدة والـوحـدات الأكبر الـذى يتضمن كل شىء الـواجبـات والمسـئوليـات.. كما يتضـمن الحقـوق والمسـانـدة والمعاونـة التى سيحصلون عليها من الوحدة الأم.. عنـدما وصل العقيد عاطف إلى مهمة سرية الرشاشـات .. اشرأب عنق شوقى .. وأرهف سمعه .. سيتم توزيع مـدافع الماكينة التسعـة على سريتى الأمام لتكثيف نيرانها .. أمـا المدافع المضـادة للطيران فستحتل مـواقعها على شكل مستطيل يحيـط بمركـز قيادة الكتيبة لحمايته والدفاع عنه.

كانـت سريته تتكون مـن فصيلتين .. فصيلة مـدفع ماكينـة . تسعة رشـاشـات ذات عيـار ٧,٦٢ × ٣٩ .. وهى رشاشـات ذات امكـانيـات نيرانية عـالية وقليلة الأعطال قـادرة على انتاج مايقـرب من ألف طلقة فى الـدقيقة الـواحدة.. أمـا الفصيلة الثـانية فهى تتكـون من أربعة مـدافع

مضـادة للطيران ذات عيـار أكبر ٧,٦٢ × ٥٤ .. ولها تجهيـزة معينـة للضرب على الطيران ويمكنهـا فى الحالات التـى لاتشـارك فيهـا القـوات الجوية أن تسهم بنيرانها فى المعارك الأرضيـة .. لكن معدلات نيرانها أقل وأعطالها أكثر نسبيـا .. كان شوقى هو الضـابط الوحيد بـالكتيبة الذى يستطيع التعامل معهـا بعد أن تزود بـأسرارها من خلال دورة تـدريبية طويلـة حصل عليها بمعهد المشـاة بألماظة فور تخرجـه من الكلية وقبل انضمامه للقوات العاملة باليمن.

حب .. وحرب ٢

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧

الضربة الثانية

النبــرة العــاليــة

فرغ العقيد عاطف من القاء تعليماته وشرح تفصيلا مهمة كل رجال الكتيبــة.. وطلب من النقيب سيــد عبدالغفــار وصــلاح بـدوى قــائدى السريتين الأولى والثانية ترديد مــا فهماه منها وناقشهما فيه.. أما النقيب صلاح حسين قائد السرية الخلفية فقد اكتفى بسماعه فقط نظرا لانتظار ما سيسفر عنه القتال.. انتصب العقيد عــاطف واقفا وكان هذا معناه أن يقف الجميع.. وقــال فى كلمات حــاسمـــة انها معــركتكم.. وهــذه مصر تناديكم فلتنســوا أبناءكم وأرواحكم وأهليكم.. ولتتذكــروا فقط ما يمكن أن تقدموه لبلــدكم التى طالما أعطتكم.. ولتبدأوا فورا فى تجهيــز مواقعكم وتكسية خنادق رجالكم ومدافعكم. ولتعلمــوا انه ليس أمامنا الا ساعات قليلة ونعطى للعميد سعيد قــائد اللواء تمام الاستعداد.. وبنفس اللهجة الحاسمــة التى لاتعرف التردد قــال العقيد عــاطف: لينصرف الجميع كل الى مكــانــه الــذى تم تحديــده على الأرض والخرائط.. وليبق فقط الملازم أول شوقى. آه.. انها ركبته من جديد.. سيسند له مهمة سهلة بعيدة عن القتــال حتى لايرهقــه.. سيرفض بكل تأكيد.. وستكــون المرة الأولى التى يتمرد فيهــا على كلمات وتعليمات العقيد عاطف.. لقــد فشل فى أن ينسيه اصــابــة ركبتــه اللعينــة.. انها العقبــة الــوحيــدة التى تحول بينــه وبين المشاركة فى الحلم.. تمنعه من الوصول للمجد والخلد الذى ينشده.. راح

شوقى يفكـر فى لحظات خـاطفة كيف سيواجـه العقيد عـاطف ويرفض المهمة السهلة التى سيسندها اليه.. ويطلـب منه نسيان اعاقته المرحلية.. ان المعـارك ستجعلــه ينـدمج.. ستتــوارى أمـامهـــا الآلام.. ستختفى الأوجـاع.. لقد طلب منهم أن ينسـوا ابنـاءهم وأرواحهم.. فكيف لم ينس هو مجرد ركبته.. آه من هذه الركبة اللعينة.

على غير ما تـوقع.. زال تخوفه وانقشعـت غمامة الفكر الأسـود التى ظللته لبرهة بمجـرد أن نطق العقيد عاطف أولى كلماته.. شـوقى يتعاظم دورك فى المهمة التى فـرغت منها الآن اذا علمت أن لك واجبـا تخصصيا بخـلاف جميع زمـلائك. اليهـود لن يـواجهـونا فى معـارك تصـادميـة متكافئة.. انهم يسعون دائما فى قتالهم الى تحقيق المفاجأة.. ولقد أعملت فكرى فى كيفيـة تحقيقهم لها.. ليس أمامهم الا اتباع أسلـوب قتال ليلى.. ليس لهم قبل بمـواجهتنا رجـلا لـرجل حتى لوكـانت الغلبة فى النهـاية لهم.

لن يقبل اليهـود الخســائر المحسـوبـة والمتعـارف عليهـا فى علم فن القتال.. ثروتهم البشرية محدودة وغير قـابلة للنقص.. ولذلك فعليك منذ الآن أن تستعـد للقتال الليلى بـرشاشـاتك . سيغيرون علينا بطـائراتهم ليلا تمهيـدا للهجوم البرى.. واذا لم تتمكن مـدافعك الأربعة مـن احداث خســائر كبيرة فى طائراتهم.. فليـس أقل من بث الذعـر فيهـا وتطفيش نيرانها بعيـدا عن مواقع الكتيبـة لنكون مستعـدين لقواتهم الأرضيـة.. فلتسمع اذن هذه الأوامـر.. منذ تلك اللحظة لن تنـام الا مع أول ضوء.. وتستيقظ مع آذان المغـــرب.. وخـلال ســاعـــات الليل عليك ان تنسق التعاون بين مدافعك وتمعن التفكير فى كيفية مواجهة طائراتهم.

أصبح شـــوقى بعـد ذلـك يتصنت على أزيـز الطـــائرات.. ويشـمع أصوات المحركات.. بات رجاله قـادرين على تمييز صوت الفراشات ليلا بعد أن علمـوا ان مهمة الكتيبـة لن تنجح الا بنجاح مهمتهـم الخاصة فى حرمان طيران العدو من احداث خسائر جسيمة بصفوفهم.

فى أول يـونيـو تصاعـدت نغمـة الحرب الى ذروتها.. وســاد الجميع

مشاعر التعبئة القصوى استنفـرت كلمات الزعيم جمال عبدالناصر همم الشعب.. أكـد لهم أن اسرائيل ستبـادر القـوات المسلحـة المصريـة بـالهجـوم.. وأنه يتـوقع أن يكـون ذلك خـلال ٧٢ سـاعـة.. وطلب من الجميع أن يكـونوا على أهبـة الاستعداد وغـاية الحذر خـاصة أنـه أمر بإغلاق المضـايق أمام الملاحـة الاسرائيلية وطلب اجلاء قـوات الطوارىء الدوليـة.. كان عبدالنـاصر يمهد للقيام بضربـة قوية للقـوات الاسرائيلية القائمة بالهجوم.. انه يعلم ان الخسائر فى الأرواح تصيبهم بالذعر وأنه لايمكن استمرارهم فى المعارك مع حدوث أى خسائر بشرية.

قفز الى ذهن شوقى فى هذه اللحظة الوليمة الدسمة التى دعتهم إليها والدتـه يوم الثالث من يـونيو.. بينما شـوقى ورجاله يحتلـون مواقعهم ويرهفـون أسماعهم انتظارا لقدوم طـائرات العدو سمع صـوتا رخيما طالما افتقده منذ وصوله الى مـوقع الكتيبة بسينـاء.. ياأبو الأشواق جئتك من القـاهرة بـوجبة دسمة شريطـة أن أشاركـك فى تناولها.. انـه صوت زميلـه فاروق عبـدالشفيق.. كـان يرافق أحـد مـدافع الكتيبة فى ورشـة الاصـلاح ومر عليـه قبل أن يرحل بـالمدفع من القـاهرة بعـد اصلاحـه صباح الثالث من يونيو بالمستشفى فـوجىء بأنه قد لحق بالكتيبة.. فلم يكن منـه إلا أن اتصل بـوالـدتـه بالمنـزل.. وأبـدى استعـداده لأداء أى خدمة.. فناشدته أن يمر عليها..

وخلال الفترة التى قطعها فاروق بسيـارته من الحلمية الى الدقى.. كانت الحاجـة قد دبرت وجبـة شهية من بعض الدجـاج المشوى وقطع جاهزة من الكنـافة من محل أمية الحلوانى بجوار منـزلهم.. آه يا أماه.. رددهـا شوقى بحـرارة وقـال لو أننـى علمت أنها الوجبـة الأخيرة التى سأتناولها من يدك لقمت بتجميدهـا واحتفظت بها مدى الحياة لتذكرنى بحنانك وحبك .. آه أيتها الأم الغالية كـم أشعر بالندم على أننى لم أتوقع رحيلك وأنا أشـارك بعض الزمـلاء تلك الأطعمة الشهيـة.. أستشعر ذلك مع كل لقمــة.. مع كل ملعقــة.. مع كل قطعــة لحم.. مع كل نسيرة دجـاجة.. كنت تحدثيننـى فى شوق وتنـاجيننى فى ابتهـال وأنا أتنـاول

طعـامك.. كيـف لى أن أنسى منـاجـاتك.. كيف لى أن أغفـل ابتهـالاتك.. استقبلت فقط بركـاتك ودعواتك التى أعـادت لى العقيد عـاطف وأنسته آلام ركبتى.. وجعلتـه يخصنى بمهـام مضـــاعفـة.. يـالهذا الاحســاس البارد.. يالهذه المشـاعر الباهتة التى أنستنى أمى وجعلتنـى أفقد قدرتى على الاستنتـاج وأتنـازل عن حـاستى فى ألتـــوقع.. آه يـا أمـاه كم كنت بحاجـة اليك.. كم افتقدك.. انهمرت الـدموع وانسـابت العبرات وعاد من جديد شريط الذكريات يلح على مخيلته لينسيه ما هو عليه من انهيار.

فى الساعة التاسعة من صبـاح الخامس من يونيو انتفض شوقى من نومـه فزعـا على صوت الجنـدى مدبـولى «مراسلـة» العقيد عاطـف وقد ارتسمت عل وجهه آيات الرعب.. القائد يستدعيك على عجل ويطلبك بأى مـلابس.. هرول شـوقى نحـو قائده حـافى القـدمين.. ويالهول مـا رأى العقيد عاطف الذى طالما أعجب بربـاطة جأشه وتماسكه يتحدث بخوف شديـد وتخرج كلماته تعبر عن احساس عميق بـالصدمة، أزفت سـاعة الصفر.. وبـدأ سيناريو المعـركة الشرسـة على غير ما استنتجت.. عبرت طائرات العـدو منطقتنا صوب القنـاة بأعداد كبيرة.. وبـارتفاع منخفض لايمكن لشـاشـات الرادار أن تلتقطـه.. لابـد أن مهمـة هذه الطـائرات ضرب مطـاراتنا وتـدمير طائراتنـا لتحييـد القوات الجويـة عن مسانـدة معاركنا الأرضيـة لتعرية قواتنـا البرية واجبارها على خـوض معارك غير متكافئة.. انهم دائما يهربون من القتال المتكـافىء.. ليس لديهم الشجاعة الكافيـة لخوض مثل هـذه المعارك وقبـول أى خسائر.. ولم يكـد العقيد عاطف يكمل كلماته حتى فـوجىء به شوقى يقفز عليه ويطـرحه أرضـا.. خبرته بـوحدات المظلات مكنته مـن تمييز صوت طائرات اليهـود عائدة بعد أن أتمت مهمتهـا فى عمق مسرح العمليات.. صرخ شوقى وهــو راقد بجـوار العقيد عـاطف على الأرض على حكمـدار أحد مـدافعه المضـادة للطائرات.. أطلق نيرانك يـافاروق وبمجـرد أن خرجت عدة رصـاصات من مدفـع فاروق وفى لمح البصر كانت الطـائرات اليهوديـة قد أمطـرته بوابـل من رشاشـاتها فأسكتته على الفـور.. وكان فـاروق أول شهداء

المعركـة بعد أن سكنت احدى الطلقـات فى صدره.. كان فـاروق رجلا فى السلم.. ولم يتخل عن رجـولته هـذه وهو يعانى سكـرات الموت.. رفض أن يعبر عن آلامه الـرهيبة خلال اللحظـات القصيرة التى سبقت صعود روحه الى بـارئها حتى لايتأثـر رفاقه وينعكـس هذا التأثير على أدائهم.. تجرع آلامه فى صمت.. وفاضت روحه فى هـدوء ولفظ آخر أنفاسه وهو يردد اسم مصر وينطق بالشهادتين.

هكـذا كـانت البـدايـة.. الكتيبة فقـدت أحـد رجـالها فـزاد هـذا من اصرارهم.. وضاعـف من عزائمم.. وسـار نبأ استشهاد الرقيـب فاروق بين الـرجال كسريـان النـار فى الهشيم.. ارتسمت على الـرجال مـلامح العناد والـرغبة فى الثأر.. لابد من الثأر للـدماء الطاهـرة التى جرت من جسد فاروق وامتزجت بحبات الرمال.. وتجمع نفر من الرجال يوارون جثمان الشهيـد الأرض.. حفروا لـه قبره أسفل موقع مـدفعه.. انسـابت الدمـوع تودعه فى صمت مهيب.. تعـاهده على الانتقام.. وتعـده بالثأر.. تحدث العقيـد عاطف فى الجميع.. دائما يخرج صـوته معبرا عن الحالـة التى يتحـدث فيها.. التأثـر العميق خـاطب العواطف بهدف تأجيجهـا.. وناشد الحمية والنخوة بهدف تحفيزها أكد أنه صار علينا أن نثأر لمصر وليس للشهيـد فاروق فحسب.. إن فـاروق رمز للـوطن ، إنهم يرمـون الوطن برصاصـات الغدر ويقذفونه بصواريخ الدمـار.. لابد أن يواجهوا الفشل ويحصـدوا الندم.. لابـد أن نذيقهم بأسنـا.. ونروعهم ونـرعبهم مهما كانت التضحيـات.. لابد أن يشعروا بالآلام ويحسوا بـالآثام التى ارتكبوهـا من خلال نجـاحنا فى إحداث اصـابات بصفـوفهم وتمكنا من ايقاع خسـائر فى أرواحهم. سنضرب بلارحمة وسنقـاتل بـلاشفقة.. اذا لم تتمكن النيران من الانطـلاق فسنمـزقهـم بأيـدينـا.. وسنقتلهم بأسنـاننا.. سنرتـوى من دمائهم.. ونأكـل لحومهم وشحومهم انتقـاما لصلفهم وثأرا لجرائمهم...

وردت المعلـومات من قيـادة اللـواء تفيـد تقدم العـدو فى اتجاه الحد الأمامى للـدفاعات.. أجهزة الاستطـلاع أكدت أن دبابـات اليهود تنطلق

بأعداد كبيرة صـوب دفاعاتنــا فى اتجاه الغرب.. لم تمهد مدفعيــاته لهذا التقدم اكتفـاء بما أحدثتـه نيران القوات الجويـة فى مرابـض المدفعية.. وامعانــا لاحداث المفاجأة لقـواتنا.. واعتمادا على خفة الحركة المتنــاهية لدباباته وقدرتها العـالية على المناورة.. ودخلت بعض المدرعات فى حقول الألغام التى تم نصبهـا أمام الدفاعـات.. انفجرت أول دبابة وتصــاعدت منهـا ألسنـة اللهب والـدخان.. انطلقت الهتـافـات الله أكبر.. جـاء ثأرك يا فاروق.

بأسرع مما تخيلنـا. الله أكبر.. الله أكبر.. الدبابة الثانيـة فى لغم آخر.. والثالثـة بطلقة مـدفعية مباشرة هـوت عليها من أحـد المدافع الخلفية.. لم تـزد مدة المعـركـة عن خمس دقائق خسر فيهـا العـدو نحو ثــلاث دبـابات.. ومــات له مـا يقـرب من تسعة أشخـاص.. ارتفعت معنويـات شوقى ورفـاقه فبلغت عنان السماء.. تمنـوا اقترابهم لمناطق القتل التى تم اعدادهـا أمام كتيبتى النسق الأول.. لكنه لم يفعل.. ولم تأت الـرياح بما تشتهى أنفسنا.

انسحبت دبـابات العـدو وتخلصت من المعركـة بأسرع مما تخيلـوا اجتهد فى اطفـاء حرائقه وانتشار جثث قتـلاه وانقاذ مصـابيـه.. وتوقف تقدمه.. وهدأت الأحوال وســاد سكون رهيب سماء المنطقة.. أعاد اليهود حساباتهم.. وتـراجعوا مؤقتا عن تنفيذ خططهم.. لابـد لهم من فكر آخر يحميهم من الوقوع فى معركة متكافئة ومواجهة خسائر بشرية تقليدية.. ترى أيكـون انسحابهم بـلا رجعة أم يعـاودون الكرة من طـريق آخر؟. ليس أمامهم سوى هذه الثغرة وإلا عليهم التقدم من خلال مناطق جبلية شديدة الوعورة ذات ميـول حادة وأرض «غرز» لاتصلح لسير الحملات الميكانيكيـة التى ترافق الدبـابات.. تذكـر العقيد عاطف المقـولة الشهيرة لموشيه ديان الـذى قرأ كثيرا عنه.. (لو توقع عـدوى أن آتيه من طريقين لاثـالث لهما أتيته من الطـريق الثـالث) إمعانـا فى حـرصه على احـداث المفاجأة.

بسرعـة أدرك العقيد عـاطف نـوايا اليهـود وركـز فكره فى استنتـاج

خطواتهم التالية وتوقع ملامح المعركة المقبلة.. صاح على همام ضابط استطلاع الكتيبة قائلا.. لتصعد أنت ومعك بعض رجالك إلى أعلى قمة فى جبل لبنى.. ترقب الناحية الأخرى من الجبل وتتابع تحركات اليهود وتخطرنا بها أولا بأول ولتحمل معك بعض المعدات اللاسلكية وتنسق تعاونك مع الرائد رمسيس رئيس عمليات الكتيبة وسنفتح معك الخط كل نصف ساعة وعليك ألا تستصغر أى معلومة أو تقلل من شأنها..

ان كل حركة لليهود لها انعكاسها لدينا.. ولنا أمامها حركة مضادة.. ما عليك أنت إلا ابلاغنا بكل شىء فأنت عيننا هناك..

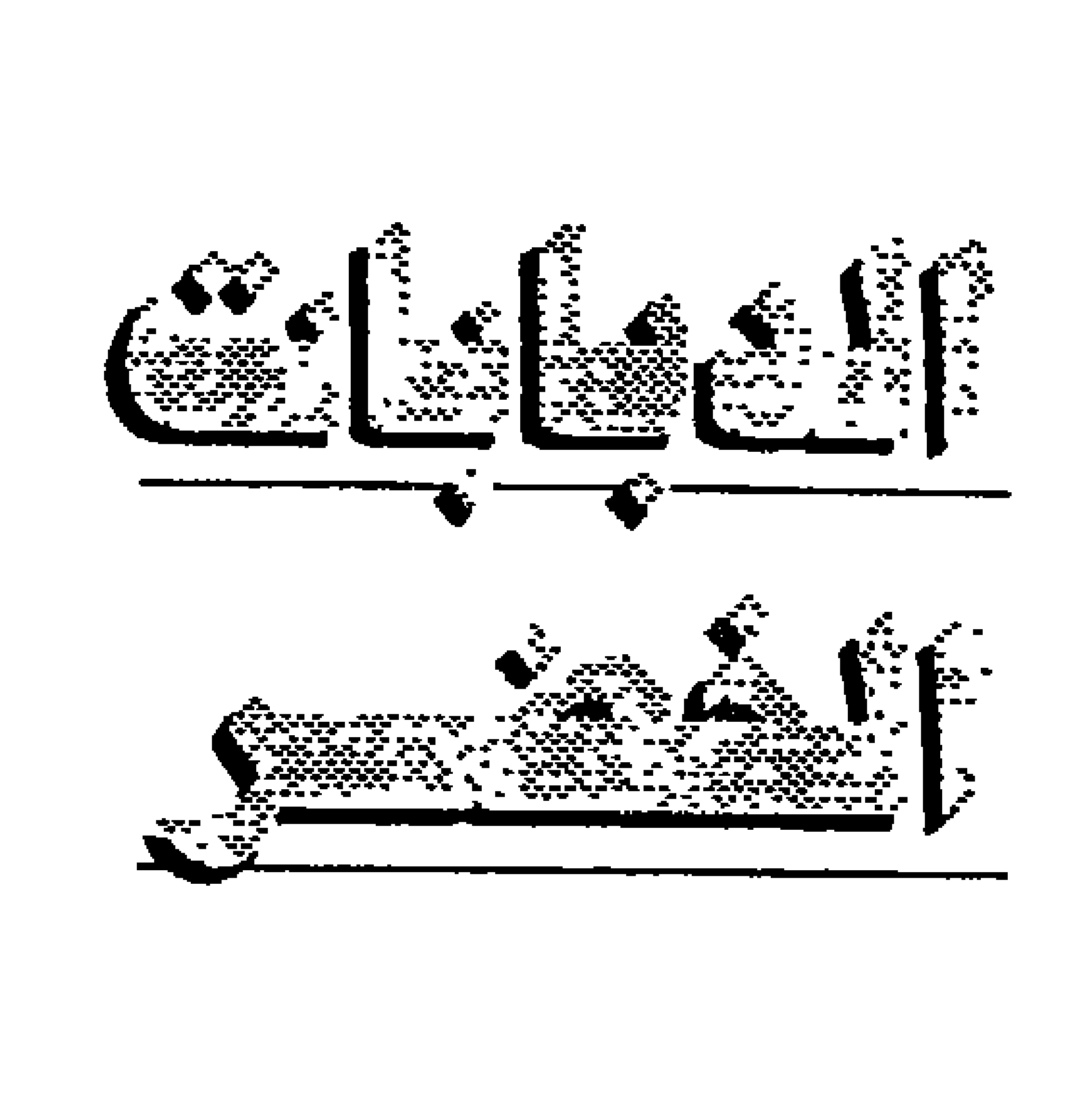
لم يكد العقيد عاطف ينتهى من توضيح المهمة للضابط همام إلا واستقبل النقيب صلاح حسين قائد السرية الخلفية وقال كل شىء جاهز لدى اليهود.. فبالرغم من وعورة وصعوبة الأرض خارج الثغرة المنبسطة التى نحتلها بين جبلى لبنى والحلال.. إلا أنهم يفضلون ذلك على وقوع أى خسائر لرجالهم.. ومن ثم علينا أن نتوقع أن يأتونا من الخلف كما قال ديان.. وبهذا تنقلب أوضاعنا الدفاعية.. تصبح كتيبتنا هى كتيبة النسق الأول.. وتصبح سريتك ياصلاح هى أول قوات لنا فى مواجهة عدونا ولذلك فقرارى الفورى هو سحب المدافع الماكينة الموجودة بالسريتين الأماميتين تجهز مواقع لها فى سريتك.. سيعاونك شوقى فى إدارة نيرانها.. ويتم فورا تجهيز مرابض ومواقع للمدافع المضادة للدبابات.. أما الضابط صبحى قائد سرية الهاون فعليه الآن أن يربط بياناته على أجهزة الهاون لتنطلق داناته وتقع خلف التباب التى يحتلها صلاح بسريته بعد أن يتم تعديل مواجهتها للخلف.. وعليك يا صلاح أن تعد عدتك وتتفهم مهمتك فى نحو الساعة قبل أن تتمكن مدرعات العدو من اجتياز الأرض الوعرة والالتفاف علينا من الخلف.

هرول صلاح عائدا الى موقعه واجتمع بضباط فصائله الثلاث.. وشرح لهم الموقف الذى كان غامضا عليهم تماما.. وطلب منهم تعديل أوضاع رجالهم.. وتجهيز وتكسية خنادقهم لتكون مواجهتم للخلف.. وإعداد مواقع للرشاشات التسعة.. والمدافع المضادة للدبابات وبينما هم

ينخـرطون فى تنفيـذ التعليمات وقبل أن تتم العمليـة لمح صــلاح أتربـة وغبارا قادمـا من اتجاه العريش.. ومالبثت أن كشفت الأتـربة عن تقدم دبـابات خضراء اللـون.. تتمركـز بعض منهـا أسفل التبة التى احتلتهـا السرية الخلفيـة التى أصبحت بقدرة قادر سرية المجهـود الرئيسى بينما استمر تدفق البعض الآخر فى اتجاه الاسماعيليـة.. كان علينا أن نتعرف على هوية تلك الدبابات الخضراء.. صديقة كانت أم عدوة.. البعض أفتى أنها صـديقة للقـوات الجزائرية التى أبت إلا أن تشـارك مصر معركتهـا والآخرون أكدوا انها عدوة لليهـود الذين نجحوا فى الالتفاف خلف الجبل لتفادى نيران مـواقعنا.. وقطعت جهيـزة قول كل خطيب .. أمـر صلاح أحد مدافعه بالضرب عليها لمعـرفة هويتها.. وكانت المفاجأة ، لم تحفل الـدبابـات بالـرد واستهزأت بـالدانـات القليلة التى لم تحدث فيهـا أى خسائر ولم توقع بها أى اصابـات.. فجأة وهم على هذا النحو من التردد وعدم المعـرفة.. وجدوا العقيـد عاطف بينهم وقال فى صـوت تنم نبراته العميقـة على الأسى.. انها عـدوة.. دبـابـات اليهـود لقـد فـرض علينـا الحصار.. ولابد من مواجهته..

حب .. وحرب ٤

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧



- فتى والتمثال
- الثورة الصامتة
- الدبابات الخضر
- الاجتياح
- أول الشهداء
- القيود المحطمة
- الأقصى
- الشاطئ الجريح
- المعجزة
- الخائنة جميلة
- الصوت المريب
- المواجهة
- عقيدة بطل [illegible]
- الأعرابي الحاذق
- الملاحقات
- المخبرات
- الترياق

الدبابات الخضر

طأطأ الرجال رؤوسهم بعد أن علموا أنهم وقعوا فى الحصار.. وأن هذه الدبابات الخضر التى طالما اختلفوا على هويتها لم تكن إلا جزءاً من اللواء السابع الجولانى أفضل وحدات اليهود المدرعة وأكثرها استكمالا وأوفرها خبرة ..

زاد من ضيقهم الكلمات القليلة التى خرجت من فم العقيد عاطف قبل أن يغادر مكانه وسطهم فى طريقه وهو عائد إلى مركز قيادته .. لتعلموا أن وحدات اللواء بالكامل أصبحت محاصرة ، فصل العدو بينها وبين مرابض مدفعيتها فى الخلف وأماكن وحداتها الإدارية من مياه وتعيينات .. ومن الآن أصبحت نقطة المياه تمثل ثروة لكل منكم وطلقة الذخيرة تعنى الكثير لحياته لابد لكم من الاعتماد على أنفسكم.. والتركيز فى كل أموركم .. عندما يشتد الخطر يقل التعاون ويهتم كل منا بنفسه.. ولذلك أتوقع ألا يكون هناك تنسيق بيننا وبين اللواء .. لن يكون أمامنا إلا الاعتماد على امكانياتنا النيرانية الضعيفة فى مواجهة هذه الدبابات إذا أردنا فك الحصار والخروج من المأزق .

انصرف العقيد / عاطف وعيون الرجال ترقبه وأذهانهم مشغولة بالتفكير فيما قاله .. بسرعة تعقدت الأمور وتحولت وتبدلت المقادير ..

وزاد من تعقيدها أن الضابط همام الذى صعد جبل لبنى للاستطلاع أبلغ الرائد رمسيس أنه تمكن بعد مجهود من إصلاح عطل بجهاز اللاسلكى أخّره عن التبليغ عما يراه .. وأنه منذ صعد الجبل وهو يرى «قولات» وجحافل مدرعة لايستطيع عدها أو حصرها تتقدم صوب الاسماعيلية .. غبار الدبابات يتصاعد وصوت المحركات لاينقطع .. لقد اتخذ اليهود من هذه الطرقات الوعرة والدروب غير الصالحة للسير طرقا رئيسية لتقدمهم ليتفادوا الدفاعات والفخاخ المنصوبة لهم .. ثم مالبثوا أن استعادوا مسارهم الطبيعى لتقدمهم على نفس الطريق الأوسط الذى يربط أبو عجيلة بالاسماعيلية بعد أن التفوا حول قوات اللواء ١١٤ مشاة وقاموا بحصارها وتثبيتها وقطعوا عنها خطوط امدادها وحتى حرموها من معاونة مدفعيتها .

جلسوا يفكرون فى موقفهم الذى فرض عليهم .. يتدبرون أمرهم ويدرسون معطياتهم .. كم لديهم من مدافع ويقارنون بينها وبين ما أمامهم من دبابات .. تعلموا فى مبادىء الحرب أن قطعة المدفعية المخندقة تستطيع أن تدمر دبابتين مهاجمتين قبل أن يتم تدميرها ، لقد تجمع معهم عشرة مدافع مضادة أربعة من طراز ب١١ وستة أقل حجما من طراز ب١٠ وكلتاهما من النوع الروسى عديم الارتداد قوى التأثير .. وإذا تم تطبيق المبادىء التى تعلموها فلديهم القدرة على تدمير عشرين دبابة فقط .. ولكن ما أمامهم ليس أقل من خمسين دبابة ومدافع ذاتية الحركة .. فلنفكر إذن فى صنع قنابل مولوتوف .. هذه القنابل لاتحتاج إلا إلى زجاجات فارغة وبعض البنزين .. انها تحتاج لرجال جسورين يتميزون بالشجاعة الفائقة وقوة ضبط النفس .. لابد لهؤلاء الرجال أن ينتظروا مرور الدبابات اليهودية فوق خنادقهم ثم يقذفون عليها تلك القنابل على الفتحات والأماكن الضعيفة فى محاولة لتعطيلها أو تدميرها أو حتى إشعالها لتنفجر ذاتيا .. كان النقيب صلاح يقود ذلك الاجتماع المصغر .. ويدير تلك الحوارات المثمرة التى تولدت

من الأزمة التى يمرون فيها فكلما تأزمت الأمور كلما اجتهد الرجال وخرجت الابتكارات .. فالحاجة أم الاختراع ولن يكونوا فى أزمة أشد من هذه الأزمة .. ولم يحتاجوا إلى الاجتهاد والابتكار كما احتاجوه الآن ..

فجأة لمح شوقى بعض الأتربة تتصاعد من اتجاه الجنوب قادمة من الحسنة أسفرت الأتربة عن تحرك دبابات قادمة من هذا الاتجاه فى مواجهة الدبابات اليهودية المتمركزة خلفهم والتى أصبحت بعد تعديل الأوضاع أمامهم .. وبسرعة قبل أن ينتبهوا إلى ما يحدث أو يتبينوا حقيقته .. فتحت الدبابات القادمة فى تشكيل المعركة وأطلقت وابلا من الدانات نزلت من الدبابات اليهودية فى مقتل .. لقد أتى الفرج من حيث لايتوقعونه .. الحمد لله انفكت أزمتهم .. وتهاوى حصار اليهود الملاعين أمام قذائف ونيران الدبابات القادمة التى لابد أن تكون دبابات صديقة.. دارت معركة تصادميه من التى يسمعون عنها فى الأفلام ويتدارسونها فى الكتب .. الدبابات المصرية ذات أعيرة أكبر وتأثير نيرانى أشد .. نعم انهم لايعرفون طرازها .. أهى ت٦٢ .. أم ت٥٤ .. وما تفيد المعرفة يكفيهم فقط التأثير .. دانات اليهود لاتكاد تؤثر فيها .. تقع الدانة على الدرع الأمامى لدباباتنا فتهزه فقط ولاتحدث فيه أى تدمير أو تأثير .. بينما تقع دانات دباباتنا فى مقتل من الدبابات اليهودية .. الدخان الأسود يتصاعد منها .. اللهب الأصفر يتأجج .. الانفجارات الذاتية لدبابات اليهود تتزايد .. جاءت كلمات العقيد عاطف وهم وسط هذه النشوة تكشف عنهم الغموض وتزيل الضباب المفروض «المعركة الدائرة أمامكم محاولة للواء ١٤مدرع بقيادة العميد عبدالمنعم واصل لفك حصار قواتنا .. فطنت القيادة العليا لمسرح عمليات سيناء بالموقف المتأزم الذى فرضه اليهود علينا .. فلم تتركنا وانما سارعت بنجدتنا .. وأرسلت مددا لمساعدتنا .. اذن نحن لسنا وحدنا .. الله معنا .. وقيادتنا ليست غافلة عما نحن فيه .. لكن كل شىء بحساب والأمور إذن

لم تقلت من يدهـا .. لابد لنا إذن من مسـاعدة دبابـات العميد واصل .. لابد من المشاركة فى المعركة أنها معركة الخلاص من الحرج الذى وقعنا فيه وليس من اختيارنا .. فلتطلق مدافعنـا داناتها لمساعدة العميد واصل ودون أوامـر من العقيـد عـاطف أصـدر الضـابط أمير السبكى أوامـره للمدافع المضادة للدبابات بالانطلاق .. راح الضابط أمير السبكى يصيح هنـا وهنـاك لإدارة نيران مـدافعـه .. مـدفع الـرقيب حسين هـو أول المشتبكين .. براقـو حسين تصويبك ممتاز .. لابد ألا يقل تصـويب فراج عما فعله حسين .. فلتضرب أنت على هدف تـال .. دبابة أخرى .. وبينما كان رجـال سرية المدافع المضادة للـدبابات يشتبكـون تلقائيا لمسـاعدة معركـة دبابـات اللواء ١٤ مـدرع كان رجـال السرية الثـالثة يتـابعون الموقف باهتمام ويترقبون مصير الدبابات اليهـودية التى تصاعدت منها أعمدة كثيفـة من الدخان الأسود وتنـاثرت منها أشـلاء الجثث المحترقة وتبعثرت أجزاؤهـا المفككة واشتدت ألسنة اللهب حتى خـالوه انفجارات ذرية من كثافة نيرانه .

ومع ازديـاد الانفجارات فى صفـوف الدبـابات اليهـودية ومع تقـدم الـدبـابات المصريـة صـوب غـريمتها وشـدة تأثير نيرانها لم يكن أمـام القوات اليهـودية سوى الانسحـاب .. التقهقر .. التخلص من المعـركة .. الحمد لله .. لحظة الفرج قريب عما تخيلنـا .. لحظة إنفكاك الحصار آتية لاريب فيهـا .. لقـد ذاقـوا مـرارة الكأس .. شربـوه حتى الثمالـة أنهم يحاولون الفكـاك من أمام نيران دبـابات العميـد واصل التى تقع عليهم كـالزلـزال وتؤثـر فيهم كالصـاعقـة وتدمـر دبابـاتهم وتحصدهـا كما الجراد.. دبابـاتهم كأنها جرذان مذعـورة أمام قطط رومية متـوحشة .. لاقبل للفأر بمواجهـة القط .. فما بالك بـاختلاف النوعيتين .. دبـاباتهم التى لاتعـرف نـوعيتها ولاهـويتهـا تعتمـد على خفة الحركـة والسرعـة والقـدرة على المناورة .. الله الله .. انها تهرب .. انها تجرى مـذعـورة من حيث أتت لاتحفل حتى بلم أشلائها المتناثـرة أو جر وحداتها المعطلة أو

تنظيم انسحابها كما تنص أبسط قواعد القتال ونظريات الحرب .. المفروض أن تستر نيران بعض الدبابات انسحاب الأخرى لكنهم يجرون بلا تنظيم ويهرعون بلا وعى .

مدرعات العدو تهاوت أمام نيران دبابات اللواء ١٤ مدرع الأشد تأثيرا والأكثر فتكا .. انهم دائما لايواجهون النيران بالنيران .. لايجازفون بتعريض أنفسهم لمعارك متكافئة .. قرروا سريعا التخلص من الورطة وإيقاف المعركة .. هدأت النيران وانخفضت ألسنة اللهب .. وساد المنطقة سكون أشبه بسكون القبور .. هربت الدبابات اليهودية .. وبدلا من أن نشاهد منظرا مثيرا ودباباتنا تطاردهم وتحصدهم وهم يرتدون على أدبارهم بلاترتيب أو تعاون .. شاهدنا العجب العجاب .. دبابات اللواء ١٤ مدرع .. ترتد هى الأخرى وتذهب من حيث أتت .. أين شجاعة العميد واصل التى طالما سمعوا عنها ؟ أين قدرته الفائقة على إدارة معاركه التصادمية وقتال الدبابات المعادية ؟ ذهبت أدراج الرياح.. تبخرت مع ذرات التراب المتهاوية التى أعلن خفوتها واضمحلالها عن انتهاء المعركة بأسرع مما تخيلنا .. أهى خطة ؟ .. أهو تكتيك ؟ ما الذى يحدث بحق الشيطان يدفع قواتنا على الاحجام عن مطاردة دبابات مهزومة .. قوات مكسورة .. فلول تهرول بلا أى نظام ودون أدنى مقاومة .. وجاءتهم كلمات العقيد / عاطف تشرح لهم الغموض كما هى العادة ..

ليس لدباباتنا قدرة على المطاردة بعد أن قطعت أكثر من خمسمائة كيلومتر على الجنزير والمعروف أن الدبابات تنتقل بواسطة حاملاتها إلى مكان المعركة المنتظرة قريبا من مسرح العمليات المتوقع .. لكن المسكين العميد واصل تلقى أوامر عديدة بالسفر إلى هنا والتقدم إلى هناك والجرى إلى هذه المنطقة والاندفاع إلى تلك المهمة إلى أن أنهكت قواه وخارت قدراته . تصور العميد واصل أنه أنجز مهمته بدحر قوات اللواء السابع الجولانى اليهودى وإعادتها من حيث أتت .. وربما جاءته أوامر

أخرى بالتقدم إلى منطقة أخرى أو تحديد مهمة تالية.. أن هناك أسبابا لايعرفونها كفيلة بأن تجعل دبابات اللواء ١٤ مدرع لاتغامر بمطاردة العدو مهما كان ضعيفا .. لابد للعميد واصل أن يضطلع بمهمة أخرى لنجدة قوات أكبر أو لمواجهة ظروف أصعب فى منطقة استراتيجية أخرى.. ولكن كيف سيكون موقفهم بعد هذا الانفراج الذى لم يستكمل أسبابه .. وهذا الانفتاح الذى لم تتم فصوله .. انقشعت دبابات اليهود وتهاوت دفاعاتهم وانفتح الطريق أمام قواتنا للتحرك صوب الاسماعيلية ولو حتى على سبيل إعادة التجميع والتشكيل تمهيدا للقيام بمهام أخرى .

انتابتهم حالة من الاحباط العميق وتسرب إلى نفوسهم بعض اليأس.. صمت العقيد عاطف لم يصدر أوامره بالاستعداد للتحرك استغلالا لانفكاك الحصار أو حتى للانتقال لمواقع أخرى أشد تحصينا وأكثر منعة .. صمت العقيد عاطف يدعو إلى الريبة ويبعث على الشك .. لم يتعودوا منه الصمت فى هذه المواقف .. وجدوه قريبا أكثر مما يجب وجدوه شاعرا بكل خلجاتهم .. بكل نبضهم .. بكل أحاسيسهم .. ترى ماذا أسكته ودفعه إلى اتخاذ هذا الموقف السلبى غير الواضح ؟ .. راحوا يتفكرون ويناقشون موقفهم الذى هم عليه الآن .. يحاولون تصور الخطوة التالية فى ظل الصمت الغريب الذى بدا على قائد الكتيبة .. قال النقيب / صلاح : إنه ينتظر تعليمات العميد سعيد قائد اللواء دائما النقيب صلاح ينتظر التعليمات .. علمته التجارب ألا يغامر ويبادر بالتصرف دون الرجوع لقيادته .. قال شوقى : لا يا صلاح انه يفكر فى الخطوة التالية ويعيد حساباته فى ظل المعطيات الجديدة .. ونطق رستم أحد ضباط السرية الثالثة : يا جماعة إن صمت العقيد عاطف ينبىء عن حالة من عدم المعرفة وقلة المعلومات ربما انقطع الاتصال بينه وبين القيادة ولذلك فهو يتريث فى اتخاذ القرار حتى لايقع رجاله فى المحظور.. وربما وصلته معلومات تفيد عدم جدوى التحرك لمواقع أخرى .

وبينما هم يتفكرون وقع نظرهم على مشهد غريب أصابهم بالفزع وسبب لهم الذهول . نفس الدبابات الخضراء التى كانت تهرب وتتخلص من المعركة أمام دباباتنا .. تعود أدراجها من جديد .. وتحتل نفس مواقعها وتوجه مدافعها إليهم .. انها تواجههم وتتربص بهم .. تأخذ مرابض نيران على التباب المواجهة لتبابهم .. تعيد إحكام الحصار حولهم .. تقطع عليهم الطريق نحو الاتصال بقواتهم فى الخلف وتحرمهم من خطوط الامداد .. وتحول بينهم وبين مناطق الشئون الادارية .. انقطعت عنهم فرص الامداد بالمياه التى لاحت بعد هروب الدبابات .. ضاع مجهود دبابات اللواء ١٤ مدرع سدى .. تبدد الأمل وتلاشى بصيص النور الذى ساد مشاعرهم لفترة قصيرة .. هكذا الحروب .. تتغير مواقف القوات المشاركة فى القتال لحظيا .. قد تشعر للحظة أنك منتصر لامحالة .. وأن مجريات المعركة أصبحت فى يدك وأنك أحكمت السيطرة على كل المقدرات .. وفجأة ينقلب الحال وتتبدل الأوضاع .. وتجد نفسك فى حالة دفاع مفروضة عليك ولاتستطيع لم شتاتك خلالها .. القائد المحنك هو الذى يضع حلولا فورية لكل الاحتمالات والخبرة تكسب المقاتلين المتمرسين سرعة البت فى المواقف واتخاذ القرارات الفورية المناسبة .

فجأة سمع شوقى صوت العقيد عاطف يصرخ هاتفا فى جهاز اللاسلكى الخاص بالنقيب صلاح بضرورة حضوره إلى مركز قيادة الكتيبة فورا .. راح يفكر فيما يريده .. انه يثق فى شجاعة قائده وتمرسه على فنون القتال .. أصقلته خدمته فى وحدات المظلات حتى وصل إلى قيادتها ورتبته لم تتعد المقدم .. وزاده اشتراكه فى حرب اليمن وقبلها ١٩٥٦م حنكة ودراية بفنون المراوغة والمناورة والالتفاف والتطويق ..

انتصب شوقى واقفا على أهبة الاستعداد أمام العقيد / عاطف بعد أن أدى التحية العسكرية بشدة وكأنه يستحثه على نسيان موضوع

ركبته إياه .. لا أعتقد أنه مازال يتذكره .. ولم تدم شكوكه كثيرا .. ابتدره قائلا .. اخترتك للقيام بمهمة استطلاعية بدلا من همام الذى يقبع على جبل لبنى بالرغم من حلول الظلام وانتهاء مهمته .. أود التأكد من بيانات قيادة اللواء الخاصة بالعدو المحاصر لنا .. العميد سعيد يقول انه على بعد ستة كيلو مترات ولايتعدى قوته عن عشر دبابات، فغر شوقى فاه .. وارتسمت على محياه آيات الفزع والذعر مما دفع العقيد عاطف لسؤاله .. ماذا دهاك أتخشى القيام بهذه المهمة الصغيرة ؟ أتخاف الوقوع فى الأسر ؟ اخترتك لأنى أعلم شجاعتك وقدرتك على مواجهة تلك المهام .

وكأن العقيد عاطف يستحثه على القيام بدور البديل لمهام ضابط استطلاع الكتيبة وجاء رد شوقى يعبر عن صدمته واحباطه .. ليس لكل هذه الأسباب .. فلم يتسرب الخوف بعد إلى نفسى منذ وصولى موقع الكتيبة .. ولكننى أرى العدو وهو لايبعد عن موقع السرية الخلفية والتى أصبحت سرية المجهود الرئيسى كما تعلم سيادتكم سوى مائتى متر على الأكثر .. وقد تستطيع سيادتكم أن تحصى دباباته ليس بنظارة الميدان التى فى عهدتك وأراها على صدرك وإنما بعينيك المجردة .. وفى صوت آمر قال العقيد عاطف لا أحتاج لمزيد من معلوماتك .. ولكننى قد تعلمت كيف أحترم معلومات القيادة الأعلى أود التثبت من خلالك بصحة ما ورد من قيادة اللواء .

لك السمع والطاعة .. لكن لى بعض المطالب التى أراها ضرورية للقيام بمثل هذه المهمة .. كما أن لى بعض الاستفسارات .. ما هى وسيلة المواصلات ؟ من أين لى برجال استطلاع ؟ هل أشتبك مع اليهود لو أننى تورطت معهم ؟ وجاء رد العقيد / عاطف سريعا وكأنه جهزه قبل أن يسأل شوقى .. العربة المدرعة جاهزة .. واختر ما شئت من رجال الكتيبة حتى ولو وقع اختيارك على الرائد رمسيس سأكلفه بالانضمام لك فى هذه المهمة .. ما مطالبك ؟ العربة الجيب الخاصة

بحضرتك .. أوافقك على ذلك خـذهـا متـى شئت وطـالما تكـون جـاهـزا للمهمة. وأضاف شوقى سأختار بعض رجال سريتى وليس رجال همام لأنى أثق فى قـدرتهم على تفهم أوامـــرى دون أن تصـدر من لســانى .. وأطلب من سيـادتكم أن تأمر الضابـط صبحى بإطلاق بعض الـدانات المضيئة من هـاوناته أمامى للكشف عـن مواقع اليهود خاصـة وقد حل الظلام تماما .. وبسرعة كان صبحى يتلقى أوامـر العقيد عاطف بذلك .. أما آخر مطالبى فهـو التنسيق مع النقيب صلاح حين عودتى من المهمة حتى لايتصـور أننى من اليهــود ويطلق نيرانـه على العـربـة .. وبنفس السرعـة قال العقيـد / عـاطف فى جهـاز اللاسلكى .. صـلاح سيـذهب شـوقى مع بعض الـرجال لاستطـلاع العـدو .. وحين عودتـه سيضىء أنوار العربة التى تقله ثلاث مـرات .. فلتفهم جيدا إشارته وتأمر رجالك بصمت النيران .

جاهـز يا فرغلى ـ جـاهز يا حسن .. أنت يـارقيب داوود هل أعددت ســلاحك وتممت على ذخيرة الـرجال .. عثمان أنـا أعلم أنك تعـودت على قيادة العقيد / عاطف وهــو بجوارك فى المقعد .. لكنك هذه المرة ستسمع أوامرى أنـا وأرجو أن تكون كتلـة حذر ويقظة لأن المهمـة تحتاج للكثير من التركيز .. هكذا جاءت كلمات شوقى حـاسمة لتوضيح مهمة الرجال وأضــاف مهمتنا أن نتأكـد من مواقع مـدرعات العـدو وعددهـا .. ولكى لاتتفهموا الأمر على غير واقعـه .. لقد أفادت معلومات مركـز قيادة اللواء بتحرك الـدبابات بعـد أن حل الظلام إلى الخلف عند النقطـة مائة وسبع وستين .. ومطلـوب منا تأكيـد تلك المعلومـة .. وبعفويتـه المعهودة قـال فرغلى الـذى كان قريبـا من قلب شوقى .. لكننا لم نسمع محركـاته ولم نر أضواء دباباته أو مركباته ونحن على مسافة لاتتعدى مائتى متر فقط تسنح لنا برؤية وسماع كل شىء .. أجاب شوقى .. لا أقول كما قال لى العقيـد عـاطف .. أنك خفـت .. وإنما أشعـر بما تحســه من غـرابـة .. ولا أستطيع أن أقنعك بما لست مقتنعا بـه لكننا يا فـرغلى لانرى ونفهم

مثل قيادتنا .. حتى ولو كانت الأوامر غير مقنعة من وجهة نظرنا القصيرة فلاشك أن لديهم الدافع على هذه التعليمات والقيام بمثل هذه المهمة .

بدأت العربة الجيب تنزل الميل الجنوبى لتبة السرية الثالثة بهدوء شديد .. كأنه من غير المسموح إطلاقا إضاءة أى أنوار .. وقام شوقى بإصدار تعليماته بكتم الأصوات وحتى الأنفاس .. ولم تكد العربة تتقدم مائة متر فقط حتى نطق فرغلى همسا وكان يجلس بجوار شوقى فى الخلف مباشرة .. أترى يا فندم تلك الكتل السوداء التى على مرمى البصر اننى أتخيلها دبابات اليهود وهى منتظرة لاتبعد بين الواحدة والأخرى أكثر من ٢٥مترا .. رد شوقى استمر فى ملاحظاتك فى صمت ولا تتحدث إلا إذا أمرتك بهذا .. استمر السائق عثمان فى تقدمه لمسافة أخرى ثم اضطر للوقوف فورا تنفيذا لأوامر شوقى الذى أمر رجاله بالهبوط بعد أن قام بتشكيلهم فى مجموعات إغارة صغيرة .. هو وفرغلى فى الأمام وداوود وحسن فى الخلف بعشرة أمتار على أن يكون التعاون عن طريق الخبط بإصبعه على دبشك البندقية الخشبى نقرة واحدة تعنى الوقوف اثنتان تعنى التقدم .. ثلاث تعنى الاشتباك مع الأفراد الذين يظهرون أمامهم على أن يكون الارتداد إلى العربة سريعا بعد الاشتباك وعلى السائق عثمان أن يدير واجهة العربة فى اتجاه العودة وإدارة المحرك دون توقف حتى إذا ما ارتدوا بعد الاشتباك ينطلق عائدا لموقع الكتيبة سريعا ..

تعجب داوود من الضابط شوقى الذى لم يصدر نقرة واحدة بدبشك البندقية بالرغم من أن الدبابات باتت على بعد أمتار قليلة وقاموا بعدها وتمييزها بوضوح .. لكنه لم يكن يعلم أن شوقى يريد معرفة الدافع على حالة الصمت التى كانت عليها دبابات اليهود ولم يعرف ذلك إلا بعد أن وصل فرغلى إلى إحداها وتأكد أن طاقمها قام بغلق جميع فتحاتها ويغط فى النوم انتظارا لصدور أوامر أخرى من قائد التشكيل ..

وأنه لاسبيل أمامه للتعامل مع تلك الدبابات لأنه لايحمل معه أسلحة مضادة لها ولو حتى آر.بى.جى .. وارتد شوقى وأمر رجاله بالعودة إلى العربة التى أقلتهم من جديد إلى مركز قيادة الكتيبة بعد أن أصدر عثمان الإشارة المتفق عليها مع صلاح .

اقترح الرائد رمسيس على العقيد عاطف أن يقوم الضابط رستم من السرية الثالثة بالمهمة التى أخفق شوقى فى القيام بها .. وكان العقيد عاطف قد علق على معلومات شوقى التى أفادته بأن العدو لايبعد عن السرية الثالثة بأكثر من مائتى متر فقط وأنه يقدر بثلاثين دبابة وبعض المركبات الذاتية الحركة بأن خوفه جعله يتخيل أمورا ليست حقيقية وأنه تصور بعض الصخور المتناثرة فى الصحراء على أنها دبابات .. لم يجد شوقى الرد المناسب والمعبر عن ثورته الداخلية من الظلم الذى حاق به .. اتهامه بالخوف وأن خوفه صور له أمورا ليست من الواقع فى شىء .. لاذ بالصمت حتى لايقع فى خطأ قد يستوجب العقاب .. ولم يرد إغضاب قائده الذى طالما احترمه ووثق به .. لم يرغب فى رد اعتباره من الرائد رمسيس الذى لم ينصفه وهو يعلم مدى شجاعته من خلال تنفيذه لمهام عديدة أصعب بكثير من هذه المهمة فى حرب اليمن .. استمع شوقى لأوامر العقيد عاطف بتكليف رستم بالمهمة وعاد يجر قدميه إلى مكانه بالقرب من السرية الثالثة .

فوجىء النقيب صلاح بعودة الضابط رستم ورجاله بأسرع مما تخيل .. فبمجرد نزولهم الميل الأمامى للتباب كادوا يصطدمون بدبابات اليهود وأعادوا على مسامعه نفس البيانات التى أتى بها شوقى .. ونقل صلاح إلى العقيد عاطف ما سمع وأكد له أن الدبابات لاتبعد كثيرا عن موقع سريته وأنها لاتزيد عن ثلاثين .. ولم تعرف مجموعة الأركان الصغيرة التى كانت تتكون من النقيب صلاح ومعه ضباطه الثلاثة قواد فصائل لسرية والضابط شوقى والضابط أمير السبكى رد فعل العقيد عاطف بعد أن تأكد من المعلومات الخاصة بالعدو .. واضطر شوقى

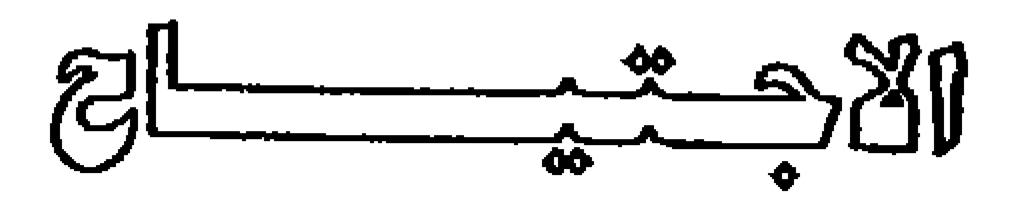
لإخفاء مشاعره المحبطة عن بقية زملائه حتى لاينتقل عدواها إليهم وتتأثر جسور الثقة بينهم وبين مركز قيادة الكتيبة ..

وانشغل فكره فى السبب الذى دفع دبابات اليهود إلى عدم إطلاق أى نيران عليه أو محاولة أسره ورجاله .. ولم يقتنع بخلودهم للراحة والنوم فى هذه الساعات العصيبة .. على الأقل كان يجب أن يكون هناك دبابة واحدة فى حالة يقظة كاملة وجاهزة لاطلاق نيرانها عليه .. وتجمعت فى ذهنه العديد من الاستفسارات شغلته نسبيا عن التأثر بحالة الاحباط الشديد التى انتابته بعد أن اتهمه قائده بالخوف . أنه لم يخف لو كانت لديه أسلحة مضادة للدبابات لما ترك الدبابة التى كاد أن يلمسها بيديه دون أن يدمرها .. لكن لقد تعود على مشاعر الظلم فى بعض الأحيان .. حتى عندما كان يقوم ببعض المهام القتالية الشاقة .. كان يشعر به عندما لايلقى نفس القدر من الاشادة والاستحسان .. لا.. لا يا شوقى لقد أفسدك تدليل العقيد عاطف لا .. لا .. لاتسمح لتأثرك أن يوغر صدرك ضده .. فهو لايزال نعم الأب .. وخير القادة .. وحتى لو لم يكن كذلك فعليك ألا تنقل أحاسيسك المحبطة إلى الآخرين .. حتى لايتسرب إليهم اليأس فى أحلك الأوقات التى تتطلب استنفار كل الهمم وتحفيز كافة الجهود والطاقات .

حب .. وحرب

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧

الاجتياح



الاجتياح

ساعة انبلاج الصبح من غسق الليل تحمل فى طياتها نسمات رطبة منعشة تسرى فى الأوصال فتغذيها وتمتزج بالدماء فتنقيها.. لم يكن من الصعب على الرجال أن يتوقعوا الخطوة التالية لليهود بعد حصارهم الذى دام طوال ساعات الليل.. طلبوا من قيادة اللواء تدعيمهم ببعض الدروع والدفع إليهم ببعض المدفعيات من كتيبتى النسق الأول لمواجهة المعركة المتوقعة.. لكن هيهات أن يحدث ذلك.. فالخطب شديد ومن ثم كان على كل وحدة أن تتدبر أمرها بنفسها خاصة أن الأمور اختلطت والمعايير اهتزت والتوقعات تلاشت ونجح اليهود فى بث حالة من عدم الثقة فى المعلومات والبيانات المتاحة عنهم وتحولت اشراقة النهار الصبوحة إلى حمرة داكنة وارتفعت ألسنة اللهب وأعمدة الدخان وامتلأت الساحة بالانفجارات.. اختلطت صراخات القتلى وأنات المصابين بدوى المدافع وهدير الدانات التى أطلقها اليهود صوب الرجال والخيام والمعدات بلاهوادة وبأعلى معدلات ممكنة.. اقتلعت نيرانهم كل شيء بعد أن تساوى أمامها الانسان والجماد.. وهوت داناتهم على كل مافوق الكتيبة فلم تذر على الأرض مايمكن أن يظل باقيا.. كانوا يطلقون نيرانهم ليس بهدف اسكات النيران الهزيلة أو احتلال مواقعنا الكبيرة

وإنما لـلانتقـام والازالـة بعد أن تـوحـدت الأجســاد بـالأرض..وتمسك الرجال بمـواقعهم.. اختلط ترابها بدمائهم وامتـزجت رمالها بأشلائهم.. تحركت دبابات اليهـود تعيث فى موقع الكتيبة الدمـار وتلحق بها الوبال والخراب.. سالت الـدماء الطـاهرة فـوق كل ربوعـه.. وتناثـرت الاشلاء الكريمـة فى كل أرجائه.. استشهد الـرجال بالمئـات.. ولم يبق منهم أحد سليما إلا من أنقذه الله من هذه المذبحة الشيطانية.. لم يكن بالمعركة أى تكافـؤ.. فقد تضاعفت المدرعات التـى هاجمت موقع الكتيبة عـدة مرات عن الاستنتـاجـات التى استطلعهـا الضـابط شـوقى ومن بعـد رستم.. ولم تجد أمامهـا أى مقاومة تذكـر.. تضاءلت المدافع المضادة للدبـابات العشرة وبعض الاربيجيهات الضعيفـة أمام السيل المنهمـر من المدرعات والآليات والمدفعيات وقـواذف اللهب اليهودية.. ولم يبق أمـام رجالنا إلا أن يقـاومـوا زحف الـدبـابـات بنيران أسلحتهم الصغيرة وبـزجـاجـات المولوتوف الحارقة التى أعدوها لهذه الليلـة المشئومة.. ثم بعد أن فرغت مقاومتهم.. تلقـوها بصدورهـم وأفئدتهم.. لم نلمح رجلا يجرى هـربا.. أو يصرخ هلعـا أو يلطم جـزعـا انتـزعـوا وهـم فى أوج ضعفهم الاكبـار والتمجيد مـن عدوهم.. ظلوا فى مـواقعهم وخنادقهم بعـد أن سقطت كما تعلموا ليقـاتلوا العدو المهاجم يـدا بيد وبالقتال المتـلاحم.. لكن عدوهم كان أجبن من ذلك بكثير.. فبرغم قوته وجبروتـه.. فبرغم جسامة وفداحة خســائر المصريين.. لم يحفل بقتل من تبقـى منهم ولم يهتم بتصفيــة بعض جيـوب المقاومـة البشريـة حتى لايعرض ثـروتـه ورجالـه إلى أى اصابات.. وكما داست المدرعـات ساحة الكتيبة ٣٤٢ واحالتهـا إلى بركة دماء وحـولت جـوها إلى فرن فسيـح خرجت منـه أبخرة الشـواء للحوم البشرية النقية.. توجهت فى طـريقها إلى كتيبتى النسق الأول للقضـاء على كل مابقى منهما.. لحظـات قصيرة لكنها مرت كـالجبال طويلة طـويلة.. لم تستغـرق المعركـة عدة دقـائق تحركتها دبـابات اليهـود وهى تطلق داناتها فتقع كـالصاعقة على كل مـاتلقاه أمامها فتعصف بـه وتحيله إلى

ركام وأشــلاء.. ولم تجد فى طريقها مــايبطىء تقدمها أو يـوقفه أو حتى يضعف دقة نيرانها.. صحيح أحـدثت دانات المدافع المضــادة للدبــابات المصريــة بعض الاصــابـات فى المدرعات اليهـوديــة.. لكنهـا لم تتـوقف ولم تحفل بمساندة المصابين فيهــا أو اصلاح أعطالها وانما اندفعت بكل ثقلها لمحو كل مالقيها من آثار باقية.. المعجزة وحدها هى التى أبقت على بعض الأرواح.. الأقـدار وحـدهـا هى التى سمحت لبعض الأنفـاس أن تستمر.. عنـاية السماء هى التى شملت بعض الرجال بـالصـون.. وحتى هـؤلاء لم يصدقـوا أنفسهم فظلـوا يتحسســون أجسادهم ويضمـدون جـراحهم ويجرون أقـدامهم يستحثــوهــا على السعى لكن إلى أين وإلى متى؟ لم يكن من الصعب عليهم أن يتبينـوا فـداحـة الخسائر وفظـاعـة المذابح وانهيــار الأمل وتداعى الـرجاء.. ضــاع كل شىء ولم يبق شىء.. هذا هو الرائد رمسيس.. ممددا بجوار مركز قيادة الكتيبة وقد تحول إلى كتلـة من الـدمــاء ليس بها أى مــلامح أو عظـام.. وهــذا النقيب سيـد عبدالغفار الجسد الطــاهر البدين وقد تناثـرت أشلاؤه وتبعثرت أعضاؤه وهــذا النقيب سيد يـاسين لم يبق من ملامحه إلا فم مفتـوح وقد كـان لايفتحه وهو حى.. لم يعد باقيا من مساحة الكتيبة الشاسعة مترا واحدا إلا وغطت رمــالــه الدمــاء.. وقبعت فـوقـه الأطراف والأذرع والأقــدام.. الوحيـد الذى لم يظهــر له أثر فى هــذا المعترك الكئيب هو العقيـد عاطف قائد الكتيبــة لم يبق له وجود لاهــو ولاسائقه وعـربته الجيب.. تحـركت الفلــول البشرية القليلــة الباقيــة والتى لم تتعد أصــابع اليدين بفطـرتها وبغريزة حــب البقاء نحو ساتر يعصمهــا من النيران الهادرة.. ووجهتها أقـدامها إلى جبل لبنى القــريب جدا من جــانبها الأيمن.. تحولت أحجــار الجبل إلى أطواق نجاة لمن تبقى من الرجال تحميهم من الدمار والنيران.. تسلقــوا مطلع الجبل واستتروا بأحجاره وتحصنــوا بصخوره.. وجــاءت الدبــابات اليهودية تــلاحقهم وصبت نيراتها على الميول الأماميــة بالجبل فأحالت ســواد صـخوره إلى حمرة داكنــة وتولت نيران مـدافعها تسييح

المعادن الكامنة فسال الحديـد من بعض الأحجار واختلط سائله ببعض الـدماء التى أريقت من الأجسـام الطاهـرة التى أصيبت.. لم يمكن الميل الحاد للجبل المدرعـات اليهـوديـة لتكملـه مطـاردتها للـرجـال النـاجين فتوقفت هى وأكملت الطائرات الهيل التى أتت على عجل لمسـاندة معركة قواتها الأرضية مهمتهـا فى المطاردة باصرار غريب وكـأنها تود إزالة أى آثـار حيـة انتقامـا من جيب المقـاومـة العنيد الـذى اجبرهـا على تأخير معركتهـا يومـا وليلة وكلما انتهت غـارة جويـة تنفس الـرجال المحتمين بالصخـور الصـداء.. وابتعـدت أجسادهم قليـلا عن حصونها وأذرعهم قليـلا عن أحضانها وخففـوا من عنـاقهم للأحجـار إلا وعادت طـائرات اليهـود من جـديـد تغير عليهـم فيعـاودون هم الالتصـاق بـالصخـور والتوحـد بالأحجار.. ظل الـرجال على حـالتهم هذه طوال نهار ٦ يـونيو المشئـوم.. مـر عليهـم كأطـول نهار فى التـاريخ.. الطـائرات لاتتـوقف والغـارات لاتقل.. والخسـائر تـزيد وتتعـاظم.. والـدمـاء تسيل وتغطى الجبل بعد أن فـاضت بها سـاحـة الكتيبة من قبل.. استشهـد المئات من رجـال الكتيبة ضبـاطـا وجنودا لم تفـرق النيران بينهم.. إنهم كثيرون.. لايمكن احصاؤهم.. ولم يكن بـالمقدور تبيان النـاجى من المستشهد بل لعل شـوقى نفسـه لم يستطع أن يعرف كيف كتب الله لـه النجـاة.. كل مابقى بذاكـرته أنه ظل يطلق نيران أحد مدافعـه من قلب المعركة وداخل بـؤرة النيران والدمـار حتى توقف.. نفـدت ذخيرتـه فتوجـه إلى العربـة بجـوار مـوقعـه ليحصل على كميـة إضـافيـة من الـذخيرة التى كـانت «مشـونـة» فيها وقبل اقـدام من الـوصـول إلى العربـة لحقت بها دانـة مباشرة احالتهـا إلى كتلة متفجرة انبطح أرضا وراح فى غيبوبـة كاملة لم يدر معها كيف مرت بجواره دبابات اليهود دون أن تعبأ به ظنا أنه مات أفاق شـوقى من اغمائه فتذكـر الصورة القاتمة التى كـانت حولـه بعد زوال الغيبوبـة، أشلاء وأعضاء غطت المكان بـالكامل.. دماء سـالت هنا وهنـاك.. مدرعـات اليهـود تطلق نيرانها بلارحمة فى كل مكـان.. لم يكن

أمـامه سـوى الصعـود مع بعض رفـاقه إلى جبل لبنى.. وتكملـه نهاره الطـويل فى الاحتماء بـه والافـلات من نيران طـائرات الهيل اليهـوديـة.. تـرامى إلى سمعه وهـو فى هـذه اللحظـة كلمات القائد الـذى فى السرادق فأوقف شريط الذكريات وهـو يردد.. «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجـلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منهـا ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشـاكرين» «صدق الله العظيم» أخذ شوقى يبحلق فى جموع المعـزين وهى خارجـة من السرادق ترتسم على محيـاها آيـات الحزن والأسى وبعضهـا يزرف دمـوعا سـاخنة وهـو يصافح شقيقـه بالذات.. أما شقيقه فلم تقو قـدماه على حمله فأجلسوه بعد أن أصر على البقاء فى واجهة السرادق حتى آخر أنفاســه مهما كابد من مشقة وجهد.. فجأة انتبه على وميض مصبـاح شرفة منزلـه عبث به أحد أبنـاء شقيقته فانعكس نـوره على وجه بعض السيـدات المتشحات بالسـواد يولـولون ويبكـون.. رباه مـا هـذا الذى يـراه انها أمـه وقد تـوسطت الجميع إنها ملامحها ووجههـا الذى طالما قبله.. جبهتها التى طالما لثمهـا .. وجنتاها اللتان طالما تـوردتا خجلا أمام أى مـوقف.. مقلتاها الـواسعتان أحمرتا من البكـاء.. الـدمـوع تنسـاب على خديها تعلن عـن جزعهـا وفـداحـة مصابها.. أحمدك يـا الله أشكرك يـارب.. إنه يستطيـع الآن أن يرتمى فى أحضانها ويبثهـا أشواقه ويقص عليهـا آلامه ويحكى لها قصتـه منذ أن غـادر المنزل وهى تـودعه ومـاصادف من أهـوال وعاش من مخاطـر.. ولكن وآه من كلمة لكن.. كيف له أن يعبر هذا السرادق الضـخم وهو على هيئتـه الرثـة وأثماله غير المهنـدمـة.. ومن ياتـرى المصاب الـذى سبب لأسرته كل هذه المآسى.. لابد أنها إحـدى شقيقتيه.. نعم هى هى بعينها زوجـاهما بجـوار شقيقـه.. وعلى محيـــاهما نفس آيـات الجزع والأسى المرتسمة على وجهه ولكن مرة أخـرى إن ملامح الأسى محفورة على كل الـوجوه.. مسطـورة على كل من فى السرادق.. شباب.. جيلـه من يعرفـه ومن لايعـرفــه الكل متأثـر لـوفـاة شقيقتـه إن بعضـا منهم لم يغـادر

السرادق عندمـا فرغ القـارئ من تلاوتـه .. إن كثيرا منهم نهض واقفا وشارك فى تلقى العزاء وكأن الفقيده شقيقتـه.. ترى هل غيابه لمدة شهر فى سـيناء يـولد بين النـــاس هـذه المشــاعر الطيبـة؟ هل هـــذا الغيـاب كفيل بإذابة الفـواصل وتقريب الفوارق وتلاشى المســافات. إنها الحرب ورب ضـارة نافعة.. لم يكن له أن يلقى هذا التعاون والتكاتف والمساندة ما لم يشارك فى معركة الشرف مع كتيبته كان معه كل الحق عندما أصر على مغادرة المستشفـى والمشاركة فى مهـام القتال مـع رجاله وتنـاسى أوجاعـه وآلامه.. شكرا لك يـارب .. آه ياأماه اهتـز بدنه هـذه المرة وهو يردد‌هـا انه يستطيع أن يعـدو نحوها وينهل من حنـانها بعد أن زلـزله فراقها.. لن يفارقها دقيقة واحدة بعد الآن.. لن يترك مابقى من عمره إلا وقد التصق بها بعد أن شرب مرارة فقدهـا وقبل أن يطلق لساقيه العنان متوجهـا نحوها تـذكر أنـه لايستطيع أن يجرى على الجروح التى ملأت قـدميه وسـاقيـه حتى ولـو لم تكن فكيف لـه عبور السرادق الملعـون.. أصبح السرادق أشبه بـالموانع التى يتعذر عبـورها أيـام كانـوا طلبة فى الكلية الحربية.. مرة أخرى وجـد شوقى نفسه وقد شرد ذهنه فى اجترار شريط الذكريات لكن بشىء من الأمل وببعض التفاؤل انقشعت الصدمة التى هزته لفقـد أمه.. ومهما كانت آلامه وأحزانـه على وفاة شقيقته فهى أقل بكثير.. تـرى أى شقيقتيـــه التى تـوفيت.. الكبرى التـــى تشبهـه فى بياضهـا وشعرها الأصفـر أم الصغرى التى على عكسه تمامـا بسمرتها وعينيها السوداوين.. لم يسعفـه فكره فى المفاضلة.. ولم تقـو ذاكرته إلا على العودة من جـديد لتخيل مـاأصبح عليه الـرفاق بعـد أطول نهار فى التـاريخ.. نهار السادس مـن يونيـو عقب أن انتهى من تنظيف منطقـة رئاسة الكتيبة من كل مظاهـر الحياة.. لم يبق على أرضها شىء ينبض.. أحالت النيران كل ماهو حى أو متحرك إلى سكون.. إلى رماد .. إلى موات هدأ هدير المدافع.. سكن أزيـز الطائرات.. صمتت أنات المصابين بعد أن تـوقفت الأنفـاس.. وصعـدت الأرواح إلى بـــارئهـا تعلن عن استشهـاد

المئـات.. غلف المكان سكـون قـاتم ووحشـة مخيفة.. خيم الظـلام على الجبل فحول أحجـاره إلى أشباح.. كل حجر يخفى خلفه شبحـا للموت.. إن الموت يتعقبهم منـــذ الصبـــاح يأبى إلا أن يقبـض أرواحهم ويكتم أنفـاسـهم قبل أن ينتهى مـروره على هذه المنطقـة الخراب.. كيف لـه أن يفلت من قبضتـه وقـد سيطر بها على كـل رفاقـه.. لم ينج منهم أحـد.. حتى الضـابط محمـود الذى استلمه حديثـا قبل الحرب بأربعة وعشرين سـاعـة فقط لم يفلت من لقائه.. كم كـان يأمل فى أن يصنع منه ضـــابطا ممتازا.. كـان يرى فيه خليفتــه فى قيادة سرية الـرشاشات لـوأن العقيد عاطف صـعـده لتولى قيـادة إحدى السرايـا المشاة.. أبدى بعـض ملامح الشـجـاعـة وظهـر عليه بعض سمات الجرأة المبكـرة.. اقتنصـه صــلاح لتدعيم سريته بعد أن تحولت إلى سريـة المجهود الرئيسى لمواجهة اليهود الذين قدمـوا من الخلف أحس شوقى لحظة وداعـه أنه وداع بغير لقاء.. وغيره وغيره من الشـهداء الأبرار.. يتــذكر من أو من أو من.. إنهم جميعا رفاقه بينهم أخوة لايمكن أن تتفصم عراها ـ ذكرياتهم محفورة بذهنه.. له مع كل منهم موقف.. وبينه وبين الجميع وشـــائج قوية لايمكن للأيام أن تمحوها.. سيظل يذكرها أبد الـدهر أنتفض شوقى مذعورا وأفاق من غفوتــه عندما شعـر بيد تربت على كتفـه دون أن يسمع وقع خطواتها.. وقبل أن يهب للتحرك دفاعا عن نفسه رأى ابتسامة وديعة ارتسمت على وجه مألوف لم يفـارقه منذ أن تسلمه ضـابطـا مستجدا بمسرح عمليات اليمن إنه النقيب صـلاح حسـين.. ياالله.. ليس بعيدا على قدرتك يا الله أن تحفظ صـلاح وسط هذه الحمم ومن هــذا الجحيم المستمر لم يكن صعبا على عنـاية السماء التى كتبت لـه أنفـاسا أكثـر وعمـرا أطول أن تبقيـه مصانــا وسط هذا الدمـار وهذه النيران.. لقـد رآه والدبابـات تعبر فوق خندقه.. انه لم يجبن ولم يترك رجاله بل كان أمامهم وليس بينهم.. انها عظمة الخـالق يهب لمن يشــاء الحياة.. يمنح لمن يشـاء الاستمرار ويكتب للآخرين الشـهادة.. ليت الناس يـؤمنون بأنه لن يصيبهم إلا ما كتب الله

لهم وعليهم.. تبـادل الاثنان حـديثا هـامسا.. كيف انجـاهما الله.. وكيف التقيا بعد تفرق لم يكن له نهايـة.. آمنا أن الله قد يجمع الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تـلاقيا.. وهما على حالهما الهادئ سمعـا وقع أقدام آتية من قمـة الجبل.. رباه.. اليهـود اسقطوا مظـلات لتعقبهم أما لهؤلاء اليهود مـن رادع.. ألم يحن بعد مـوعد استرخائهـم.. منذ انبـلاج الفجر وهم يعملون مـدافعهم ونيرانهم بلاتـوقف.. ويحصدون أرواح المصريين ويلحقـون بهم الدمـار دون شبع.. وبعد كل هـذا يتعقبونهم وهـم فـوق الجبل بمظليين بعـد أن توقفت طـائراتهم ودباباتهم عـن الحركة.. اسرع صـلاح وشـوقى فى التحصن بسـاتر واعـداد سـلاحهما لـلاستعمال.. لامنـاص أمامهم إلا الـدفـاع عن النفس مهما كـان فارق القـوة بينهما.. المظليون اليهود على درجة عاليـة من الكفاءة ومزودون بإمكانيات كبيرة من النيران.. ومع ذلك لن يظلا صـامتين ولن يموتـا خائفين.. إذا لم يكن من الموت بـد.. فليس أقل من اصابـة نفر منهم قبل أن يلحقـا بالـرفاق وقبل أن يطلقـا نيرانهم فى مـواجهة العـدو المترجل القـادم.. استمعـا إلى صـوت مميـز طـالما استمعـا إليـه من قبل.. انـه صـوت همام ضـابط استطـلاع الكتيبة قـادمـا مع بعض رجـاله من أعلى الجبل.. وابتـدرهما قـائلا بعـد أن التقيا ثـلاثتهم. رحمنى الله لـوجـودى فى أعلى جبل لبنى ارقب تحركـات العدو.. أحسست بما أنتم فيـه من خلال المحادثـات مع العقيـد عاطف والـرائد رمسيس بالـلاسلكى كانـا فى آخر محادثـة لهما متوتـرين مضطربين.. ثم انقطع بيننـا الاتصـال.. أدركنا مـاوقع للكتيبة ورجالها بعد أن شـاهدت ألسنة اللهب تتصاعد وأعمدة الـدخان الأسود تعلو.. وراحـوا يكملون جوانب الصـورة صـلاح يقص وشـوقى يتمم له ما خفى عليه وهمام يترجم المشاهد التى ميزها من أعلى الجبل ولم يكن بمقدوره أن يتفهم معناها.. وهم على حالهم هذا انضم إليهم الملازم أمير السبكى ضـابط السريـة المضـادة للدبابات ومعـه رستم أحمد حسن أحد قادة فصائل السرية الثالثـة ومعهما بعض الجنود ممن آنسوا للضابطين

وتـوخيا فيهما النجـاة.. كـان أقدمهم الـرقيب عبـدالخالق حكمدار احـد المدافع ومعه زميلـه وبعد أن استعرضت المجمـوعة قائمـة الشهداء التى ضمت كل رجـال الكتيبة بـاستثناء من جلسـوا يستعرضـونها استسلم بعضهم لحالـة الجزع التى سيطـرت عليـه من هـول ماشـاهـد وزرف البعض دمـوعـا غـزيـرة على زمـلائه الشهـداء.. وتـرك الجميع العنـان لخيالهم ليجتر ماكان ويتذكـر ماوقع.. وكان يجب على احدهم أن ينتشل الجميع من حـالـة الاسترخـاء الكئيب الذى سـادهم.. وجـاءهم صـوت النقيب صـلاح منقذا ومـوحيا لهم بـأن يكفوا عن الخيـالات وليواجهـوا ماهـو واقع.. فلنتوقف المشاهد والأحـداث ولنقم بتقدير موقفنـا وإعادة حسـاباتنـا لمواجهة مـانحن فيه.. وأردف صـلاح قائلا.. إن الأمـر جلل والخسائر فـادحة.. ولايمكن لنا مقاومـة مايعترينا من حزن أو مـواجهة مايعتصرنا من آلام.. لكن علينـا أن نتذرع بالصبر إذا كان لحيـاتنا قيمة غالية.. إذا كان لأهلنا حق علينـا.. إذا أردنا العيش.. فلابد من التماسك.. أما إذا فـررنا فلن يكون لنـا بقاء.. لم يضع صلاح وقتـا ولم يترك لأحد أن يفكـر فى الأمـر أو ينـاقش القـرار.. لابـد من المقـاومـة.. لابـد من الاستمـرار فـالحركـة كما يقـولـون بـركـة.. لكننـا يجب أن ننظمهـا.. وتخضعهـا إلى ضوابط ومعـايير .. بـداية يجب أن نكـون على قلب رجل واحـد وأن نعمل يـدا واحـدة ، إن أمـامنـا أهـوالا وأخطـارا لاقبل لنـا بمواجهتها ولايمكن أن تخطر لنـا على بال.. هكذا اتفقت قلوبهم وأعينهم قبل أن تنطق ألسنتهم.. وكـان على همام أن يعقـد البيعـة لصـلاح وأن يسلمـه قيادة المجمـوعة.. فهـو أقـدمهم وأكبرهم سنا وأكثـرهم خبرة.. وأقسمـوا صامتين يمين الـولاء والطـاعة.. وتـولى صـلاح عصا القيـادة وأنقـذ صوت المذيـاع ـ الـذى أمسكـه الرقيب عبـدالقادر وعبث بمـؤشر محطاته دون إرادة ـ صلاح من الحيرة التى انتـابته. جاء صوت المذياع مـؤكـدا استبسـال القوات المصريـة المرابطـة فى العـريش وقـدرتها على الصمـود أمـام العـدو وتمكنهـا ومحاصرتها لبعض وحـداتـه.. إذن هى

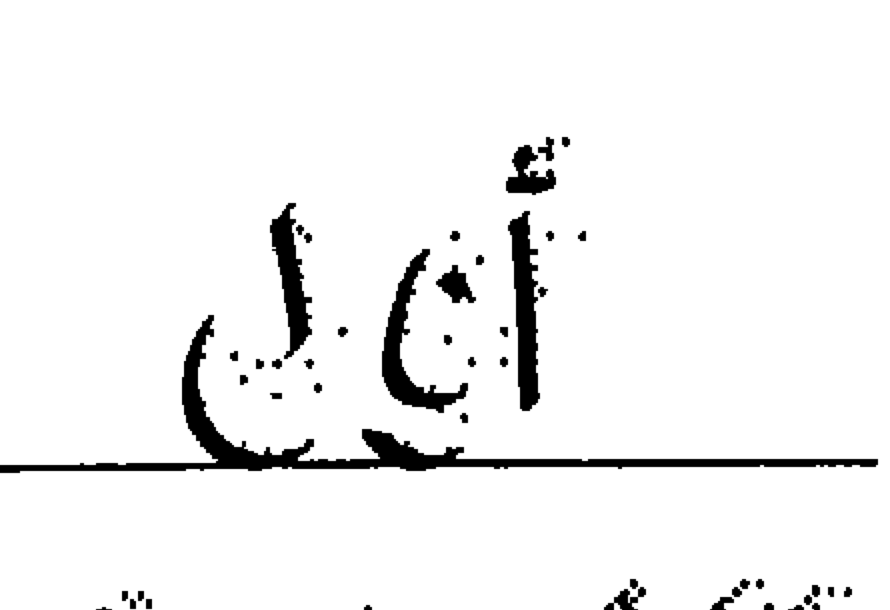
البـداية .. فلنـوجه أنفسنـا صـوب العريش وننضم إلى قـواتنا هنـاك.. سيسعدون بـاستقبالنا.. بالتأكيـد نحن اضافة لامكانـاتهم النيرانية لن نكلفهم شيئـا.. لن نـزيـد أعبـاءهم ونثقل كـاهلهم.. مطلـوب منهم فقط بعض الأسلحة والـذخائر وهى متـوافرة لديهم.. وكـان يجب على صلاح أن يخطـرهم بنوايـاه وأن يشركهم بـالـرأى وجاءت مـوافقتهم على أولى خطواتهم بالاجماع.. وردد الجميع على بركة الله لم يضع الرجال وقتا فى استعراض التفـاصيل فى محاولة لاستغلال اللحظات المتبقيـة على طلوع الفجـر لقطع بعض من المسافـة التى تفصلهم عن موقع العـريش وهى تبلغ حـوالى المائة كيلـومتر.. وحتـى يتفـادوا الحركـة فى قيظ الظهيرة المحـرق.. عليهم الاجتهاد فى السير .. شكلـوا مجموعـة مقاومـة صغيرة توفر لها بعض البنادق الآلية ورشاشا خفيفا بعد أن أصر على الانضمام لهم ممن كانوا يعملـون تحت قيادتهم وكتب الله لهم النجاة.. صحيح لم تكن لهذه النيران أى قيمة تذكر لـوقورنت بنيران اليهود لكنها على الأقل توفـر لهم الأمان عنـد مواجهـة الحيوانـات المفترسة المتـوقع لقـاؤها فى صحراء سينـاء.. وعلى بركـة الله نزلت المجمـوعة من قمـة جبل لبنى فى اتجاه العـريش.. لم تسلك الدروب الممهـدة ولاالطـرق المرصوفـة وإنما سارت على الجبال وعبرت التباب والوهاد تفاديا لمواجهة مدرعات اليهود التى التزمت بالسير على الطرق والمدقات فقط خـوفا من التيه الذى جاء فى كتابهم.. لم تكـد المجموعة تقطع عدة أمتـار فى طريقها نحـو العريش حتى شعـر شوقى بـآلام حـادة فى ركبته.. تصـادق مع هذه الآلام منـذ انضمامه إلى الكتيبـة لكنه وهو يكافح للحـاق بالرفاق وهم ينـزلون من قمة الجبل شعر انها فوق طاقـة احتماله وانها لايمكن مصادقتها وعليه مواجهة أمرين لاثالث لهما.. إما مشاركـة الرفاق مشوارهم الطويل نحو العريش مهما كابد من آلام وتحمل مـن أوجاع.. وإما التقاعس عن السير والتخلف عن الـركب لمواجهـة مصيره المجهـول.. لم يكن الموت يشكل أسـوأ الفـروض المحتملـة.. إنما شبـح الاصـابـة والأسر ظل يخيم على

مخيلته ويسيطر على أفكاره تجرع آلامه فى صمت وقــرر فرض حالة من الكتمان على مايواجهــه من أوجاع.. لكن العرج الذى سيطــر على خطواته فضـحه أمــام رفاقــه وكشفه أمام زمــلائه.. كان أول قــرار اتخذه القائد الجديد للمجمـوعة النقيب صلاح هــو تكليف رستم بمعاونــة شوقى على السير لكن أمير السبكى أبى إلا أن يكون المساعــد الثانى لأزمة شوقى.. واجتـهدوا جميعــا فى السير.. حاول شوقى اقنــاع مساعــديه أمير ورستم بالتخلى عنه دون أن يشعر أحد من الـرفاق.. فليس أمامه سوى التخلف عن المجموعة بعــد أن تضاعفت أوجاع ساقــه.. أنه لن يستطيع التكملة.. وعليه أن يفضل مصلحــة المجموعــة على مصلحته الشخصيــة.. «أشكر لكم أيها الأعـزاء روحكما المتعــاونة واخــلاصكما.. أنــا شــديد الامتنــان لكمــا.. لكن الأمر لن يستمر على هذا النحو خاصة اننى أشعر أن المشوار ربما جاء طويلا على الأصحــاء منكم.. فما بالكم وساقى اليسرى لم تعد صالحة تمامــا للسير.. إننى لايمكن أن أكون عالة عليكما طــوال الوقت.. مــواجهــة الأسر والشهــادة أفضــل كثيرا على نفسى من ارهــاقكما بهذه الصــــورة».. وجــاء رد أمير السبكى حــازما «فلتصمت يــاشــوقى.. إمــا النجاة لنا جميعا وإمــا الشهادة.. لم أنس لك أفضالك فى مواقف كثيرة.. يوم أخــذت بيدى وأنا ضــابط جديد عليكم بــاليمن.. كان من الممكن أن أتعــرض لمحاكمــة عسكــرية تقضــى على مستقبلى ووجدت منك الأخــوة الصـــادقــة التى انقــذتنى والمشــورة المخلصــة التى وجهتنى.. وإذا كنــا بصـدد تعديد أعمالك وتقييم مآثـرك وأفضالك علينا.. فهى لاتحصى فقد كان آخـرها قبل أن تــدخل المستشفى بساعــات معدودة عنــدما تحملت المسئولية عنى أمام العقيد عاطف وكان يــومها يود توقيع عقوبة شديدة علىّ بسبب عــدم الابلاغ عن عطل شــديد بأحــد المدافع يحتاج لاصــلاح رئيســى وقلت أنت يومهــا انك كنت تحاول اصلاحه بمعــرفتك عن طريق احــد الضبــاط مــن دفعتك ولــولاك لما اقتنع العقيــد عــاطــف بســلامــة مــوقفى».. وأكمل رستم قائلا..إذا كــان لابد لك مســاعدتنــا فلنقترح على

النقيب صلاح تبديل مهمة مساعدتك على السير مع بقية رجال المجموعة كل ٢٠ كم لكـن أن نتركك تـواجـه مصيرك فهــذا مستحيل.. وأمـــام اصرارهما لم يجد شـــوقى بـدا مـن السعى معهما والتخفيف عنهما مع مواجهة الآلام الحادة.. ومضــى ركب الرفاق ومازالت أذهــانهم مشغولة بالأحـداث الجسام التى مـرت عليهم ولم تخطر لهم على بـال.. ارتسمت بخواطـرهم صورة رسمتها بعنايـة ريشة فنان مكتئب متعطش للـدماء التى تناثـرت فى كل الأرجاء.. دمـاء ودخان واشـــلاء ووميض انفجارات وضحايـا وشهداء.. ترى هل تتكـرر المأساة فى العـريش أم يجدون فيها معطيـات أفضـل يستطيعـون بها رد الاعتبار والانتقام؟.. لابد من الثأر هناك.

حب .. وحرب ٦

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧



الشتاء

أول الشهداء

حملق شوقى فى السرادق وهو قابع فى مكانه بالردهة المظلمة.. ارهف سمعه فتناهى إليه صوت القارىء وهو يردد الأيات القرآنية البليغة.. «وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير» تحسس ساقيه والجراح التى امتلأت بها.. ومرت يده على ركبته المعتلة الذى لم يتصور أحد من رفاقه أنه سيكمل بها المشوار الذى قطعته والذى زاد عن مئات الكيلومترات.. ونظر إلى أثماله غير المهندمة التى تعوقه عن تبديل موقعه مع شقيقه الذى خارت قدماه فلم تقو على حمله فأجلسوه عنوة وأجبروه على تلقى العزاء وهو على مقعده حتى يده اليمنى مدها دون إرادة فى ضعف واضح لم يتمكن خلاله من مصافحة جموع المعزين فتركها دون مشاركة فعالة فى المصافحة.. لوأنه تمكن من تعديل هيئته ولولا أثار الجروح وآلام الاعاقة بركبته لكان بمقدوره أن يتناوب مع شقيقه واجب العزاء.. أو على الأقل منحه قسطا من الراحة يسترد فيه أنفاسه ويجدد نشاطه ويستعيد بعضا من قدراته.

عاد شوقى أدراجه إلى اجترار ذكرياته المؤلمة بعد النهار الأسود الذى مر عليه كأطول نهار فى التاريخ.. نهار يوم السادس من يونيو الكئيب.. ولم يدر لماذا صعد إلى مخيلته مشهد الرقيب فاروق أول شهداء الكتيبة

وهو مدرج بدمائه بجوار مدفعه.. عيناه شاخصتان جاحظتان.. وملامح وجهه جامـدة لاتعبر عن معاناته من آلامـه الفظيعة.. لم ينطق فاروق إلا بكلمات قليلة أوصى فيها شوقى بأولاده خيرا.. إنهم أمانة فى عنقك ترى أكان فاروق يعلم بشفافية الشهـداء إن شوقى سيكتب الله له النجاة من هذه المذبحة.. من مستنقع الدماء.. من أخطار الاصابة وأهوال الأسر.

أعـدك يافـاروق بأننى سأذهب إليهم وأشملهم بـرعـايتى واحيطهم بعنـايتى كما أبلغتك وأنت تلفظ أنفـاسك الأخيرة.. أعـدك يافـاروق والله على وعدى هذا شهيـد أننى بمجرد أن أسترد صحتى وأحصل على بعض الراحـة وأطمئن والدتى وأرد لها مـافقدتـه من استقرار ومـاأصابها من تـوتـر وقلق سأســارع فورا إليهـم وأذهب لمسانـدتهم والـوقـوف إلى جوارهم.

عـاد بذهنـه لتذكـر الرحلـة من جبل لبنى إلى العريش.. استمعـوا فى البداية إلى تعليمات صلاح.. لاندرى متى سنصل إلى العريش لننضم إلى قواتنا هناك؟

ومـاذا سنجابـه فى رحلتنـا من أخطار وأهـوال.. لـذلك علينا تـوخى الحرص الكامل فى التحـرك واتباع الحذر الشـديد فى اقترابنـا من الطريق المرصوف.. وحتى تحركنـا وسط التباب والوهاد لابـد أن تكتنفه الحيطة حتى لانقع فى الأسر أو نتعرض للاصابة أو نفقد أحد عناصرنا.

كما يجب علينـا أن نقتصد فى مـواردنـا المائيـة والغذائيـة على قـدر المستطـاع. أنا أعلم أنها محدودة للغـاية ولاتكفى لاستخـدام فرد واحـد لهذه الرحلة الشاقة. لكننـا بشىء من التدبر والتعقل نستطيع أن نجعلها تكفينا مدة رحلتنـا هذه على الأقل.. وعلى الرقيب عبدالقـادر أن يضاعف من كمية الميـاه التى معنا من خـلال مبردات العربـات المعطلة التى على سفح الجبل.. قد يكـون عالقا بها بعض الصدأ.. لكن ميـاه بصدأ أفضل كثيرا من مـواجهة الموت عطشـا.. ومنذ تلك اللحظـة تناول الميـاه يكون بغطاء الـزمزميـة.. وليتولى شوقى عمليـة التوزيع فى الـوقفات.. كما أن التـدخين غير مسمـوح بـه إلا بأسلـوب جماعـى.. نحن جميعـا نـدخن

ولايوجـد هنا إلا بقـايا سجـائرنا فيما لـوتجمع لما زاد عن علبتين فقط.. وحتى لانضعف أمام حاجتنا للدخان علينا أن نشترك جميعا فى سيجارة واحدة.. ولنتناولها فيما بيننا.

فرغ صلاح من القـاء تعليمات التحرك للانضمام للمقاومـة الناجحة فى مواجهـة اليهود بالعريـش وكان على المجموعة أن تبـدأ فورا فى السير صوب ميناءنـا الساحلى.. إن بيننا وبينه نحو مـائة كيلو متر.. وإذا كان الفـرد العادى يستطيـع قطع خمسة كيلـو مترات فى السـاعـة فاننـا فى مقدورنا قطع هذه المسافـة فى عشرين ساعة على الأقل.. علينا أن نجد فى السير خلال السـويعات الباقية من الليل لأن الجسم لايتعـرض فيها إلى استنزاف كميات كبيرة مـن العرق وبالتالى لايحتـاج فيها إلى استعواض بعض من المياه التى نزفها.

تقدم صلاح المجموعـة حاملا القيادة الرمزيـة لها بصفته أقدم وأكبر الضباط سنـا وبجواره الملازم أول همام وخلفهما بقليل شـوقى وحـوله أمير السبكى ورستم أحمد حسن.. اتخذوا من الطـريق العـرضى الـذى يربط العـريش بالنقطة مـائة وواحد وستين على الطـريق الأوسط منارا يهديهم فى سيرهم.. لكنهم بمجـرد هبـوطهـم من قمـة الجبل وبـدأوا فى السير بمحـاذاة الطـريق وعلى مقـربـة منـه داخل الصحـراء وصل إلى اسماعهم أصـوات محركـات العـربـات والدبـابـات القـادمـة من اتجاه العـريش ووجهتها صـوب الاسماعيليـة.. لم يكن من الصعب عليهم أن يتبينـوا انها عربـات ودبابـات يهودية تمثل الانسـاق التاليـة للوحـدات الغازيـة لسيناء لكن كيف يتسنى للقـوات المصرية بـالعريش أن تحتفظ بقدرتها مع هذه الجحافل القادمة منها؟

كيف لها أن تبقى صـامـدة مع هـذه الأعـداد الهائلـة من العـربـات المجنزرة والـدبابـات والمدافع ذاتيـة الحركة العـابرة لحدودهـا المخترقة لنطـاقها الـدفـاعى.. ربما اتبع اليهـود نفس الأسلوب الـذى اتبعـوه مع كتيبتنا عنـدما اكتفوا بحصارهـا وقطع خطوط الامداد عنهـا ثم اختراقها فى الـوقت المناسب.. يجب ألا نفكـر من الآن فيما عليـه موقف العـريش

حتى لايخور تصميمنـا على الوصـول إليهـا والانضمام لقـواتنا هنـاك. يكفينـا التأكيدات التى نسمعهـا من المذياع بأن صمـود العريش فـرض على اليهـود كثيرا من التنـازلات.. وأن البطـولات التى يقدمهـا الـرجـال انتزعت اعجـابهم واحترامهم.. هل من الممكن أن يكذب اعـلامنا؟ هل من الجائز أن نقلب الأوضـاع ونبدل المعطيـات الحقة.. وحتى لـو كان هـذا جـائزا يجب ألا نفقـد اصرارنا.. لسبـب بسيط أنه ليـس أمامنـا سـوى التقدم صـوب العريش بعد أن واصلت قـوات اليهود تقدمهـا وسيطرتها على مسرح عمليات سينـاء بالكـامل وفرضت سيـادتها على كل شبر فيه حتى وصلت مع نهايـة يـوم الخامس من يـونيـو إلى مشـارف القنـاة.. قطعت المجمـوعة نحو أربعين كيلـو مترا ولم يلبث أن طلع النهـار عليها وجاء صوت صلاح معبرا عن ذلك بالتوغل داخل الصحراء لمسافة أطول حتى لاتقع أعين اليهود علينا فيطاردوننا بعـرباتهم ودباباتهم خاصة ان الأرض منبسطة والتربة متماسكـة مما يساعد الحمـلات الميكانيكية على التوغل.. لكن عـربات العدو ودبابـاته تتحرك على الطريق بـاعداد غفيرة قـادمـة من العـريش متوجهـة نحـو الاسماعيليـة.. كيف إذن للعـريش صمودهـا؟.. من نصـدق.. كلام المذياع الـذى لم يفتأ رجـاله أن يعبروا بافتخـار شديد عن قـدرة وقوة رجالنا الصنـاديد بالعـريش.. أم أعيننا التى ترى جحافل مصفحات وآليات اليهود القادمة من هناك.. ولِمَ لا إن التوازن بين هذا وذاك جائز.

ولِمَ لا وقـد يكون اليهـود قد كـرروا فعلتهم مع كتيبتنا بحصـارهم للعـريش أنهم تقليـديـون لايغيرون تكتيكهم ولايغـامـرون بثـروتهم البشرية.. ولذلك فلربما لحقنا بقواتنا هناك لتدعيم امكاناتهم قبل أن يتم اختراقها.. وإذا كانـت الشهادة قدر محتوم ومكتوب علينـا.. فلتلتحق بنا فى العريش.

واصلت المجموعة سيرها صوب العريـش واستغرقت الرحلة ساعات النهار الطوال دون تـوقف.. من السادسة صباحـا وحتى قرب العشاء.. ورغم عنـاء السير فى قيظ الظهيرة لم يشأ صـلاح أن يـوقفهم لنلحق

بمقـاومتنـا هناك.. لننضم إليهـم قبل أن يفقدوا قـدرتهم على الصمـود وتخفت مقدرتهم على الاستمـرار.. كان كل فرد فى المجموعـة يمنى نفسه بلحظة رد الاعتبار أو على الأقل الانتقـام وليس الثأر.. الثأر لن يكون إلا بالنيل منهم كما نالـوا من شهدائنا بإيقاع الخسائر بينهم كما أحـدثوها فى كتيبتنا وقواتنا.. ولن تمكننا نيراننا من الثأر للعدد الكبير من الشهداء واحـداث الخسـائر بالصـورة التى أوقعهـا اليهـود فى صفوفنـا.. كـان يقطعون الـرو ابى الصغيرة وهم يمنون أنفسهم بقرب لحظة الـوصول مع انتهاء كل تبـه لكن التباب تتوالد وتسلم كل منهـا للتبة التى خلفها.. الصحراء كالبحر تماما.. والتباب فيها كالأمواج فى المحيطات لا نهاية لها ومع كل تبة تنتهى المجموعة من قطعها تنتظر الفرج خلفها لكن المشوار طويل والمسافة بعيدة أنها مجرد مـائة كيلو.. وقد يأتى الخلاص هناك.. ربما استطعنـا أن نستعيـد تماسكنـا ونعيـد تنظيم صفـوفنـا وايجاد التوازن المفقود بيننا منذ أن فقدنـا قدرتنا على المقاومة فى نهار السادس من يونيو الكئيب.

ومع الغروب.. وقبل أن تخفت أشعـة الشمس وهى تميل فى الشفق.. ومع احمرار ضـوئها الـذى ينعكس على الأشيـاء فتتوهج وتتـلألأ كأنها كـواكب درية لاحت العـريش للـرفاق.. لاحت بمآذنها ومبـانيها.. بـدت بأقبيتهـا ونواديها ظهرت بطـرقاتها ونـواصيها.. إنها العـريش كما هى وكما زارهـا البعض فى الأيـام الثـلاثـــة الأولى من يـونيـو لشراء بعض مستلزمـات الكانتين من أطعمـة ومشروبات.. لم يلمح الـرفاق تغييرا أو تعديـلا فيها.. لم يستبينوا أى مقاومـة تذكر.. أرهفـوا السمع وأنصتوا.. ربما جـاء صـوت الطلقات مـن هنا.. وربما جـاء من هنـاك.. لكن عبثـا لم يتبينوا مـايدل على وجـود مقاومة.. لقـد خدعتنـا الكلمات الحماسية التى ترامـت على عواهنها من المذيـاع.. نفس ماحـدث واكتشفوه عنـدما كذب اعـلامنا فى تحديـد عدد الطـائرات التى اصبناهـا والدبـابات التى دمـرناهـا والقوات التى اهلكنـاها لليهـود.. لكن هذه المرة انعكس كـذب اعلامنـا علينا وعلى تـوجيهاتنـا.. العريش ليـس فيها صمـود.. ولا فيها

مقـاومة.. اليهـود مسيطـرون تماما على مقـدراتها ويحتلـون مرافقهـا ويتخذون من امكـاناتها قـاعدة إداريـة لامداد جحافلهم التـى توغلت فى سيناء واستقرت على مشارف القناة فى مـواجهة المدن الساحلية الثلاث.. بورسعيد والاسماعيلية والسويس.

لم يكن من الصعب على الـرفـاق تكـذيـب كل مـاتتـناثـر من أقـوال وشـائعـات.. اللواء الشـاذلى بقـوات اللـواء الأول المشاة يحاصر فـرقـة يهوديـة ويستسلـم فى نفس الـوقت لحصـــار فيلق يهودى من الخارج ولايستطيع أحد أن يمسه بسوء خوفا على أرواح من يحاصرهم..

العميد فـلان تقدم ببعض مـاتبقى من قواتـه وحاصر فـرقة مـدرعة يهودية ويسـاومهم على سـلامتها شريطة تـركه يعبر القنـاة لينضم إلى المقـاومة المصريـة غربها.. انها مجرد شـائعـات أمل.. بالـونات اختبـار يطلقها البعض ليضـاعفوا من غريـزة حب البقاء وليـزيدوا من اصرارهم على الاستمرار.. إن الجنود المرافقين للمجمـوعة يرددون هذه الشـائعات ترديدا أجوف دون تفكير أو تعقل فيه مبالغة وتزيد إنها طبيعتهم والتى تتسم بالضحالة الفكرية والسطحيـة نظرا لقلة ثقافتهم وندرة تعليمهم.. لم يكن بين كل من رافق المجموعة من جنود من يحمل مـؤهلا عاليا.. أو حتى لـديه قـدر ضـــئيل من الثقافـة ولذلـك فقد كـان صلاح حـاسما لنتـوقف عن ترديـد مثل هـذه الشائعـات.. وتنـاقل مثل هذه الخيـالات والتخيلات.

ولنكن صرحاء مع أنفسنا.. واقعيين فى حســاباتنا حتى لانستغرق فى التفاؤل ونمعن فى الأحلام فنصطـدم بالواقع الذى قد يكـون فيه نهايتنا المؤلمة.

ماخطوتنا التالية؟ وماوجهتنا؟ وماذا نحن فاعلون؟

كانت هـذه الأسئلة تمثل اختبارا جديـا شـاقا لقدراتهم الفكـرية التى خارت هى الأخرى بعد أن خارت قواهم البدنية.. الذهن المكدود فى البدن المهدود والاجابـة عليها تحتاج إلى مزيـد من اجالة الفكر وامعـان الذهن واجترار الخبرات والمعلومات.

لنجلس قليـلا نسـترد أنفـاسنا ونفكـر فيما نحن ومـاذا عسانـا أن نفعل؟

قالها صلاح وترك جسده يسقط على الـرمال بعد أن نال منه الاعياء وأضناه الارهاق.. واستسلم بقيـة الرجال إلى حالـة من الثبات للحصول على قسط قليل من الـراحة.. لم يكن أمـامهم سـوى أمرين لاثـالث لهما كلاهما له مرارة الحنضل.

إما قطـع المسافة التـى بين العريش والقنطـرة غرب وهى تـزيد على مـائتى كيلـو متر سيرا على الأقـدام مستخـدمين الليل ستـارا والتبـاب والوهاد دروعا من هـجمات مصفحات اليهود.

وإمـا التسليم والـوقوع فى الأسر ومـواجهـة ماسمعـوه من فظـائع اليهـود مع أسراهم.. توجهـت الأفراد إلى الله أن يمنحهم الهدايـة ويهبهم العـون ليتخذوا القـرار المنـاسب.. فقـد أظلمت الدنيـا وبـات عليهم أن يواجهـوا حلقات مغلقـة ليس فيها بـريق أمل أو بصيص نجـاة.. لو أن اعلامنا تحرى الصدق واعتمـد على الحقائق.. بدلا من التزويق والتنميق والتهـويل والتهليل.. اقتصر كـلام مـذيـاعنـا عن عـدد الطـائرات التى اسقطت.. والـدبـابـات التى أحـرقت.. والأرواح التـى أزهقت.. وكل الاحصاءات والبيـانات جـاءت من بنات أفكار الـرجال الـذين لم يكلفوا خـاطرهم متـابعـة وكالات الأنبـاء العـالمية وهى تكشف زيف أقـوالهم وتفضح وتعرى كـذب افتراءاتهم.. واجهت مصر تجمعا أوربيا أمـريكيا.. تحالفت معظم الدول بـاستثناء الاتحاد السوفيتى ضدهـا.. وأوقعوها فى فخاخهم ونصبوا لها المصيدة اليهودية.

حب .. وحرب ٧

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧



القبور الجماعية

لم تمض دقائق معدودات إلا وكان معظم الرفاق فى سبات عميق.. وتعالت أصوات «شخيرهم» تعلن عن الاعياء والارهاق الذى أصابهم بعد المشوار الطويل الذى قطعوه والذى يفصل موقع كتيبتهم ـ بعد أن تحول إلى ساحة فسيحة من الاشلاء والدماء ـ وبين ماكانوا يتوقعونه على مشارف العريش .. تلك المدينة التى طالما سمعوا عن بطولتها وتمنوا أن يتحصنوا بمواقعها ويقاتلوا مع صناديدها.. لكن هيهات لهم ماتمنوه .. لم يأت سباتهم نتيجة المشقة التى عانوها من السير لأكثر من مائة كيلومتر فحسب .. وإنما سيطرت عليهم حالة من الإحباط الشديد أثرت على أعضائهم بعد أن تمكنت من نفسياتهم ودمرت معنوياتهم.. والعضلات خائرة .. والعظام واهنة .. والنفس مقطوع .. لاشىء يشجع على المضى .. وكل المؤشرات والدلائل تقود إلى النهاية المحتومة السريعة .. وان لم تكن بايدى اليهود الذين جاسوا بدباباتهم وسحقوا بدروعهم الاجساد الطاهرة والأنفس النقية .. فستكون بفعل الجوع والعطش اللذين ليس لهما من علاج.

لم يستسلم شوقى للنوم برغم انه لم يكن فى حالة أفضل من التى كان عليها رفاقه .. بل على العكس كان يعانى زيادة على معاناتهم من آلام ساقه المعتلة والتى تصاعدت لدرجة لم تعد محتملة ولعل تلك الآلام

هى التى افقدته القدرة على النوم .. وظل راقدا لايهنأ براحة ولاينعم بمنام .. ترى ماذا يخبىء لهم القدر وأين ستكون النهاية وعلى أية صورة ؟ أيكتب لهم الفناء بعد كل هذه المقاومة وهذا الكفاح.. أم يشملهم الله برعايته ويكلأهم بعنايته ويحقق لهم المعجزة التى تقودهم إلى بر الأمان .. لكن أين الأمان الذى ينشده .. ويحلم بلقائه.. لاأمان مع هؤلاء القتلة السفاحين .. حتى ولو استسلموا لشبح الأسر.. لن يسلموا من نيران اليهود .. ستحصدهم قبل أن يدرجوا فى قوائم الأسرى كما حصدت زملاءه فى صحن كتيبتهم عندما فقدوا كل قدراتهم على المقاومة ومواصلة القتال .. ستكون نهايتهم أبشع من هؤلاء الرفاق بعد مواجهتهم لآلام التعذيب والترويع فى معسكرات الأسر البغيضة التى طالما سمعوا عن أهوالها واستعرضوا مع من سبقوهم ويلاتها.

وهو على تأمله هذا سمع شوقى أنينا خافتاً أشبه بالفحيح .. ارهف السمع ليتبين مصدره .. ويستوضح موقعه .. ونهض يستحث الخطى للبحث عن صاحبه .. ولم يطل بحثه فقد رأى على بعد خطوات منه بقعة حمراء قانية تنزف دما من فتحات كثيرة فى الجسد الممدد بلا حراك.. أنه أحد المقاتلين وقد اخترق رداءه العديد من الطلقات وفى مواضع كثيرة بالصدر والأذرع والقدمين .. لم يدر شوقى ماذا يفعل ولاكيف يساعده.. حاول خلع سترته وتمزيقها لربط مواضع النزف فى محاولة ساذجة لايقافه .. وضمه إلى صدره ليستنهضه ليعاونه على التنفس.. وأشار له المقاتل بأن هدىء من روعك فالحالة متأخرة ولا أمل فى البقاء.. خيم الموت على كل أوصالى وانتشر فى معظم اعضائى .. لكنها أنفاس تطلع وتدخل إلى أن يقضى الله أمراً كان محتوماً .. وارتسمت على محيا شوقى تساؤلات عديدة وهمّ أن يطلق استفسارات كثيرة لكن الاعياء والتداعى الذى بدا عليه الزميل أمات الكلمات على لسانه .. وخرج صوت صاحبنا وكأنه حشرجة الموت .. قال أنا جندى فى وحدة المياه المتمركزة فى بئر الحمة على أطراف الطريق الواصل بين الحسنة والعريش .. لم يكن لنا قبل بمقاتلة جحافل اليهود الهادرة... ولذلك

عندما علمنا بسقوط العريش وطالعتنا بوادر دباباتهم قادمة فى اتجاهنا.. بادرنا برفع الاعلام البيضاء فوق عربات القنطاس دليلاً على استسلامنا وإذعانا لفارق الامكانات الهائل بين وحدة إدارية متمركزة خلف خطوط المواجهة لامداد القوات بالمياه وبين جيش جرار بعدته وعتاده .. وتصورنا الاعلام البيضاء ستحمينا من نيرانهم.. وتوقعنا ان يكتفوا بأسرنا والزج بنا فى معسكراتهم الشاسعة.. وصمت الرجل برهة وكأنه يناشد أنفاسه أن تسعفه ليحكى لزميله قصته وينقل تجربته مع هؤلاء القتلة والسفاحين وأكمل بصوت أبطأ ترددا وأخفض ايقاعاً وأوهن نبرة.. لقد تصورنا أن استسلامنا سيهب لنا الحياة .. ولم يكن من اليهود إلا أن تركوا أمام وحدتنا دبابتين عليهما مدفعان رشاشان وأمرونا من خلال مذياع صغير بالاصطفاف على شكل قطارين بين كل منا وجاره طول ذراع واحد .. ثم فتحوا علينا نيرانهم فسقطت كالحمم المتأججة أرواحنا .. وتريق دماءنا وتزهق حياتنا .. نعم وحدتنا التى زاد عددها عن المائة فرد لم يبق منها سوى اشلاء وجثث ودماء تسيل هنا وهناك.. كان نصيبى أن يسقط أحد زملائى على جسدى فما وقعت رصاصتهم فى مقتل .. وإنما أصابت مواضع أخرى .. ورحت فى غيبوبة لحظية لم أفق معها إلا وقد انتهى المشهد المأسوى الحزين.. زملائى القادة والجنود نالوا جميعاً الشهادة .. ومازالت أنفاسى تتصاعد وحاولت قدر طاقتى بما تبقى لى من حركة أن أزحف لألتمس النجدة وابتعد قليلاً عن الدماء الذكية التى غطت مساحة كبيرة من ساحة سريتى .. وكنت أغيب عن الوعى لسويعات .. وافيق للحظات حتى أدركتنى أنت وأنا على هذه الحالة المتهالكة.

وناشده شوقى أن يتماسك وليشير عليه كيف يساعده .. ويوجهه فى محاولة أخيرة لانقاذه .. لكن مقاتلنا قد أصبح على مشارف المحطة الأخيرة.. زاغت عيناه .. وسكنت خلاياه .. وانخفض نبضه .. وسارت فى جسده زرقة داكنة .. وفى جسمه برودة خامدة .. وقال لشوقى كلماته الأخيرة قبل أن يلفظ انفاسه اللاهثة أوصيك أن تخبر أمى بنبأ

استشهادى حتى لاتنتظرنى طويلاً مع أطفالى وزوجتى .. فأنا من قرية عين غصين بالاسماعيلية واسمى محمد النحال كما أناشدك أن توارينى التراب حتى لايكون جسدى نهباً للسباع والضباع والجوارح.. أنا أعلم انك متهالك من فرط التعب .. لكننى لى عليك بعض الحق .. فربما عاونك الله فى محنتك القادمة .. وأنجاك من المهالك التالية التى لابد لك من عناية ربانية على مواجهتها .. وان تمنحك السماء التوفيق لتساعدك على اجتيازها .. وماهى إلا لحيظات قليلة استغلها شوقى فى أن استلهمه نطق الشهادتين فنطقهما الشهيد بصعوبة بالغة وفاضت روحه الطاهرة لتصعد إلى بارئها فى هدوء وتنهى بذلك قصة بطولة لرجل شارك بقدر فى معركة بلاده ولم يكتب له البقاء حتى بعد أن آثر هو ورفاقه السلامة على الاستمرار فى المقاومة .. رحمك الله يا نحال وألهم ذويك وأهلك الصبر على فراقك.

تحجرت الدموع فى مقلتى شوقى .. لم يكن محمد النحال هو أول الشهداء الذين سقطوا خلال الأيام القليلة التى مضت منذ بداية المعركة فى التاسعة من صباح الخامس من يونيو .. وبالتأكيد أنه لن يكون آخرهم .. فربما سقط زملاء غيره خلال الساعات القادمة .. ان اليهود بين ظهرانينا ونحن وسطهم وبينهم وأمامهم .. أصبحوا خلفنا.. جاسوا خلال الطرق وعاثوا من خلال المدقات الممهدة ليقطعوا شبه جزيرة سيناء طولا وعرضا .. أصبح جيش مصر بقايا جيش.. بل هو اطلال جيش ، رفات مقاومات قليلة وصغيرة ليس لها أى قبل أو مقدرة على المقاومة واليهود يعلمون أن الانسان المصرى لاييأس ولاتخور قواه .. وإنما هى محطات يحاول فيها التقاط أنفاسه ليعيد تجميع قواه وتنظيم قدرته ويبدأ من جديد .. ولذلك فهم لن يفرطوا فى تدمير مقاومته الداخلية وبعثرة قدراته الذاتية .. ولن يتركوه إلا جثثا متهالكة لاتستطيع البداية من جديد.

لم يضع شوقى وقتا وتخلص من السحابة الفكرية الداكنة التى أظلت سماءه لفترة قصيرة وبدأ فى تنفيذ الشق التالى من وصية

صـاحبـه.. من يدرى أيستطيع تنفيـذ شقهـا الأول أم يبحث عن ثـالث لتنفيذ الوصيتين؟ .. أخذ شـوقى من خلال بعض العبرات الساخنة التى طفرت من مقلتيه فى جمع بعض الأحجـار وحفر بعض سنتيمترات بطول الشهيد النحـال ثم حمله بين ذراعيه وأنـزله فى مثواه الأخير بعـد أن قرأ عليه بعض الآيات وغطى جسده الطاهر بالأحجار والرمال.

ترى أيقص على زمـلائه النائمين قصة الشهيـد النحال ويخبرهم بما سمع وشاهـد.. أم يصمت حتى لاتسرى فى نفوس زمـلائه روح التسليم والاستسـلام؟.. ان هـذه الـروح الانهزاميـة لم تصبهم للحظـة منـذ أن تجمعوا على الميول الأمامية لجبل لبنى عقب انتهاء معركتهم السريعة مع اليهـود.. لكن مع استمـرارهم فى مواجهـة تلك الأهـوال ربما تسربت الى نفـوسهم واجتاحت عـزائمهم.. حمد شوقى الله على أن أحـدا من رفاقـه لم يستيقظ ويتابع هذا المشهد المأساوى وعاد ادراجه اليهم وتمم عليهم جميعا، يغطون فى نـوم عميق.. إنهم جميعا يستسلمون لمنـامات وأحلام يتخيلـون فيهـا ان الله منجيهم من هـــذا المأزق وبـاسط عليهم رحمتـه وعنـايته لاجتيـاز تلك المهالك.. وفى هـدوء أسند شـوقى ظهره على أحـد الأحجـار واستسلم لحالـة من الكمـــون وأطلق لخيـالـه العنـان ليجتر ماشـاهده فى الـدقائق القليلـة الماضية.. ولم يستطع ان يحبس زفـراته ولا أناته وراح يـذرف دموعا غزيـرة ساخنة متأثرا بفقـد أسرع صديق صادفه فى حيـاته لم تدم صداقتهما سوى دقائق معـدودة.. ورغم حالة الحزن والقتامة التى شملته فى تلك اللحظات فقد قرر الايخبر رفاقه بأى شـىء.. وكفاه هو ما ناله مـن دمار معنوى وتوتر نفسى.. وليترك الأمور على الله يصرفها كيف يشاء.

حب .. وحرب

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧



الأفعى

استيقظ الرفاق فزعين من سباتهم الذى طال لعدة ساعات بعد أن هدهم الارهاق ونال منهم التعب على صوت فحيح عال لأحد الأفاعى الشرسة وهى فى وضع ماقبل الهجوم على فريستها وبسرعة عاجلها أمير السبكى بضربة قوية من دبشك أحد البنادق فأفقدها توازنها وظلت تتلوى تحته .. كان أمير مستعداً للتعامل مع هذه الضوارى من خلال خدمته لبعض الوقت بوحدات الصاعقة بانشاص قبل انضمامه لصفوف الكتيبة .. وبمهارة فصل سنكى البندقية وقطع رأس الأفعى وكأنه يذبحها كما يذبح الطاهى الدجاجات .. ثم غرز فى جسدها البدين (الحربى) وهو عبارة عن سيخ طويل بطول ماسورة البندقية يستخدم فى تنظيفها من الغبار العالق بها بعد اجراء الرماية سواء فى التدريب أو القتال .. هبوا أيها الرجال لقد رزقنا الله بوجبة دسمة تسد رمقنا وتعوضنا مافقدنا .. والتفت المجموعة حول أمير وهو يقوم بشى الأفعى على النيران وتلذذوا بسماع صوت حبات الدهن وهى تسقط من الأفعى على النيران فتحدث نغماً طرياً على آذانهم يمنيهم بقرب تناولهم لجانب من الطعام الآدمى الذى حرموا منه لعدة أيام منذ ليلة الخامس من يونيو وحتى فجر السابع من هذا الشهر.. قسموا الأفعى بعد شيها على أنفسهم وحمدوا الله..

اعتدل صــلاح فى جلسته فى مــواجهة الـرفاق .. وبعـد أن هنأهم على طعامهم الذى لم يجدوا له بعض قطـرات المياه ليرووا ظمأهم بها .. قال لابد من استشارتكم قبل اتخاذ القرار الصعب الذى نحن بصدده .. ماذا تظنـون أن نفعل بأنفسنـا ؟ وأردف قـائلا وكـان سـؤالـه الـذى ألقـاه لم يـهدف منه سـوى جذب انتبـاههم فقط .. لم يبق أمامنـا مناص غير قطع سيناء بـالطول فى اتجاه القناة إذا أردنا الحيـاة والاستمرار .. وهو مشوار طـويل وشاق وإذا علمناأننا سنقطعـه سيرا فى الفيافى وليس على الطرق المهـدة .. كما اننا سنسير حفـاة بعد أن نتخلص من الحذاء ذى الرقبة الطويلة «الفيلد بـوت» الذى يميز بين هيئة الضباط والجنود لكى لانعرض أنفسنـا للأسر .. وجـاء صمتهم ايماء على موافقتهم لمقترحـاته إذن فليكمل تعليماته : إن علينا أن نسير بمحـاذاة الطريق الشمالى الذى يربط بين مدينتى العريش والقنطـرة ومسافته تقترب من مائتى كيلومتر ستـزيد هـذه المسافـة طبعـاً إذا كان تحركنـا داخل الصحراء وتسلمنـا التباب إلى بعضـها فتضـاعف ماتقطعه من أمتار .. لكـن هذا أهون بكثير إذا كان سيـوفر لنا الحمايـة من نيران ومواجهة العـدو الذى يسعى إلى أسر من يواجهه من ضباط واستغل صــلاح انصات الجميع له فى تكملة تعليماته .. قبل أن نبدأ فى السير لابد أن نعرف مهامنا خلاله.

القيادة الفعلية ستكون لهمام بحكم درايتـه وخبرته بعمليات الملاحة البرية الليلية واستخدامه لمعداتها كالبوصلة مثلا .. ومن ثم فعليه التقدم أمـام المجموعـة ومعه فى معـاونته الـرقيب عبدالخالق والجنـدى زكى .. بقية الرجـال يسيرون مثنى وثلاثا دون أن يسمحوا للمسـافة بينهم أن تزيد عن عدة أمتار حتى لانفقد ترابطنا أمام المواقف المفاجئة..

شوقى سيتولى مهمـة العلاقات العامة فى التعامل مع العـربان الذين ربما لاقيناهم فى الطـريق أما أمير فسيقوم بـالمهام الصعبـة التى ترتبط بالقتال كالتعامل بالنيران مـع أفراد اليهود المترجلين أو حماية المجموعة ضد الحيـوانات المفترسة وسيقـوم رستم بتناوب المهمـة معه.. لم ينس صــلاح فى نهاية تعليماتـه أن يصدر أمـراً بـالتخلص من «الفيلد بـوت»

وكذلك تبـديل الملابس الداخليـة مع زملائهم الجنـود إمعانـا فى عمليات التمويه ومحاكاة الجنود فى هيئتهم تفادياً للأسر.

قذف شوقى حـذاءه وكاد يبكيه ألما وحسرة حيث تذكره بزميلـه جابر الذى تطوع وقام بصنعـه له عمولة فى مدينة فـايد التى اشتهرت بصنع هذه الأحـذية الخاصـة بالضبـاط من مواد خـام تتوافـر لهم من بقـايا كـاوتش الطـائرات المنتشرة فى كبريت وكسفريت والاسماعيليـة .. تـرى ما مصير زميلهم جابر .. لابد أنـه لقى المصير المحتوم ونال الشـهادة .. إنه كـان على وشك الارتباط بحبيبته التى ظل يعـاهدها على الـزواج منذ تخرجا معـاً من معهد التربية الـرياضية بالاسكنـدرية والزهـرية .. لكن الجندية أوقعته فى الخدمة بالكتيبة وأخـرته عن الوفاء بوعده مع حبيبته ريثما يستعد لذلك.. لكن ياصلاح أنا أستأذنك فى عدم تبديل ثيابى برغم تـرحيب فـــرغلى بـذلك .. أنـــا لاأستطيع أن ارتـدى ثيـــاب أحـد حتى لو عرضنى هذا للأسر قالها شــوقى وكأنه يرجو صلاح الا يعترض على رغبته لأنه لن ينفذ أوامر تبديل الثياب.

كانت العـلاقة بينهما وطيـدة تعود لعدة سنـوات أمضوهـا فى رباط وثيق .. وكان أقرب النـاس إلى قلبه بعد همام الذى كـان من دفعته لأنه تخلف عن التخرج مع صلاح بسبب تقصيره فى الدورة النهائية بالكلية.. وجـاء رد صلاح معبراً عن الاشفـاق الذى لم يكتف بـالسير على ساقـه العـاجزة قـرابـة المائة كيلـومتر .. بل هو يستعـد الآن لقطع ضعفهـا .. فليمنحه الله التوفيق ولنسـاعده على مواجهة هذه المهمـة الشاقة ونخفف عنه بعض أعبائه إذا كان هذا بالمستطـاع .. لك ما تريد ياشوقى ولاعليك حتى من التخلص من الفيلـد بـوت إذا كان سيسـاعـدك على السير لكن شوقى كان أكثر المستفيدين من إلقاء الحذاء الذى كان يصعب من مهمة نقل ساقـه فى كل خطوة يخطوهـا وليكتفى بلبس الجورب حتى لاتتورم أقدامـه بفعل الاحتكاك والتأثر بحبات الـرمل خاصة وقت القيلـولة التى تصبح فيها الـرمال وكأنها جمرات حـارقة تشوى وتلفح الجلـد بلهيبها وحرارتها العالية.

قبل أن تبدأ القـافلة فى السير تذكـر شوقى أول عقاب تـوقع عليه فى الكلية الحربية وهو طالب مستجـد .. لم يكن الوحيد فى تنفيذ العقاب بل شاركه فيه كل زملائه فى المحاضرة .. كانوا ينصتون باصغاء إلى النقيب محمد عبدالرازق زهرة مـدرس مادة التكتيك .. وكانت المحاضرة تتحدث عن الفصيلة المشاة فى المعركة الدفاعية .. أفاض المحاضر فى شرح الدرس ثم اضطـر للخـروج عن بنوده لـلاجـابـة على أحد الأسئلـة .. وقـال فى معرض اجابته إنه كان لـه الشرف فى المشاركة فى حرب ستة وخمسين .. وإنه قطع مسـافة مـائة وخمسين كيلو مترا بين أبوعجيلـة والاسماعيلية سيراً على الأقدام ... وهنـا صدر عنا صوت ونحن نكتم ضحكنـا بعد أن تخيلنا أن الرجل بالغ فى ذكرياته .. ولم يكن من النقيب زهرة سوى أن منحنـا جميعاً طـابور زيـادة أداره بنفسه وأضـاف إليه بعض صنـوف العقاب أمثال العـدو والزحف وغير ذلك من أمور «عكننة» عهدنـاها بعد ذلك فى طوابير الـزيادة بـالكلية .. لم يكن النقيب زهـرة يبالغ .. ولم يقم بتقليـد خفيف الظل أبولمعـة .. وإنما نقل الينا خبرتـه الفعلية وتجربتـه الشخصيـة لكننـا فى هذه السـن كنا غير مـؤهلين لتلقى أيـة خبرات قـد تعرضنـا للعقاب .. أمـا الآن وبعد أن قطعنا فى أول وثبـة من جبل لبنى للعـريش مائة كيلـومتر .. ومن يعـرف كم ستكـون المسافـة التى نحن بصـدد قطعهـا الآن .. والمدة التى سنستغرقهـا فيهـا .. والأهـوال التى سنـواجهها وهل يكتب الله لنـا النجـاة أم سنلقى الشهادة وننعم بجنـة الخلد مع الصديقين. فلنتـوجه إلى الله بالدعـاء أن يجنبنا الأسر واخطاره ويبعدنا عنه ويبعده عنا لأن مانعرفه عنه يجعله فى المرتبة الأولى من بين أسوأ ماقد يلقاه المقاتل خصوصاً إذا كان الطرف الآخر من اليهود الذين لايعرفون المواثيق ولايعترفون بـالعهود ولايرعون الضمائر ولايحافظون على الانسانيات ولايعبأون بالذاتية والكرامة الشخصية..

تقدم همام الـرفاق وقـال وهو يبـذل بعض الجهد ليصل صـوته إلى أسماع كل الجنود ربط الاتجاه على البـوصلة وسأهتـدى فى قيادتى لكن ببعض المجموعات النجمية أمثال مجمـوعة كاثيوبيا والدب الأكبر ولهما

أشكال مميـزة يمكن لكم تمييزها بـوضوح .. وكنوع من أنـواع التسرية قال همام: كـاثيوبيـا يارفاق تتكـون من خمسة نجـوم على شكل حرف دبلو بالانجليزية أمـا الدب الأكبر فهى تتكون من سبعة نجوم على شكل يقترب من شكل المغـرفـة التى تستعملهـا ربة المنـزل فى طهيهـا.. وبين الاثنتين ارتبـاط ومع شىء بسيط من الحسـابـات يمكن أن نستـوضح منهما اتجاه الشمال عن طريق الاهتداء للنجم القطبى وهـو أكثر النجوم تألقاً واضاءة عن كل مـاحوله وإذا عرفنـا اتجاه الشمال أمكن لنا تمييز بقية الاتجاهات ومن ثم تحديد اتجاهنا بدقة وسهولة.

ورغم أن همام كان يشرح درس الملاحة البريـة من قبيل التسرية على الرفـاق بعد حالة الاحبـاط التى انتابتهم لسقوط العريش فى أيـد اليهود واتخاذهم لها كقاعـدة ادارية لامداد قـواتهم الغازيـة غير أن الجنود بل وأمير ورستم ظلوا يتنـاقشون فى أين حـرف دبلو ؟ وأين هما الـدليلتان أقرب النجـوم إلى اتجاه الشمال هذا هو النجـم القطبى لا لا يارستم انت مش عارف .. فيه أكثر من نجم يشبهه فى شدة الاضاءة.. واضطر همام لإصلاح ذات البين ، لاعليكم ايها الـرفاق فى عمليـة تحديد اتجاه الشمال أو التعرف على النجم القطبى إنها أمور تخصصية ذكرتها لكم لاطمئنكم على قيادتى لكم خلال سويعات الليل التى نقطع خلالها عدة كيلو مترات وسط ديـاجير الظـلام .. الصحـراء فى العتمـة تبـدو وكأنها بحـر لجى لانهاية له تقذفنـا التباب بينها وتفرض علينا نوعـا من التيه لو لم ننتبه لـه بقواعـد الملاحة البريـة لواجهنـا فقد الاتجاه ومن ثم قمنـا بالـدوار والالتفاف حول أنفسنا دون انجاز أو تقدم.

بـدأت المجموعـة السير حـوالى الثانيـة من صبـاح ليلة السـابع من يـونيـو.. وكما أفهمهم همام خبير الملاحـــة الليلـة أنهم سيتخـذون من النجمتين المعروفتين باسم الدليلتين هاديـا لهم لمعرفة اتجاههم .. أما هو فسيطابـق ذلك على الاتجاه الذى ربطـه على بوصلته .. ومـاعليهم إلا أن يجدوا فى السير ولايتهـاونـوا فى ذلك خـاصـة فى سـاعـات الليل التى لا يتعـرضـون خلالها للعطـش بفعل حرارة الشمـس المحرقـة فى هـذا

الفصل من العـام .. إن قيظ حـرارة يـونيـو أفقـدهم كثيراً من مخزون أجسـادهم ومع كل معانـاتهم فلم يكن بـوسعهم التوقف . لأن التـوقف معناه الفناء.. وكم اصطدمت اقدامهم بـاشلاء الضحايا وجثث الشهداء ، بعضهم مات بـالنيران التى أصابته مـن اليهود أما الجانب الآخـر فكان فناؤه بفعل الجوع والعطش.

آه .. قالها همام بصوت عال .. اندفع صـلاح إليه وكان أقرب الرفاق منه .. مـاذا بك ياهمام اطمئن يـاصلاح اطمئن ليس بـى مكروه.. وانما انفلتت آهـاتى تحذركم من الـوقوع فى حقـل الغام للمشـاه .. واستفسر صـلاح كيف استنتجت ذلك .. إن أمامـى سلك اعصار يـربط بين لغمين لو اننى مـذقته بقدمى لانفجـر اللغمان وامسكنا العدو القـريب منا كما يمسك الفئران .. إن هذه المنطقة لابد أن تكون حيوية.. ولذلك قام العدو بنثر بعض الألغـام بطريقة مبعثرة اعتمادا على أنـه لايطأ المنطقة إلا على الجنزير ولاخـوف على رجاله من ألغام المشاه. ومـاالعمل؟ .. قال صـلاح وكأنه يستشير زميلـه بصوت هامـس .. ولما تأخرت اجابـة همام .. قال صلاح بشىء من الحسم .. أمير ان الأمـر بيدك.. عليك أن تكـون عيون المجموعـة خلال عبورها لحقل الألغـام ستقوم باستخدام أحـد السناكى الموجودة بالبنادق الآليـة بجس الأرض قبل أن تخطو أى خطوة وستعبر المجموعـة خلفك وعلى نفس موقع أقـدامك ، كان من السـهـولة أن أكلف أحـد الجنود بـالمهمـة لكن اختيـارى لك يأتى من احســاسى بجسامـة المسئوليـة.. نحن جميعا أمـانة فى عنقك.. قـالها صـلاح وهـو يحفز أمير للقيام بهذه المهمة الصعبة .. تعاظمت ثقة أمير بنفسه بعد أن شعر بأنه عيـون المجموعـة وانه قـائدها حتى ولـو جاء ذلك بسبب حقل الألغـام العشوائى الذى ربما لجأ إليه العدو ليتلقى انـذارا مبكرا بدخول أى فرد منطقة دبـاباتـه التى تمركزت بـالليل فى راحـة قصـيرة سرعان مـاتعاود بعدها القيام بمهامها القتالية.

هكذا عـرفنا من أسلوبهم فى القتال.. ظلت المجمـوعة تسير خلف أمير السبكى ببطء شديـد وبحذر أشد حتى لايقعوا فى المحظـور .. كانت كل

خطـوة لأمير تمثل الخطر بعينـه .. كانـوا يعبرون جسراً ضيقاً يتجسـد الموت من خـلاله ويكمن على ضفتيـه ربما تمزق سلك الاعصار فى هـذه الخطـوة أو لنفترض أن أمير لم يلمح هذا السلك الـرفيع فى هذه العتمـة القاتمة .. هذا الظـلام الدامس الذى يضاعف مـن الاخطار ربما اصطدم بلغم مباشر ، انها الطامة الكبرى فبالاضافة إلى اصابة أمير وبقية الرفاق اصابات متفاوتة .. يستطيع اليهـود أن يأسروهم دون معاناة وظلوا على حالهم هـذا نحو الساعتين أو يـزيد لم يدر الـرفاق كم قطعـوا فيها من مسافة لكنهم فقط كانوا فى قمة يقظتهم وحذرهم تخوفا من الألغام التى طالما قـرأوا وسمعوا عن اصابتها الكثير .. لقـد جاءت اصابـات زملائهم الضباط القدامى باليمن من هذه الألغام الملعونة.. ان شظيتها قادرة على هتك أنسجة العضـلات والنفاذ من عظمة الجمجمة والاستقـرار فى عظام العمود الفقـرى وقطع النخاع وهم وسط هـذه التخيلات الكئيبـة سمعوا همساً يحذرهم من أن حقل الألغام قد انتهى لكنه اسلمهم لمنطقة تمركز دبابـات اليهود .. التفت أمير السبكى ســائلا النقيب صلاح عن التصرف هل يظل على جسه لـلأرض وبالرغم من تأكـده بانتهاء مساحـة الألغام من خلال عدم وجود أى أسـلاك اعصار أو الغام واضحة فوق الأرض.. إن لغم المشـاه يختلف عما عداه من ألغـام .. لغم المشـاه لابد أن يظهـر بكـامله فـوق الأرض حتى إذا مـا انفجر انتشرت شظـايـاه فى مساحـة نصف قطـرهـا يزيـد عن عشرة أمتـار لتصيب كل من فيهـا .. أمـا لغم الدبـابات فإنه يـدفن تحت الأرض ويحتاج لضغـوط كبيرة حتى ينفجر ولايـوجـد بينـه وبين الألغام الأخـرى أى ارتبـاط كأسـلاك أعصـار أو خلافه.. كان صلاح يقلب معلومات مـادة هندسة الميدان فى رأسه عندما استحثـه أمير مستفسراً مرة أخـرى ما العمل يـانقيب صلاح ؟ .. أفـاق صـلاح من شروده وقال للـرفـاق علينا أن نعبر منطقـة دبـابات العـدو هرولا وبأسرع مايمكن لكن شريطة ألا يحدث أى صوت خلال الهرولة.. كما اننا يجب الا نبعـد فى عدونا حتى لانتعـرض لفقد أحد زمـلائنا وإذا لم يستطع شـوقى أن يجرى على سـاقـه المعتلـة فليتحـامل على نفسـه

وليتخلف قليلاً عن الـركب وسنقوم بانتظاره بمجرد أن نفـرغ من عبور المنطقـة التى يجب أن نعبرها ليـلاً تحت ساتـر الظلام حتى لانتعـرض لهجمات اليهود نهاراً .. قـالها وبدأ فى الجرى والمجمـوعة خلفـه وشوقى يقفز على ساق واحدة خلفهم جميعاً .. شـد حيلك ياأبوالشوق .. لايمكن أن تتخلف عن الـركب بسبب سـاقك العليلـة ، قـالها أمير وهو يسـانـد شوقى فى جريـه.. فلتذهبا أيها الصديقان .. قالها شـوقى وهو يكافح فى الجرى على سـاق واحدة .. واستحث أمير ورستم فى تـركه لكنهما عقـدا عهداً ألا يتركاه حتى ولـو كان المقابل مواجهة ثـلاثتهم للشهادة .. وبعد فترة من العدو جرب شوقى أن يجرى على سـاقيه بعد أن أرهقه الجرى بسـاق واحـدة ولم يعـرف حتى الآن كيف سـاعـده الله على ذلك وكيف استجابت ساقه لمحاولة النفـاذ من الخطر المحدق بهم .. جرى .. وجرى كما لم يجر فى حياته وكـأنه فى سباق لألعاب القـوى والعدو مائة متر .. هكذا يعين الله الانسـان لحظة الخطـر .. هكذا يمـده الله بمدد مـن عنده لمجابهة الظـروف الصعبة التـى يمر بها .. هكـذا شاء الله للمجمـوعة أن تعبر منطقـة الدبـابـات خلال السـاعـات الأخيرة من الليل كان اليهـود خلالها فى سبـات كامل أو هكـذا تخيلوا .. ومع ذلك لم يصـدر الأمر من صلاح بالترجل .. إنهم مايزالون يحتفظون ببعض لياقتهم وقدرتهم على مواصلـة الجرى بطريقـة اختراق الضاحية لعـدة كيلو مترات متـواصلة لم ينسوا بعـد يوم أن كـانوا يجرون أكثـر من عشرة كيلـومترات مابين مدينة انشاص وقـرية الزوامل خلال فرقة الصـاعقة التى حصلوا عليها بعـد تخرجهم من الكلية .. أراد صـلاح أن يتأكـد من ابتعـاد المجموعـة تماماً عن حفـر تمركز دبـابات العدو لابـد أنها منطقة مهمـة .. لابد أن يخرجـوا تماماً عن نطـاقها .. لأنـه لايضمن ماذا سيكـون لوطلع علينـا النهار ونحن بالقرب منها .. الحيطـة واجبة لكن الرفاق مجهدون وأخيرا أصدر تعليماتـه بالترجل بعـد زهاء خمسة كيلـو مترات قطعها الـرجال دون توقف .. ولم يكفـوا عن السير حتى مطلع الفجر وحتى بعـد انبلاج الصبح وانحسار الظلام ومـع توارى عتمة الليل تدريجيا ظـل الرفاق فى

مسيرتهم دون أى تغيير فيما عـدا اعتماد همام على البـوصلة بطـريقـة مكثفة نظراً لاختفاء النجوم.

تنفس الرجـال الصعداء .. وكأن صدورهم قد انـزاح من عليها شبح ظل جاسما فوقهـا عدة ساعات تضافـرت عليهم بعض العوامل كل منها كفيل بـاحـداث هـذا التأثير فعلاوة على الجوع الشـديـد والظمأ القـاتل ورهبة الظلمـة الموحشة التى تحيل الهيئات إلى اشبـاح والخوف والفزع من السير فى حقل الألغام .. تأتى بعـد كل هذا دبـابات اليهود الـرابضة بجوار خط سيرهم ولو أن أحد جنودهـا استيقظ لقضـاء حاجته لكان فى مقدوره أن يحصدهم بنيران رشاشه أو حتى بندقيته إذا لم يرد بذل أى جهد فى أسرهم والاحتفاظ بهم والتفنن فى تعذيبهم.

حب .. وحرب ٦

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧

الناقة الجموح

النــاقــة الجمــوح

انبلج الصباح وأشرق النهار بنوره ليخفى بين طياته مشاعر الخوف والرهبة التى انتــابت الرجال لفترة .. ويدفع بينهـم بعض الثقة المفقودة انهم وسط بحر من الصحراء لم يعد هناك مايمكن تمييزه.. التلال أشبه بعضها البعض .. الـروابى الصفر لاتنتهى .. الوهاد فى المكـان وتسيطر على الساحـة .. الرمال الصفراء تعكس ذراتها أشعـة الشمس فترتد على المآقى وتجبرهـا على الخفـوت .. تهكم الـرفاق من مقـولـة شـوقى التى استأذن صــلاح فى ترديـدها عليهم بضرورة وضع زلطـة صغيرة أسفل اللسان لاستثـارة الغدد اللعابيـة وتحفيزها على الادرار.. كـان قد سمع هـذا الـدرس المستفـاد من النقيـب زهـرة مـدرســه فى الكليـة الحربيـة وصــاحب التجـربـة السـابقـة فى السير بطـول صحـراء سينـاء لكنهم استخفوا بالكلام ولم يحفلوا بتنفيذه .. فلم يكن الظمأ قد بلغ بهم مبلغه بعـد ولم يكن العطش قـد تمكن منهم أو أضنـاهم .. فمازالت السـاعـة لم تتعد التاسعـة صبـاحاً .. ورغم اشراقـة الشمس فـلاتزال أشعتهـا لاتلهب ظهـورهم بحـرارتها وكـأنها قـررت أن تحنـو عليهم رفقـاً بهم وحزنـاً عليهم وتأثرا وتحالفا معهم بعد مـا صادفوه من مآس ومـاحاق بهم من أخطـار.. كانـوا يعلمـون مقدرتهم على تحمل الجوع لأكثـر من خمسة أيـام.. ولا تزال آثـار الوجبة الـدسمة التى تنـاولوهـا متمثلة فى

الحية المشوية التى قام أمير بتوزيعها بعد شيها يسرى فى عروقهم ويمدهم ببعض القوة وان كان تأثيرها قد ضعف لكنهم لايقدرون على تحمل العطش لأكثر من ثلاثة أيام فقط..

وهاهو النهار الثالث الذى مر عليهم دون أن يرووا ظمأهم باستثناء قطرات قليلة قام شوقى بتوزيعها عليهم من خلال غطاء أحد الزمازم ومع مرور الوقت ومع تعرضهم لأشعة الشمس ومع استنزاف العرق لمخزون المياه فى الجسم أحسوا بالظمأ وبدأت حرارة الرمال تكوى جلود أقدامهم وتنعكس الأمور على قدرتهم على الاستمرار فتقل معدلات سيرهم وتتباطأ خطاويهم وتتثاقل أقدامهم.. ويتوجهون إلى صلاح يناشدونه التوقف ولو لثوان معدودة يلتقطون فيها أنفاسهم .. ويستعيدون تماسكهم .. ويلملمون شتاتهم .. كانوا يخشون من التوقف الذى قد يسلمهم إلى الموت جوعا وعطشا .. كما أنهم يعانون من الاستمرار فى السير لأكثر من عشر ساعات متصلة.. قوتهم أنهكت وقدراتهم خارت .. لابأس إذن فلنسترح قليلاً .. ولعلنا نستطيع خلال راحتنا أن نعمل فكرنا فى خطواتنا التالية بعد أن اعيتنا الحيل وضاقت أمامنا السبل وسدت المنافذ .. إن الحلقات تضيق والأمور تتعقد والأحوال تزداد تعثراً لكن نحن مؤمنون وليس أمامنا سوى التعلق بالأمل والتمسك بالثقة فى معاونة الله لنا .. قال صلاح هذه الكلمات وكأنه يواسى نفسه قبل أن يحفز الرفاق.

توسطت الشمس كبد السماء ولفحت أشعتها الحارقة وجوه الرفاق فتبللت عرقاً ، تلفتوا حولهم لاهم قادرون على استئناف السير وهم على هذه الحالة المتهالكة .. ولاقانعون بالاستسلام للموت بعد أن قاوموه فى أقوى صورة متمثلاً فى نيران اليهود ودباباته والغامه لكن حركتهم أصبحت عزيزة وركونهم وخلودهم للسبات أصبح لامفر منه وحتى هذا بات ترفيها غير متاح فالحرارة الشديدة حولت جلستهم فى العراء وكأنهم داخل فرن غير مسقوف ، أشعة الشمس تشوى جباهم وجلودهم والعرق يتفصد بغزارة من مسامهم .. بلغ بهم الظمأ مبلغه

باتوا يحلمون بقطرات قليلة من الماء ويعرضون مقابلها أى ثمن حتى ولو كانت حياتهم إلى أى حد صارت الحياة رخيصة ، إلى مدى أصبح الأمل ضعيفا وهم على حالهم هذا .. عبث رستم فى الرمال بسنكى بندقيته وتخرج الرمال من الحفرة رطبة ذات لون داكن ، تخيل رستم أن الماء ممكن ان ينفجر من بين يديه وهو يحفر حفرته المتواضعة ولِمَ لا؟

صحيح أننا فى غير أوقات المعجزات.. لكن قد يبعث الله الماء كما فجرها من تحت قدم سيدنا إسماعيل إذا أراد لنا النجاة فنحن عباده.. وهو عادل.. ولا يمكن لعدله أن يتجاوز عبادة الظمآنين..

أخذ رستم يهذى بهذه الكلمات تحت وطأة المعاناة والظمأ ، لم يكتف بهذا بل صاح فى رفاقه أيها الرفاق سيفجر الله المياه من بين أصابعى لِمَ لا.. لقد ألهمنى الله بالحفر والنتائج مشجعة ومبشرة لاعليكم إلا أن تتحلقوا حولى لتنهلوا من النبع المتفجر.. هم يبكى وهم يضحك.. قالها همام فى سره وهو يستمع لنداءات رستم أمعقول مايردده رستم.. نحن قابعون على ربوة عالية من الرمال.. يسمونها بلغة الجندية غرود أى أنها متكونة وزميلاتها من التباب والهضاب من الرمال المتحركة بفعل الرياح أيمكن أن يكون تحت هذه الغرود الرملية ينابيع مياه.. إن المياه لاتظهر فى باطن الصحراء إلا على مسافات بعيدة من الأعماق فكيف يتسنى لسنكى رستم أن يحفر مثل هذه الأعماق، طبيعى أن تكون الرمال الخارجة من الحفرة أكثر رطوبة وأحلك لونا.. إن القشرة العليا منها تزداد اصفرارا وجفافا بفعل لهيب الشمس المحرق أما الطبقات التالية فتكون ذات لون أعمق فهل معنى هذا وجود مياه؟

قال هذا همام ولم يتباطأ عن تلبية نداء رستم حتى لايقال عنه إنه متقاعس.. ولقد كان أكثر من فى المجموعة إرهاقا وتعبا كان أكبرهم سنا رغم عدم بدانته بالإضافة إلى كونه ممن يطلقون عليهم ابن ناس فجده باشا ساحل سليم الذى تقلد مقعد رئاسة الوزراء فى الأربعينيات كما أنه أول دفعته فى الكلية الحربية فظل ينعم برتبة المساعد طوال وجوده

فى آخـر سنـة بـالكليـة وهى رتبـة تمنح حـاملهـا بعض الحقـوق التى لايحصل عليها زمـلاؤه ومع كل هذا كـان همام من أكثر الناس التـزاما وانضبـاطا وانصيـاعـا لتعليمات قائد المجموعـة زميله ودفعتـه النقيب صـلاح.. لم يفتأ رستم يحفـر وهـو متأكـد أن الميـه ستنفجـر من بين أصابعـه والرفاق ملتفـون حوله حتى خـرج سنكيه وعليه آثـار الانثناء اصطدم عـدة مرات بصخور مختفيـة أسفل الرمال ولما حـاول الابتعاد عنها عاود الاصطـدام بها فأيقن أنه لا أمل واضطر لإعـلان فشله الذى توقعه الجميع قبل المراحل النهائية من عملية الحفر المزعومة.

جلس الرفاق حـول حفرة رستم فى حالة من الاسترخـاء الذهنى.. لم يصبهم الإحباط لأن المياه لم تنفجر من أصابعه فهم متأكدون أن الوقت ليس وقت معجـزات لكنهم أدركوا من تعلقهـم بأهداب الأمل الـواهى كم هم يعـانـون؟.. وكيف نـال منهم الإرهاق؟ وإلى أى مـدى يخشـون على أنفسهم من شبح الهلاك.. إنهم قـاب قوسين أو أدنى من الموت عطشـا. أشعة الشمس تلفح جبـاههم وظهورهم فتسقط عليهم كـأنها سياط من نار لا يجدون معها ملجأ ولا يفلحون فى الهروب منها أوتفاديها.. خارت قـواهم ونفـدت مقاومتهم ونضب مخزون الميـاه فى أجسـادهم ولم يبق لهم سوى جانب من عقلهم الـذى لايزال تومض قريحتـه بفكرة من هنا وأخرى من هناك رافضا تماما فكـرة الموت عطشا.. وكيف له أن يتقبلها وقـد أنجاهم الله ممـاحـاق بهم من أخطـار تجاوزت بمراحل كثيرة هـذا الشبح الجاثم على صدورهم والذى ألهب حلوقهم.

وهم على حالهم هذا لمح عبد الخالق حكمـدار المدفع ناقه شاردة عن بعد فصـاح ياالله لابد لهذه النـاقة من أصحـاب ولاشك أن لديهم بعض المؤن يمكننا أن نتـزود بها لتعيننا على الحالة المترديـة التى نحن عليها.. ورد عليه صلاح وكان أكثر خبرة ودرايـة بدروب الصحراء وأغوارها من خلال قـراءته الكثيرة فى تاريخ المعارك خـاصـة، وقد كـان متيما بروميل ثعلب الصحراء فى الحرب العالمية الثانيـة هذا الإعجاب الذى كان يحكيه لنا مدرس التاريخ العسكرى الـرائد بهى الدين عبدالله ويقول أول مهمة

صعبة لمونتجمرى قائد قوات الحلفاء كـانت كيفية نزع الإعجاب بروميل من نفوس مقاتليه كانوا يتـابعون تحركاته بشغف ويستسلمون لأفكاره بضعف ويشيـدون بخبرتـه ودرايتـه وكأنهم يشيـدون بقـائدهم وليس بعدوهم الأول بل الأوحـد بعد هتلـر.. تحدث صلاح بصوت يـائس لكنه عميق ليس معنى وجــود نـاقـة شـاردة فى الصحـــراء ضرورة وجـود أصحاب لها وما يتبع ذلك من كلأ وعشب ومياه - وغير ذلك من مظاهر الحياة فالنوق حيوان تشبه الغـزلان والنمور وغيرها من الحيوانات التى تهيم على وجهها فى الصحراء دون أن يكون لها صاحب وهى تتغذى إما بـالأعشـاب النادرة أو حتـى تعيش على تناول لحوم بعضـهـا وعمـومـا لابأس من مطاردتها واصطيـادها.. لكن نصيحتى ألا نستخـدم لحومها قبل أن نعبر بها شبح الموت الذى نتعـرض له.. الموت عطشا .. إنها الآن طوق النجاة الذى يعبر بالمجموعة إلى الحياة بعد أن أشرفنا على الهلاك.. إن دماءهـا تروى الظمأ وتطفىء لهيـب العطش.. قرأت ذلك فى يـوميات روميل وبمجـرد أن فـرغ من مقـولته إلا وسمع أمير وهـو يحرك أجـزاء البنـدقية ليأخـذ أولى الطلقـات فى ماسـورتها ليستعـد للإطـلاق.. لا لا يا أمير لاتطلق نيرانا فلو أطلقنا النار على النـاقة من هذه المسافة لسالت دماؤها ونفدت من عروقها على الـرمال قبل أن ندركها وبهذا يتبدد الأمل ويخبـو الرجـاء.. مطلوب أن نقترب منهـا كلما أمكن حتى نستطيع ملء ولـو زمـزميـه من هـذه الـدمـاء قبل أن تتجمـد بفعل الحرارة وتختلط بالرمـال.. وبدأ صلاح يعدو فى أثـر الناقة وكلما اقتربت المجموعة منها كلما أمعنت هى فى الفـــرار وتـركت لنفسهـــا العنـان ، ظلـت المطـاردة مستمرة بين الـرجال والنـاقة عـدة كيلومترات بغير هـدى أو التزام بأى اتجاه أو الحرص على أى هـــدف.. لاشىء يـربطهـم بـالحيــاة الآن إلا الــوصول لهذه النـاقـة اللعينـة التى تمثلت أمامهم بـأنها الأمل الوحيـد الباقى فى الحياة.. الظمأ يقتلهم والتعب هد قواهم وارهق أوصالهم.. ولم يبق أمامهم أى نوع من أنواع المقـاومة سوى إيمانهم بالله وبقدرتهم على بعث الحياة من جديد فى نفوسهم بعد أن فرغت تماما من أجسادهم.

فلتـذهب الناقـة إلى الجحيم لايمكن أن تكـون هذه الشيطـانة طـوق النجـاة المزعـوم.. لم تقل المسافـة بيننـا وبينهـا أبـدا منذ أن بـدأنـا فى مطـاردتها وكأنها دسيسـة علينـا لاستنزاف مـاتبقى لنـا من مقـاومـة وما بأجسادنا من حبات وقطرات مياه قليلة .

قـال همام كلماتـه وأردف لم يبق أمـامى أى طاقـة تسـاعـدنى على مطاردة تلك الملعونة حتى ولو كانت الحياة التى أنشدها لن تأتى إلا من خـلال دمـائها ولحومهـا.. أنـا لا أصـدق معلـومة الـدمـاء التى قلتهـا ياصـلاح.. معذرة لك.. لكننى اضطـررت أن أقولها تحت وطأة ماأعـانيه من آلام وإسقام.. لاعليك ياهمام فأنا أعلم مـابك.. وأضاف صلاح وكان للحقيقة يتـذرع بصبر لاينضب وبحلم لايفرغ.. كان قـد وطن نفسه على ألا يكون طـرفا لخلاف بينه وبين أحـد من الرفـاق فكيف يدب الخلاف بينه وبين أقـرب الناس إلى قلبه وأوثقهم صلـة وأصدقهم عـلاقة.. ليس لنـا فائدة من إثبـات المعلومـة التى قـرأتها بمذكـرات روميل عن حالـة الارتـواء التى تسببهـا دمـاء النوق للمقـاتلين فى الصحـراء فحتى هـذه الـدماء أصبحت عمليـة متعذرة وشبـه مستحيلـة وبدلا من أن نستنفـد طـاقتنا فى الجدال علينـا أن نفكـر فيما نحن مقـدمون عليـه أو حتى فى معالم الخطوة التالية مع هذا التعـب الذى سيطر علينا وهذا الظمأ الذى شل قدرتنا.. خيم على أفراد المجموعة شبح الموت عطشا ، لهثت الأنفاس وجفت الحلوق ونحلت الأجساد ونضب معين المقـاومة ودب الاستسلام واليأس، ولم يبق أمام الرفاق سوى أمرين.. إما السعى بلا هدف ولا إلى اتجاه عسى الله أن يبعث لهم بمعجزته وينقـذهم من ورطتهم بعد أن عز البقـاء وقلت فـرصـة الحيـاة.. وإمـا أن يقعـدوا فى انتظـار ملك الموت وليستهلكوا مـابقى لهم من رمق فى حفـر قبورهم بأيـديهم وليتفقوا على أن يواروا الأجساد التى تقع الرمـال حتى لايتبقى منهم إلا آخر موتاهم هو الـذى لايجد من يتـولى دفنه وحماية جسـده من النسـور والصقور الجارحة.

استمع الـرفاق وهم فى أشـد حـالات الإحباط والإرهـاق إلى مناقشـة

جانبية بين الثلاثة الكبار.. نعم أصبحوا الثلاثة الكبار بعد أن أذاب التعب واليأس المسافات بينهم.. اقترب شوقى من صلاح وهمام أكثر وأكثر بعد أن تبينوا أنه الوحيد بالمجموعة الذى يحتفظ بقدرته الكاملة على إيجال الفكر وإمعان النظر فيما يطرح من اقتراحات، دنا صلاح من شوقى فى محاولة للاعتماد على فكره بعد أن فشل هو فى تنقيح الفكرة التى اقترحها همام وإدراك أبعادها ، اقترح همام أن يخالفوا الاتجاه الذى ربطوه على البوصلة ولينحرفوا يمينا بمقدار تسعين درجة كاملة وليمموا وجهتهم شطر البحر قاصدين مياهه حتى ولو كانت مالحة.. نعم لاتصلح للشرب للنسبة الكبيرة من الملوحة التى تتسم بها.. لكنها على الأقل قادرة على إعادة الحياة وإحداث التوازن المفقود فى خلايانا بعد أن فقدت معظم سائلها الأسموزى ، مارأيك ياشوقى قالها صلاح بصوت خافت حتى لاتضعف هيبته التى ظل محتفظا بها منذ أن نصبوه قائدا عليهم لكن مع مواجهة هذه المعوقات الصعبة أصبح من المتعذر عليه اتخاذ القرارات المصيرية وهو على هذا النحو من الضعف.

بدأ شوقى فى مناقشة همام بنفس الصوت الخفيض.. إذا سلمنا برأيك وبدأنا فى تنفيذه بصفتك خبيرا فى أمور الملاحة البرية وعليما ببواطن علم الطبوغرافيا الذى يدرس طبيعة المسارح الصحراوية وتعريف الهيئات والتضاريس الأرضية.. فمتى نصل إلى البحر وكم نقطع إليه من مسافة؟ وبيأس شديد أجاب همام لم يعد لى أى قدرة على الاستنتاج وأناعلى هذا الحال من الإرهاق فلا أنا مستطيع تحديد المكان الذى نحن فيه ولا تقدير المسافة التى تبعدنا عن شاطىء البحر لكننى تحت وطأة الظمأ أفكر فى أى شىء يبعدنا قليلا عن شبح الموت عطشا.. وحتى إذا لم ترينا مياه البحر لملوحتها فإنها قادرة على أفاقتنا ومدنا ببعض القدرة على مواصلة المسير بعد أن فرغت تماما مقاومتنا ورغم أنه من البديهيات التى تعلمتموها بالكلية الحربية أن ملوحة المياه لاتروى ولا تشبع من ظمأ ورغم أن شوقى كان يدرك تماما أن المسافة التى بينهم وبين البحر لاتقل عن عشرات الكيلومترات على الأقل الأمر

الذى يؤكد موتهم وهم يقطعونها على هذا النحو من الظمأ والإرهاق.. إلا أنه ناشد صلاح الموافقة على فكرة همام ليس لرجاحتها وإنما لأنها مجرد فكرة يحض بها الرفاق على السعى.. ولاشك أن بينهم وبين الحياة خيطا يكاد يتمزق بفعل أى مقاومة ولو حتى جاء ذلك متمثلا فى نسمات الرياح غير المنعشة التى كانت تلفح وجوههم بحرارة وقسوة الطقس والذى تعدت درجة الحرارة فيه عن خمسة وأربعين درجة مئوية كان الرفاق قد نفذوا فكرة شيطانية لمواجهة عطشهم المهلك أفرغ كل منهم مابجسده من مياه تخرج على شكل بول فى زمزميته أنهم قد يحتاجونه .. لا مناص أمامهم من استخدامه فهو منهم ولهم ولا ضير عليهم إذا استخدموه فهو ليس أشد خطرا مما يواجهونه كما أنه ليس أفظع مذاقا أو مرارة من طعم ومذاق الدماء التى ظلوا يطاردون الناقة بهدف الارتواء به.. نعم إنه يحتاج منهم إلى بعض من ترويض النفس وتعمية الذهن لاستخدامه لكنه على الأقل قد يضاعف من قدرتهم على المقاومة ولو لثوان قد تشكل أمامهم الأمل الوحيد الباقى.

كان همام أيضا صاحب الفكرة وأول المنفذين لها أدركه الظمأ بصورة قاتلة.. ومع ذلك فهو لم يتخلف عن الركب ولم يتوقف عن التفكير، رفع همام زمزميته التى تحتوى على مخزون بوله منذ وقت القيلولة وحتى نحو الرابعة بعد الظهر ارتشف رشفة وقال بعدها إن له مرارة مهلكة وطعمه بغيض ورائحته كريهة.. لكن ليس أمامنا مناص من استخدامه.. أرجوك «يا سمعة» ــ يقصد جنديه إسماعيل ــ أن تعرض الزمزمية إلى الهواء لتساعدنى على ترطيب السائل وإفقاده قليلا من حرارته المقبضة أننى أنشده مرطبا وليس ساخنا لكن حذار أن تستخدمه لتروى ظمأك فأنا أعلم منسوبة بالزمزمية وإذا ماسطوت عليه عرضتك لعقابى حالة تمكنى من ذلك.

يا لسخرية القدر ويالغرابة مايعرضون له من مفارقات إن همام حفيد الباشا رئيس الوزراء السابق يريد ترطيب بوله حتى يخفف من معاناته وهو مقبل على شربه.. ومساعده إلى غايته هذه جنديه

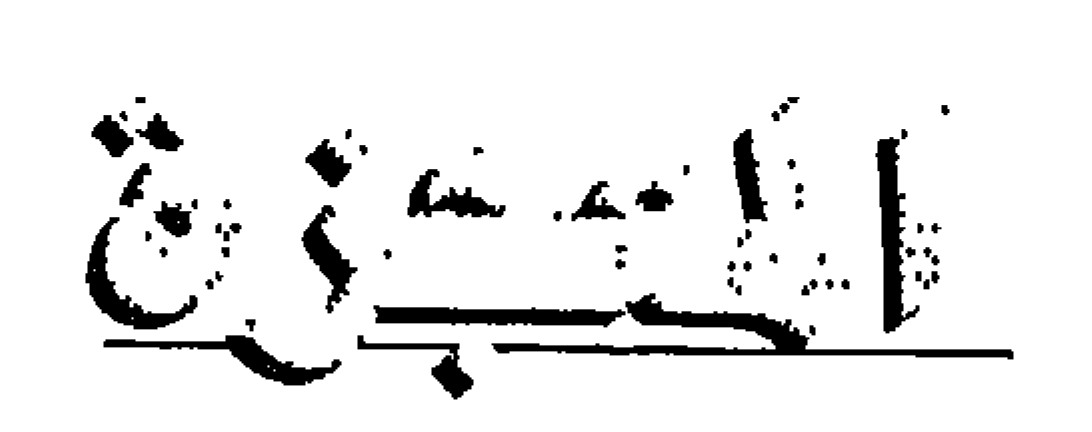
إسماعيل.. لكن يخشى على ثروته القليلة من هذا السائل الكريه من عين إسماعيل لو أن إسماعيل سطا على كمية البول القليلة لادرك همام الموت لم يكن غريبا أن يحذو كل الرفاق حذو همام بما فيهم صلاح نفسه.. كان يرتشف الرشفة ثم يخرج كل مابجعبته من عصارة.. لم يكن مذاق البول مستساغا ولا مقبولا من أحد حتى الجنود لكن لامفر من شربه.. المضطر يركب الصعب.. وهم ليسوا مضطرين فحسب أنهم أكثر من مرغمين.. والحاجه أم الاختراع وليس أمامهم مايبتكرونه ويشفع لديهم عند شبح الموت عطشا.

كان شوقى هو الوحيد المستثنى من المجموعة فى مواجهة بوله الكريه.. لم يكن يتصور أن بمقدور الزلطة الصغيرة التى قام بوضعها تحت لسانه وتهكم الرفاق من اقتراحها أن تجنبه شبح استخدام ذلك السائل الكريه وتبعده قليلا عن حالة الظمأ القاتل الذى واجهه الرفاق.

أثابك الله عنا خير الثواب يانقيب زهرة.. أيمكن لهذه الكلمة التى مر عليها سنوات طويلة منذ أن كان طالبا بالقسم الإعدادى بالكلية الحربية أن تمنحه النجاة من شبح الموت عطشا.. أيمكن للزلطة الصغيرة التى حرص على ألا يلفظها طوال فترة سيره حتى أنه اعتادها وتصادق معها أن تكون السبب فى نجاته.. لابأس.. لكن يمكن ألا يبعثر ثروته هو الآخر فى الفلاة.. أن زمزميته أولى باستقبال بوله من حبات الرمال.. ربما احتاجه.. ربما لجأ إليه.. صحيح رغم أنه أكثرهم تعرضا للإرهاق والتعب بسبب ساقه العليلة.. لكن حتى الآن لم يجد نفسه مرغما على تناول بوله.. وليتركه كاحتياطى قابل للاستخدام متى دعت الضرورة لذلك.. والضرورات كما يقولون تبيح المحظورات.. وما عليه إلا انتظار تلك الساعة.

حب ..
وحرب ١٠

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧



المعجزة

اكتظ السرادق الضخم بجموع المعزين.. زادت اعدادهم عن سعته.. وضاقت بهم مقاعده.. اضطروا للوقوف فى ممراته والاصطفاف أمامه.. قام أحد الأقارب بتنبيه القارىء إلى ضرورة أن يختم فى محاولة لفض التزاحم.. هاهو ينفذ الوصية ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلاتولوهم الأدبار .. ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ صدق الله العظيم.

لكن هيهات هيهات.. وكأن المعزين أبوا أن يغادروا السرادق وتمسكوا بالمقاعد حتى نهايته .. واضطر القارىء أن يكمل الآيات ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم﴾.

سبحان الله ولاقوة إلا بالله قالها شوقى وهو يحاول التوفيق بين ذكرياته عن الدمار والأخطار التى لحقت به وبرفاقه خلال الأيام القليلة الماضية.. وذكرياته مع شقيقتيه اللتين علم بفقد احداهما هذه الساعة.. ترى من تكون الفقيدة إن زوج الشقيقة الكبرى يقف بجوار شقيقه وقد تورمت عيناه من البكاء وأحمر أنفه وتثاقلت قدماه.. إذن هى شقيقته

الكبرى التى طالما حنت عليه وحملتـه على كتفها وقامت بدور أمـه عندما غـابت لفترة بسبب مرضهـا الذى أفقـدهم إيـاها لعـدة شهور .. كـانت شقيقته بمثـابة أمـه تماما .. توقظـه من نومـه وتساعـده على الاغتسال وتعد لـه طعامه وتجهـزه لمدرسته ولاتتركـه إلا بعد أن تودعـه على باب المنزل رغم أنها كانت تعمل مدرسـة بمدرسة الحى .. نعم لابد أن تكون هذه الفقيـدة خاصـة وانه يلمح بعض تـلاميذهـا وهم يقومـون بواجب العزاء.. لكن هؤلاء التلاميذ من أجيال متقـاربة مع جيله .. أنهم يعرفونه ولابـد أنهم يجاملونـه أو على الأقل يبـدون وطنيتهم تجاه أحد العنـاصر التى غـابت عن الحى فى مهمـة قوميـة .. لكن كيف لـه أن يقطع بوفـاة شـــقيقته الكـــبرى ونفس الشىء ينطبـــق عـــلى زوج الصـــغرى . إن الصغـرى تكبره أيضـا بسبع سنوات.. ولاتقل حنـانـا وودا عن الكبرى صحيح ان اختلاف الملامح بينهما كـان يؤدى إلى الحكم بعـدم أخوتهما من بعض الأصدقـاء لكنه طالما حظـى برعايتهـا وعنايتها طـوال مشوار أخـوتهما الصادقـة وحتى انتقلت إلى بيت زوجهـا .. كما أن هذا الـزوج المـــكلوم يقف بجـوار قريـــنه وليس أقل منــــه تأثـرا بعـد أن انتفخت أوداجـه واحمرت مقلتـاه وتهالكت أوصاله وتـدنت مقاومتـه إلى أقل حد لها.

هرب بفكره من جديد إلى رفـاقه الأربعة وزملاء مشواره الصعب من الجنود بعد أن قاموا بتنفيذ آخـر مقترحات همام بالاتجاه نحو البحر فى محاولة لاستخـدام مياهـه الملحة لـلارتواء أو على الأقل لـلانتعاش من حـالة الموات التى كـادت تفتك بهم وتعتصر امكانـاتهم .. شجعتهم على مواصلة السير حـالة الجو المعتدلة نسبيـا بعد أن كادت شمس الأصيل تغيب ..

انعقدت آمالهم على الـوصول إلى شاطىء البحر قبـل حلول الظلام.. لابد لهذا اللقـاء الحار أن تسجل مراسمه فى ضـوء النهار انه مـوعد مع الحيـاة .. يعلن فيـه شبح الموت الـذى خيم عليهم لفترة طـويلـة يأســه

ويطلق ساقيـه للريح وهو يـولهم الادبار بعد أن منّ الله عليهم بتـوفيقه ومنحهم السلامة وشملهم بإنقاذه بعد أن كادوا يهلكون.

الـوقت يجرى والسـاعـات والدقـائق تعـدو والشمس تـزداد ميـلا وأشعتها المضيئـة تزداد أفولا وكأنها تعلـن للرفاق أنـه لانجاة لهم وأن شبح الموت عـائد لامحالـة ليطبق مخالبـه فى رقابهم ويثبت أظـافـره فى عروقهم .. تـوقف شوقى فجأة عن السير وتحولت جميع خلايـا جسده إلى خلايـا الكترونية تـركز اتجاهها فى أمر مهم لفـت انتباههـا.. تصور الرفاق أن الألم زاد على ساقه واقعده عن السير .. لا لايجب أن تستسلم لـه وتمكنه منك .. لابـد من الاستمـرار حتى لـو اضطررنـا لقطع هـذه الساق اللعينـة عقب الوصـول .. ان العيش بدون سـاق أو حتى بطرف صناعـى ممكن .. لكن القعود والخضـوع والاستسلام لاأقبلـه لمن كان بحيويتك واقبـالك على الحياة .. هكذا هتف صلاح بشـوقى يستحثه على التخلص من حالته التى كان عليها ..

اضطر صـلاح للوقوف بجواره عنـدما لم يجد لكلامـه أى صدى فى نفس شوقى ولم ينعكس تحفيزه لمواصلة المسير على حالته المترقبة التى اصر عليها .. مالك ياشـوقى .. لماذا هذا الصمت المطبق .. ليس لأوجاعى ولآلامى أى دخل فى وقفتى المفـاجئة .. تحدث شـوقى منقذا الرفـاق من حالة الدهشة التى ألمت بهم .. وأردف يقول لهم .. تنامى لسمعى صوت نباح كلب قادم من جهة اليسـار باتجاه عمودى على اتجاه سير المجموعة نحو البحر وإذا ماصـدق سمعى فلابد أن هذه الكلاب ترافـق عربانا فى حراستهـم .. ولابد لهؤلاء العـربان من حطيـة يقيمون فيهـا ويضربون عنـدها خيـامهم ويضعون عليهـا رحالهم.. كـانوا قـد درسوا فى الكليـة الحربيـة أن الحطيـة مكـان منبسط فى الصحـراء تتميز بتـوافـر الكـلأ والعشب يرعـون عليه الأغنام ولـديها مصدر مياه يعتمدون عليـه سواء أكان بئرا أم مجرى مـائيا بفعل مياه الأمطار. لكننـا لم نسمع ماسمعت قالها صـلاح وهو يود صـدور تأكيد من شـوقى على ماسيسمع .. لكن

شـوقى لم ينطق ببنت شفه بعـد أن تحولت خلايـاه إلى مهبط الكترونى لتجميع النبرات القـادمـة نعم أنـه يسمـع بـوضـوح.. لم يتبين من قبل قدرتـه السمعية الخارقـة .. ولم يكن يـدرى أن لديـه مهارة خـاصـة فى أذنيه.. أنه كان يتمنى دائما أن يكتشف لديـه أى موهبة أو قدرة خاصة لينميها .. وكـان يردد دائما لو أنـه رزق بطفل لكان أول مـا يبحث عنه مواهبه الخاصة ليصل به للعبقرية إن أمكنه ..

ظل شوقى على ارهافه .. وظلت المجمـوعة تحيطه بمزيد من الصمت والانتظار .. ان حيـاتهم جميعا انتقلت أمانـة فى سمعه وليس يـده .. لو صح ماسمعه شوقى لكتب الله لهم النجـاة فى آخر لحظة.. أنهم لايقوون على تحريك أقدامهم أو حتى استخـدام انظارهم ، تحجرت عيـونهم بعد أن شلت قـدرتهم على الحركـة وخـارت قواهم تمامـا.. وبهدوء شـديـد خرجت نبرات شـــوقى حاسمة بعد أن تحولـت القيادة تماما له بـالرغم من عجزه .. فلنتحـول باتجاهنـا إلى ناحيـة اليسار .. ولنسرع خطـواتنا قليلا ..

وقبل أن يبـدأوا فى السير سجد شـوقى على الأرض فخالـه الرفـاق يسجد لله شكرا لكنه لصق أذنه على حبات الـرمال وهو يرهف سمعه .. كـان يطبق النظـرية التى تعلمهـا فى المدرســة الاعداديـة التى تقـول إن النبرات الصوتيـة تنتقل فى الأجسام الصلبـة بأسرع مما تنتقل فى الهواء والتى كـانوا يستـدلون عليهـا بالشوكـة الصوتيـة وكأس الميـاه .. قام شوقى من جلسته ليـؤكد تعليماته أن صوت نبـاح الكلاب يأتى من هذا الاتجاه ولم يعد أمـامنا سوى أن نسرع الخطـى إليه. لم ينتظره الـرفاق لاكمال حـديثه بل سـارعوا بخـاصية حب البقـاء فى الاتجاه الذى حـدد تقدمهم صــلاح ومعه أمير ورستم وبقية الرجـال وجاء فى المؤخرة همام الذى كان الارهـاق قد سيطر عليه تماما وأفقـده كل قدرة على الحركة .. ثق أن الله معنـا .. ولن يغفل عنا .. ثق أنـه منقذنـا وأنه مدركنـا قبل أن نتعرض للهـلاك .. لايمكن أن ينسى الله نفرا من خيرة شبابـه ويوردهم

مورد الهلاك جوعا وعطشــا .. لم نخطىء فى حقه ولم نهمل عن واجباته وركزنا فى عبـادته وطاعته ثق يـاهمام أنه راعينا وأنه منقـذنا .. ما عليك إلا أن تتماسك فى هذه اللحظـات القليلة التى تسبق هبـوط العنايـة بنا، قالها شوقى وأخذ بيد همام الذى طالما سانده من قبل.. انحرف الجميع يسارا .. ودبت فيهم القـوة .. أوصالهم ثابتة .. وأقدامهـم تعدو فى ثبات وقـوة .. قلوبهم تهفـو إلى الأمل .. من يعرف .. ربما وانتهم المعجـزة فى صـــوت نبـاح كلب .. هـــذه قـدرة الله يمنحهـــا من يشـاء من عبـــاده ومخلـوقـاته.. ورغـم أن أحدا منهم لم يكن يتصـور شـوقى حين كـان يبلغهم بهواجســه إلا أنه يهزىء فكيف لهذه المنطقـة التى لـوترك فيهـا الجمل لمات عطشا أن توجد بها مظاهر حياة؟..

غير أنهم تحركوا فى الاتجاه الذى حدده على أمل حدوث المعجزة وفى انتظـار فـرج الله .. وكلما اقترب الـرجـال من مكـان الحطيـة .. ميـزت أسماعهم نبرات النباح بـوضوح نعم أنه نباح كلاب .. وكيـف يكون هذا فى منطقـة جرداء لازرع فيهـا ولا نماء.. أنتدخـل فى قدرة الله . قـالوهـا جميعـا بـداخلهم وكأنهم يبعـدون هـــواجسهم المضـادة .. لقـد وقعت المعجزة التى لاتعرف المقاييس والمعـايير المنطقية فلتذهب هذه المنطقيات إلى الجحيم .. ومايعرفونه الآن أنهم على مشـارف منطقة آهلة بالأعراب.. أنهم على بعد خطوات من الماء .. من الزاد والزواد .. أخذ كل منهم يمنى نفسه بجرعة وفيرة من المياه ..

كان الماء مطلبهم الأساسى .. لم يذهب أحد منهم فى طموحه المحدود إلى أبعـــد من ذلك .. ان الميـاه هـى أقصى مـايطلبـــه الظمآن انها تمثل بالنسبـة له الحياة بأسرهـا .. اختلج صياح الجنود بنبـاح الكلاب وراح البعض يتلذذ بتأكيد المعجـزة عن طريق تقليد أصوات انبـاح ليأتيه الرد من الحيـوان الأليف مـن الجانب الآخـر .. تبـادل الطـرفـــان النبـاح .. وانفجروا جميعا فى حالة من الابتهـاج لم يشعروا معها إلا بأنفسهم وقد غـابـوا عن الـوعى .. تـداخلت الأسـباب .. فـرح .. سعـادة.. ذهـول ..

ارهـاق.. ظمأ.. غبطة.. ألم .. عدم تصـديق .. رغبة .. اشتياق المهم انهم قـاب قوســين أو أدنى مــن الحيـاة .. نعم مـا أغلى الحيـاة .. وما أشـد الفناء.

أفـاق الـرفاق من غيبـوبتهم اللحظيـة على مشهـد عاطفى مـؤثـر .. الأعراب على مشـارف الحطية خرجـوا فى استقبالهم وبيدهم «الـزنابيل» كل اعـرابى يحمل بيديـه زنبيلين تتسـاقط منهما قطرات الميـاه العذبـة السلسبيل .. يـا الله .. مـاذا يـرون .. ميـاه .. أنـه كثير كثير التفتـوا إلى بعضـهم وقبل أن يسلمـوا على مضيفيهم أو حتى يهجموا على آنيـة المياه أخـذوا يتعانقـون ويتبادلـون الأحضـان والقبلات تعبيرا عن ابتهـاجهم بالنجـاة بعد أن اشرفوا على الهلاك .. الأذرع واهنـة والصدور والـوجوه شاحبة .. ومع ذلك فـالأحضـان دافئة والقبلات حـارة.. شد الأعراب على أيدى الـرجال ونـاولوهم الميـاه ، احتضـنها الـرفاق وكأنهم لايصـدقون أنفسـهم استقبلتهـا قلوبهم قبل أن ترتـوى بها شفاههم.. أخـذ كل منهم رشفـة من زنبيله.. ثم يستريح ليعـود من جديـد يشرب ويشرب انهم لن يكتفوا بـالشراب أنهم يودون الشبع.. الارتواء.. الامتـلاء.. أنهم يحسون بمشاعـر لايمكن أن يصفها قلم . أو تصـورها آلة أو تسجلهـا لحظة .. العمر كلـه يكمن فى هذه القطـرات من الميـاه .. العمر كله كـاد أن يفنى لفقدها ..العمر كله عاد مع ظهورها .. لم يستمع أحد من الرفاق لكلمات الترحيب التى أمطـرهـا الأعـراب على مسـامعهم .. أبطـال .. رجـال .. أشـداء .. أنهم غير ذلـك هم الآن يكفيهم أنهم ممسكـون بـأيـديهم سر الحياة .. أغلى ما فيها .. أنـه الماء .. وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿وجعلنا من الماء كل شىء حـى﴾ إنها الحيـاة بعينهـا .. أغلى مـن الحيـاة .. ان الحياة بدون مياه فناء .. هباء . غثاء.

استقبلهم الأعراب بترحـاب شديد وكأنهم غـزاة فاتحون .. بل لعلهم ظنوا أنفسـهم دعـاة مبشرين من فرط ترحيب الرجـال بهم .. هذا الشيخ

عيد زعيـم قبيلة العبايـدة .. والشيخ سلمان الرجل الثـانى أو قل نـائبه وذلك الشيخ عــايـد ومعـه الشيخ عبـــدالله وكـان لابـد مـن تعـريفهم لأنفسهم.. وتـولى شوقى مهمتـه التى كـان قد اضطلع بها منـذ بدايـة تشكيل المجموعـة اننا يـاالخوان النخبة التـى كتب الله لها النجاة من بين مايزيد عن خمسمائة فرد هم أعضاء الكتيبة ٣٤٢ ..

لم يكن لنا إرادة فى حياتنا أو بقـائنا لكن الله أراد ذلك . فهذه رحمته وسعت كل شيء.. وهذه مشيئته ليس لنا حيالها خيار .. هذا هو النقيب صلاح أكبرنا سنا وأقدمنا رتبة ..

شد الشيخ عيد على يد صلاح وكأنــه نجله وضمه إلى صدره وقال .. مـاعليكم أيها الـرفـاق انكم وسـط أهليكم.. ونحن نقـدر الأهـوال التى لقيتموها ونعـرف الأخطار التى صادفتموها.. أكمل شـوقى مهمته وهذا هـو الضابط همام أمـا أنا فثـالث المجموعـة وبعدى الأخ رستم.. فـالأخ أمير. ومعنا الـرقيب عبدالخالق والعريف والجنود فـلان وفلان لم يحفل العربـان بتكملة التعارف وراحـوا يتجاذبون أطـراف الحديث مع صلاح كـانـوا متلهفين لسماع القصـة كـانـوا ينشـدون عقـد المقـارنـات بين مايسمعونــه خلال اذاعتنا الغراء!! وبين مايـرونه بعيونهم.. لم نكن أول من استضــافـوهم من الـرجال .. ولعلنـا لن نكـون الآخـرين ومع ذلك كانـوا كرامـا لأبعد الحدود لم تكن الميـاه الوفيرة التى تمثلـت الحياة فى قطـراتها والتى أعادت لنـا الأمل فى البقـاء وبعثت فى نفوسنـا الرجـاء فى الاستمرار هى أقصى ماقدموه الأعراب.. بـل قدموا إليهم نوعا من الخبز الشمسى المصنوع على عجل .. كان أشهى من الثـريد وألذ من الفطائر. التهمـوه بنهم وتنـاولـوه بشهية وكأنهم يأكلـون أفضل مــاقـدم لهم فى حياتهم فـلأول مرة منذ ثلاثـة أيام يشعرون بارتـواء ويحسون الشبع الذى ظل شبح قدرته يطاردهم بلارحمة.

امتدت الجلسـة ساعات طـويلة .. منـذ أن فرغوا من صــلاة العشاء

جماعـة وحتى مطلع الفجـر تجاذب الـرجـال أطـراف الحديث .. وكـان صلاح المتحدث باسم الجماعة حكى لهم باقتضاب كيف واجهت الكتيبة هجمات اليهود الشرسة من الخلف بعـد أن تم تطويقها ومحاصرتها ليلة كاملة .. وكيف أن الرجال واجهوا النيران والمدرعات اليهودية بصدورهم وكيف وكيف وكيف..

استمع الأعـراب لحديث صـــلاح وكأن على رؤوسهم الطير.. وعتمـة الانسحاب السريع الذى طمس كل معـالم الشجاعة والبلاء الحسن.. كل ماشاهدوه فلول عائدة يائسة بائسة لم تبد مقاومة تذكر ولم تشارك فى معارك متكـافئة كـانت أم غير ذلك.. كان لكـلام صلاح الأثـر الفعال فى نفوس الأعـراب.. زادوا من حفاوتهم .. غمـروهم بمزيـد من القهوة غير المحلاة والشاى الثقيل الأسود بل ذهب أحدهم وهو الشيخ سلمان نائب شيخ القبيلة إلى دعـوتهم للاستمـرار بينهم عدة أيـام ريثما يستعيدون تماسكهم ..

اعتذر صـــلاح بأدب شديد عن عـدم تلبية دعوتهم الكـريمة .. وطلب منهم أن يمدوه فقط بمعلـومات وفيرة عن طبيعـة الطريق وأمـاكن المياه وبعض المدن القـادمـة من مكاننـا .. بل لعلنـا لم نكن نعـرف حتى تلك اللحظة أين نحن ومن هم بخلاف الأسماء والألقـاب التى ذكروها والتى ناديناهم بها خلال الجلسة.

وتحدث الشيخ عيد وأرهف الجميع سمعهم لكلماته كان مهيبا عميق الصوت واضح النبرات : أنتم فى قبيلـة العبايدة كبرى القبـائل فى منطقة بير العبد التى تبعد عن القنطرة زهاء مائة كيلو وفى منتصف المسافة بين العريش والقناة .. وتمتـد قبيلتنا لتشغل عدة مساحات شـاسعة فى هذه المنطقة .. ونستطيع أن نعينكم على السير خـلال هذه الدروب بما لـدينا من خبرات فضلا عن توصية رجالنـا لإمدادكم ببعض المياه والأطعمة ان شئتم .. فأنتم أبنـاؤنـا .. ودماؤكم تجرى فى عـروقنـا بعد أن امتـزجت بحبات الـرمال ورويتم بها الفيـافى والقفار فى محاولتكم الحثيثـة لصد

العـدو الباغـى وحرمـانـه من السيطرة على المنطقـة كما فعل فى حـرب السادس والخمسين نحن نعرفهم .. سبق أن تعاملنـا معهم .. لقد أذلونا وحطموا كرامتنا واستباحوا حرماتنا ..

ولعلنـا نعد عـدتنـا الآن فى كيفيـة التعامل معهم .. وخـاصـة ونـحن نتـوقع أن تطـول اقـامتهـم هـذه المرة بيننـا بخـلاف المرة الأولى .. كل المؤشرات تـؤكـد ذلك .. جحـافلهم الجرارة.. واستعـداداتهم الكبيرة وأعدادهم الغفيرة .. وليس لنا إلا الصبر على البـلاء .. والاحتساب لله هو مولانا وحامينا .. اعتدل همام فى جلسته .. مـايهمنا ياشيخنا العزيز هو تـوضيح معالم الطـريق.. أماكـن الوقفـات .. أسلوب الامـداد بالميـاه .. طريقة التعـامل مع العربان .. لقد عـانينا كثيرا اقتربنا كما لم نقترب من قبل من شبح الموت.. ظل يخيم على أرواحنـا كما لم يخيم عليها يـوم أن واجهنـا نيران اليهود.. ان العطش والجوع أشـد ألماً وفتكـاً من النيران .. قـاومناهـا بـالاحتماء بـالخنادق والاعتماد على نيراننـا المضـادة .. لكن الجوع لاسبيل لمقاومته أما العطش فهو قاتل ..

قـاتل الله العطـش .. والتفت همام إلى الجنـدى إسماعيل وقـال لـه لاتنس أن تشطف الـزمزميـة حتى لايتبقى فيها أى آثـار للجريمـة التى ارتكبناهـا فى حقها وحق أنفسنـا طهرهـا من رائحة البـول الكريهه التى سيطرت على فتحتها.

لاعليكم يـارجـال جـاءت كلمات الشيخ عيد جليـة تـزيل كل معـالم الغموض الذى اكتنف الرفاق. لكم من الـدليلتين هاديا ومرشدا .. وأشـار بأصبعه السبـابة إلى نجمتين متلألتين بخلاف ماجـاورهما من نجوم .. لو أنكم جعلتمـوها على «صـدغكم» الأيمن .. لأتبعتم اتجاه الشمال وهو الاتجاه الذى انصحكم بـاتباعه ان اردتـم التوجه إلى القنطـرة ومنها إلى الاسماعيلية .. وأكمل الشيخ عيـد محاضرته العفـوية عن الملاحـة البرية وقال لاتغـامروا بالاقتراب من الطريق المرصـوف فرجالنا يـؤكدون أنـهم يقطعـونه بـدورياتهم التى لاتتـوقف ليلا.. ويسيرون عليهـا نهارا دون

انقطاع كما اننى أنصحكم بالتوقف خلال فترات القيظ.. عليكم مواصلة السير ليلا فقط حتى لاتتعرضوا لفقد مخزون مياه أجسادكم عرقا.. أما ساعات الظهيرة فما عليكم إلا أن تمضوها بجوار أحد الأبيار وقريبا من الحطيات التى تصادفكم فى الطريق وهى كثيرة أنكم ستتوجهون بعد ذلك إلى مدينة نجيلة وهى على بعد عشرات الكيلومترات من بير العبد.. وقبلها توجد أبيار كثيرة ونخيل وأماكن منبسطة حولها.. وتستطيعون بمال زهيد الحصول على كل حاجتكم من ماء وأطعمة وتبغ دعونى أنصحكم بحسن المعاملة حتى مع مواجهة احتمال عدم التعاون معكم فليس كل العربان كرجالنا لقد أنسنا منكم ودا.. وتجاوبنا معكم لقسوة ماشاهدناه على وجوهكم من أثار الجوع الشديد والعطش القاتل.. لكنكم لن تجدوا دائما هذا الترحيب وهذه الحفاوة ولهم بعض الحق وعليكم إزالة الرهبة من نفوسهم أو حتى تفادى التعامل مع من لايبدون استعدادا طيبا لمعاونتكم.

كان لابد من تعقيب صلاح على محاضرة الشيخ عيد.. أبدى امتنان الرفاق بكلمات قليلة لكنها عميقة المعنى بالغة التأثير.. كان صلاح صعيديا عاطفيا برغم ملامحه القاهرية شكرهم على حسن الضيافة ووفرة المعلومات وطلب منهم أن يتقبلوا هدية المجموعة المتمثلة فى إحدى بنادق رجالها.. كان الجندى حسان قد أبدى ضيقه باستمرار حمل البندقية على كتفه ورغبته فى التخلص من ثقلها.. وأمره صلاح بالتذرع بالصبر وتحمل المشقة ووجدها فرصة.. التخفيف عن كاهل حسان.. وتقديم مايقابل ويوازى خدمات وكرم قبيلة العبايدة ولقد أعرب الشيخ عيد زعيم القبيلة عن امتنانه وسعادته الغامرة بهذه الهدية الثمينة وأمر بعض الرجال بإعداد مزيد من الفطائر والخبز ليتحصن بها الرفاق خلال رحلتهم التى لن يعرفوا مدتها ولن يتوقعوا مصيرهم فيها.

استسلم الرفاق لسويعات من النوم قبل أن يستأنفوا رحلتهم فى اتجاه بلدة نجيلة كما أبلغهم الشيخ عيد. ثم تناولوا بعض الخبز

والفطائر فى وجبة رئيسية جـاء وقتها بعد آذان العصر ومع أفول شمس الغروب حانت لحظة الوداع.. شد رجـال المجموعة على أيدى أعراب قبيلة العبـايدة وعـانقـوهم وقبلوهـم بحرارة.. وبـدأوا رحلتهم مستلهمين من الـدليلتين هاديـا لهم، تقـدمهم همام كما كان قبـل أن تصادفهم التيـه. وتبعـه بقيـة رجـال المجمـوعة.. كـان شـوقى أكثـر استعـدادا للسير.. وتخلص من رفقـة أمير ورستم بعـــد أن أبـدى شكـره على معـاونتهما الصادقة واحساسه بقـدرته على السير بعد أن تصادق مع الألم .. وعقد معه اتفاقية هدنة مؤقتة.

حب .. وحرب ١١

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧





الخالة جازية

التزم الرفاق بخط السير الذى حدده همام بواسطة بوصلته المتهالكة والتى يرجع تاريخ صنعها إلى الخمسينات كانت معظم معداتهم من الكتلة الشرقية وهى معدات خالية من الحداثة بعيدة عن الأشكال الجمالية لكنها فعالة وتؤدى الغرض المصنوعة من أجله وهكذا الفرق بين المعدات الشرقية والغربية وأوربا والأمريكان يهتمون بالناحية الجمالية بالاضافة إلى الفاعلية والانتاج الجيد أما الروس فليس من بين اهتماماتهم راحة الانسان المستخدم للمعدة ولاحالته النفسية لحظة استخدامه لها ..

لم ينس شوقى عندما كان طالبا بالكلية الحربية وذهب مع رفاقه فى رحلة لمشاهدة بعض الغواصات الجديدة التى دخلت الخدمة حديثا بقواتنا البحرية.. تحدث القبطان عن امكانياتها النيرانية وقدرتها على الدفاع ضد قذائف الأعماق والطائرات وأخذ يعدد مميزاتها ومحاسنها لكنه خفض رأسه خجلا عندما سأله أحد الطلبة عن سبب ضيق مساحة دورة المياه الخاصة بطاقم الغواصة.

كان خط سير المجموعة موازيا تماما للطريق الشمالى الذى يربط العريش بالقنطرة لكنه يبعد عنه عدة كيلومترات داخل الصحراء لتفادى المواجهة مع اليهود لم يكن اتجاه البوصلة هو المرشد الوحيد لهم.. بل

كانت الدليلتان الساطعتان اللتان نصح بهما الشيخ عيد زعيم قبيلة العبايدة وأمرهم بوضعها فى مقابل «الصدغ» الأيمن هما المرشد الأول لخط سير المجموعة.. ظلمة الليل منعت همام من الرجوع غالبا لبوصلته.. وهى بدورها غير مجهزة للعمل ليلا.. ومع تعاظم أهمية الدليلتين فى تحديد خط سير المجموعة تعاظم احساس الرفاق بنصائح الشيخ عيد.. كم جاءت كلماته بليغة وحكيمة.. كم شعروا بأن نصائحه دسمة وتوجيهاته تعود لخبرة وحنكة عشرات السنين ومئات التجارب.. إنهم يتخذون منها دستورا ينهجون هديه ويتمسكون بتعليماته لايحيدون عنها ولايتمردون عليها ، إن السير فى الصحراء خلال النهار عملية بالغة المشقة والصعوبة.. فما بالك وأنت تهيم على وجهك فيها ليلا.. تتعرف بشق الأنفس على مواطىء قدمك.. تختفى أمامك المرئيات.. وتتوحد المشاهد.. وتتساوى الهيئات .. انها الظلمة الحالكة التى تعطل البصر وتفقد الأنظار مكانها وتحيل الحاسة الهامة التى وهبها الله للانسان كى يميز طريقه ويتبين هدفه إلى عتمة كاملة.

لم يدر الرجال كم من المسافة قطعوا وكم من الخطوات ساروا.. فهم لايتحركون على دروب أو يسيرون على مدقات لكنهم يتحركون قاطعين التباب من سفوحها إلى قمتها وبعد أن يتنفسوا الصعداء على القمة للحظات يعودون أدراجهم لنزولها فى طريقهم الوعر نحو اللاهدف.

ينشدون الوصول إلى بلدة نجيلة التى أخبرهم الشيخ عيد أنها فى طريق سيرهم لم يسمعوا من قبل عن مدن نجيلة وبالوظة.. ربما سمعوا عن العريش لأنها ميناء حيوى.. كما سمعوا عن القنطرة.. وبعضهم فقط هو الذى يعرف مدينة رمانة.. لكن بير العبد وبالوظة ونجيلة لم تكن على خريطتهم ومادام الشيخ عيد قد حدثهم عنها.. فلابد لهم من الوصول إليها.. كلام الشيخ عيد لايرد.. فكل ماقاله لهم من واقع خبرته الطويلة ودرايته العميقة بدروب الصحراء ورمالها ووهادها وحتى مناطق الغرز فيها جاء صحيحا.

لم تتوقف المجموعة عن مواصلة السير طوال الليل.. ليس لهم سبيل سوى أن يجدوا فى سيرهم لقطع المسافة والوصول بأسرع مايمكن إلى القنطرة لينضموا إلى قواتهم غرب القناة.. ترى متى يصلون إليها الأمل معقود على ذلك.. لكن الآمال ليست كفيلة بتحقيق الغايات وليس أسلوبا للوصول إلى الأهداف.. هل يقدرون على مواصلة السير فى هذه المسافة الطويلة؟ وإذا استطاعوا ترى هل يقدرون على مجابهة أخطار الصحراء ومايتعرضون له من ظمأ وجوع ومقابلة الضوارى والحيوانات المفترسة؟ يا الله كل هذا بخلاف اليهود..

لو أن دورية يهودية حاول قائدها التعرف على مسرح سيناء ودخل بعربته ولوحتى على سبيل التريض داخل الصحراء لامسكهم كما الجرذان.. نعم سيطلقون على الدورية بعض الأعيرة النارية من بنادقهم ورشاشاتهم.. لكن هيهات لهذه النيران الضعيفة أن تقاوم رشاشاتهم الحديثة سريعة الطلقات.. أفاق الرجال من شرودهم ومن تبادل الأحاديث الجانبية التى كانت وسيلتهم لقطع الملل والرتابة ومواجهة الارهاق الذى أحال أقدامهم إلى كتل خرسانية يصعب عليهم رفعها ثم وضعها من جديد.. آه شقشقة الصبح وانبلاج الفجر مثل لهم نذيرا بالتوقف أو على الأقل أول حطية تصادفهم.. أنهم سيحطون رحالهم بجوارها يستريحون ويرتوون من مائها.. ويتمتعون بظلها.. ويحاولون عقد صفقات غذائية ليقيموا بها أودهم

وإذا لم يتيسر لهم ذلك فليس أقل من الحصول على جمار النخل.. ذلك النسيج الرخو الذى ينتهى إليه ساق النخلة من أعلى.. نعم إنه لايفيد فى بناء الجسم ولايعود عليه بأى نفع من ناحية الفيتامينات لكنه على الأقل يشعرهم بالشبع ويحول بينهم وبين احساسهم المؤلم بالجوع فضلا على مايحتويه هذا النسيج الرخو بين طياته من مياه تساعدهم على الارتواء ولاتعرضهم للظمأ.. أين لهم الحصول على الخيار.. ان الخيار أفضل الأطعمة لمسافر الصحراء.. أنه أكثرها اكتنازا للمياه..

واضفاء حالة من الارتواء لآكليه.."لكن الخيار ثمرة لايعرفها العربان.. ولاينمو فى الأرض الصحراوية مالهم يحلمون بالعزيز من الثمار كالجوعان يحلم بسوق الخبز.

لم تصادفهم حطية يحطون فيها رحالهم وحتى العاشرة صباحا ظلوا يترقبونها منذ طلوع فجر ليلتهم الأولى بعد رحيلهم من بير العبد وحتى أحمر قرص الشمس ولفحت أشعته أقفيتهم وأسالت العرق من ابدانهم.. تخوفوا قليلا من تأخر لقائهم بالحطية.. خشوا أن يواجهوا من جديد شبح الموت عطشا بالرغم من تسلحهم ببعض مخزون المياه.. لم ينسوا أن يملأوا الزمازم تماما قبل مغادرتهم لقبيلة العبايدة وأمرهم صلاح بعدم استخدامها مهما كانت حاجتهم للمياه ورغم فقدهم لبعض العرق مع طلوع الشمس.. إلا أن مقاومتهم وخبرتهم التى اكتسبوها من المواجهة الأولى مع الظمأ مكنتهم من عدم اللجوء إلى الزمازم.. وأخيرا ظهرت الحطية المنشودة.. نخلاتها الباسقات خير هاد إليها ودليل على ظلالها الوارفة وخضرتها السندسية الغامقة وسط بحر الرمال الصفر بعث الأمل فى نفوسهم .. وأعادت الطمأنينة إلى صدورهم كانت تعليمات صلاح تقضى بالمحافظة على مسافة مناسبة بينهم وبين العربان يكفينا من الحطية مساحة ظليلة من طرفها القصى.. دون أن يكون لوجودنا أى خطر على العربان يثير تحفظ رجالهم.. أو حفيظة نسائهم.. لسنا بمستطعين مواجهة أى مشاكل.. بل لعلنا فى حاجة لتوفير كل جهد والاستفادة من كل مايصادفنا.. ان التعاون بيندا وبين من سنلاقيه فى طريقنا لابد أن يكون كاملا.

كان على شوقى أن يبدأ اتصالاته فى محاولة لتوفير إحدى الوجبات الدسمة لرجال المجموعة تعينهم على المجهود المطلوب بذله خلال السير.. حلا لرستم أن يرافقه فى تجواله حول جوانب الحطية بحثا عن الغذاء.

إن لحاهم التى أطلقوها وشعورهم التى أرسلوها وأثمالهم التى غطتها البقع لايمكن أن تدل على نوعيتهم أقتربت هيأتهم كثيرا من هيئة

الجهد الذى بذلـوه لم يكن من الصعب على المتفرس فى محياهم أن يفرق بين الجنـدى والضابط.. إن كعـوب الضبـاط لم ينل منها الحفى الـذى فرضه صلاح عليهم بعد أن أمرهم بالتخلص من أحذيتهم.. بدت بيضاء من غير سوء.. لاتشققـات فى الجلد ولاخشونـة بل تبدو والـدماء تجرى فيها وبين ثنـاياها.. أمـا كعوب الجنـود فقد بدا عليهـا القشف وتخللتها التشققات.. وهو الأمـر الذى دعا شوقى لعـدم تبديل ثيابه الـداخلية مع رفاقه من الجنود.. فالتشبه بهم أمر متعذر!!! والتفرقة بينهم أمر يسهل على أى متفحص أن يتبينه.

التقى الـرجـلان بأعرابيـة على مشـارف الحطية تسـوق بعضـا من الغنمات.. كان محياهـا يقطع بطيبتها وملامحها تـدل على وداعتها كانت متوسطـة العمر غير لافتـة الجمال لاتبدى من وجههـا أكثر مـن عينيها بادرتهم بالحديث قـائلة شدوا حيلكم أيها الرجـال.. لاتمكنوا اليأس من أن يتسرب إلى نفـوسكم انه اختبـار صعب سبق أن مررنـا به فى حـرب ستة وخمسين.

تـابعنـا رجـال الجيش وهم يتجـاوزونـه قهـروا اليأس داخلهم فساعـدهم الله على النجاه وساندهـم إلى الوصول إلى مرفئـه اننا معكم.. قلوبنا تدعو لكم.. وأرواحنا تساندكم والله يرعاكم.

أنس شـوقى منها ودا فسألها مـاسمك ياأختـاه فى محاولة للتقـرب إليهـا وتحفيـز طـاقتها على التعـاون معهم.. قـد تتمكن المجمـوعـة من الحصول على مساعدتها فى اعداد وجبـة شهية لهم.. بل قل ياأماه.. اننى فى سن والدتك.. إن لم أكن تعديت عمرها.

رد شوقى بلهجـة متحفظة حتى لايثير خشيتها لسنـا بصغار فنحن على مشارف الثلاثين ومأحسبك قد تخطيت العقد الرابع.

لم ترد أن تترك كلماته تعبر مسامعها دون فهم. فاستفسرت منه عن معنى كلمـة العقد وأفهمتـه أنها تقدر مجاملته تمتـن لذوقيـاته العـالية بالـرغم من احساسها العميق بأمـومتها لهم ولوعلى الأقل تعاطفـا منها للظروف الصعبة التى يواجهونها.

للظروف الصعبة التى يواجهونها.

ما عليك ياأماه العقد فترة زمنية لاتتعدى العشر سنوات.. وماقصدت باستخدام تلك الكلمة إلا أن أؤكد لك عدم تجاوزك لسن الأربعين.. أى أن مابيننا من عمر لايسمح لك بأمومتنا وان زاد فلعلك تتبوأين مكانة الشقيقة الكبرى.. ولم يستطع شوقى أن يمنع زفرات ساخنة انسابت على خديه عندما تذكر تلك اللحظة طالما أحب شقيقتيه.. طالما تربى على أيديهما.. طالما كانتا بالنسبة له الأم والأخت والصديقة والحبيبة.. كان يتمنى أن يعوضهما عما قدمتا من تضحيات حتى أوصلاه إلى المكانة التى هو عليها.. الفضل كل الفضل يرجع إليهما بعد والدته التى من الله عليه بالاطمئنان على عدم فقدها.. لكن عليه الآن أن يفاضل بينهما.. أيهما فقد الكبرى التى تشبهه تماما .. أم الثانية التى كان يجمعه بها الود والحب والتعاطف بعد أن أفتقدا الملامح المتشابهة.. أنه لايستطيع المفاضلة . أنه لايستغنى عن كلتيهما أنه يفضل أن يضحى بنفسه فى سبيل بقائهما.. لكن هيهات له التضحية فالسرادق الضخم والأعداد الكبيرة التى اكتظ بها من المعزين تقطع بفقده إحداهما الكبرى أم الأخرى إن السؤال يلح عيه ولايجد له اجابة.. ترى لو انه اقتحم السرادق لأراح نفسه وهدأ باله وكبح جماح شروده أنه يستطيع أن يقف على الاجابة المحددة لوتقدم وقطع الخطوات القليلة التى تفصله عن السرادق . عاد من جديد يتحسس جروحه ويتفحص هيئته ويرفض نظرات الاشفاق والعطف التى سيحظى بها من المعزين.

أنصتت الاعرابية باهتمام لكلمات شوقى وهو يشرح معنى العقد ثم مالبثت أن حدثته قائلة: إننى إذن تخطيت العقد الخامس وأدنو من السادس.. لكننا معشر العربان لانحمل للدنيا هما.. نهيم على وجهنا فيها ونعتمد فى سعينا على أقدارنا.. ونترك الباقى على الله إنه رازقنا ومولانا..

وبعد أن شعرت بالألفة والمودة التى انسابت بين ثلاثتهم قالت أنا إسمى «جازية» ويمكن لكم أن تنادينى خالتى «جازية» هكذا نحل المشكلة حتى لايكون بيننا خلاف.

انتقل الود الذى شعرت به خالتى جازية إلى قلب الرجلين ولم يرد شوقى أن يترك الفرصة دون استغلالها لمصلحة المجموعة.. فطلب منها أن تساعده فى اعداد وجبة شهية من يديها المباركتين وأبدى استعداده الكامل فى دفع التكاليف سواء عن الخامات المستخدمة أو المصنعية والجهد المبذول.. وتصاعدت طمأنينته بما شاهده على ملامحها من موافقة وبالغ فى توضيح مطلبه.. نود طبقا من الثريد يكفى عشرة أفراد وبعضا من الدجاجات على أن تحاولى توفير «المرقة» معها كنوع من أنواع الارتواء.

صدمته اجابتها.. أما الدجاجات فيمكن توفيرها بحسائها دون عناء وستلهث ألسنتكم بالدعاء لخالتكم جازية لطعمها اللذيذ ونكهتها البديعة.. لكن توفير الثريد أمر متعذر أو مستحيل.. لم يتوقف شوقى عن محاولة اقناعها وقد تصور انها تناور لمضاعفة المقابل.. إننى سأجزل لك العطاء.. سأعوضك عن كل رغيف تستخدمينه فى الثريد قبل أن أدفع لك ثمنا للدجاجات المطهية.. وسندخل فى الحساب حبات الأرز وان شئت التوابل بل والمياه المستخدمة فى الحساء.

لم تتأثر الخالة جازية بكلمات شوقى واردفت قائلة أيها النجل العزيز.. إننى سأبيع كل شىء ولن أخجل من ذلك أنها خاصية حب البقاء.. وكم تعلمنا من تجاربنا السابقة فى حرب ستة وخمسين أن اليهود قوم لايعرفون الله ولايرعون ضمائرهم فى التعامل معنا بل لعل ضمائرهم فى اجازة طويلة بعيدة عن أجسادهم.. ولولا لطف الله ولولا الانذار الأمريكى الذى عجل بانسحابهم من أرضنا العزيزة لادركنا الهلاك لامحالة فى حربنا الماضية ومع ذلك فلا عليك سأطهى لك الدجاجات وسأقدمها لكم جيدة النضج دون أن أكلفكم أكثر من ستين قرشا للدجاجة الواحدة مع بعض الحساء يكفى لكم جميعا.. ولكى تفهم موقفى فأنا أوفر الدجاجات التى أستطيع استعواضها بعد ذلك.

الدجاجات الباقية تبيض والبيض بشىء من العناية يفقس كتاكيت ومع رعاية الكتاكيت تنقلب بعد فترة دجاجات كاملة النمو.. أما الخبز

تعلمنا من تجربة ستة وخمسين أن اليهود يسيطرون علينا.. ويتحكمون فى اخلاصنا وعدم مقاومتنا لاحتلالهم عن طريق التحكم فى مرتباتنا من الدقيق وغيره من أنواع الأغذية التى يتعذر الحصول عليها.

جاءت كلماتها حاسمة ولم تترك له أى خيار ولم يبق أمامه أن يحاول من جديد بعد أن عرض عليها جنيها كاملا ثمنا للرغيف الواحد أى مايزيد أربعين قرشا عن ثمن الدجاجة المطهية لكنها لم تلن ولم تتأثر واكتفت بصنع ماوعدت من دجاجات مطهية.

وحمد هو الله على انجاز الاتفاق وأسرع يبلغ الرفاق ويمنيهم بقرب تناولهم لوجبة شهية دسمة.

شعر الرجال بالأمتلاء بعد أن تم تقسيم الدجاجات فيما بينهم حتى البصل الذى اضافته خالتهم جازية للحساء تم اقتسامه كان للدجاج المسلوق طعم لذيذ لم يتذوقوه فى حياتهم كانوا يحرصون من قبل على أن يكون غذاؤهم من الدجاج جيد التحمير لكنهم نسوا هذه الرفاهية غير المتوافرة حاليا . إن خالتهم جازية تستحق كل الشكر على ماقدمت من غذاء جيد النكهة طيب الصنع التهموه بنفس راضية وشهية كاملة كانت تلك الوجبة أمتع وألذ الوجبات فى حياتهم أنهم يشعرون وقد سرت مشاعر الشبع فى أوصالهم وجرت اثاره فى عروقهم بأنهم قادرون على مواصلة المسير لعشرات الأيام القادمة.. بل أنهم أشد اقتناعا من أى وقت مضى بالقول المأثور الذى يقطع بأن الجيوش تمشى على بطونها.

فطالما شعر الانسان بالشبع وأفرغ فى جوفه بعضا من المياه أمده الله بقدرة هائلة على المواجهة واعانه بسيل جارف من المقاومة مقاومة كل شيء وأى شيء الأخطار والأهوال والمشقة والصعاب ان الله لابد منجيهم من هذا الخضم المتلاطم من الصعوبات بعد أن انجاهم من مذبحة اليهود التى أحالت كتيبتهم إلى بركة من الدماء.

تبادل شوقى الحديث مع خالته جازية وهو يحاسبها على ثمن الوجبة.. لكننى لم أتعرف عليك وعلى رتبتك قالتها جازية وهى تقترب أكثر من شوقى وكأنها تود أن تبوح ببعض أسرارها .. انا ضابط

أكثـر من شـوقى وكأنها تـود أن تبوح ببعـض أسرارها .. أنـا ضـابط صغير بـالجيش المصرى.. وضمن قـوة الكتيبـة ٣٤٢ مشـاه لاعليك من اسم الكتيبة لكن يكفيك أن تعلمى أن عـدد شهدائها زادوا عن الأربعمائة شهيد مـابين ضابط وجنـدى.. انهم رجال صنـاديد وقبل أن يستفيض شـوقى فى الحديث عن شهداء الكتيبـة.. بادرتـه جازيـة قائلـة رحم الله شهداءنـا أنهم خيرة رجالنا.. انهم خلاصـة أكبادنا قـاتل الله اليهود كم ثكلـوا من أمهـات ويتموا من أبنـاء ورملـوا زوجـات.. لكن الله منجيكم ومانحكـم المنعة وموفـر لكم الأمـان والسلام إن شاء وحتـى تصلوا إلى أهليكم وذويكم.

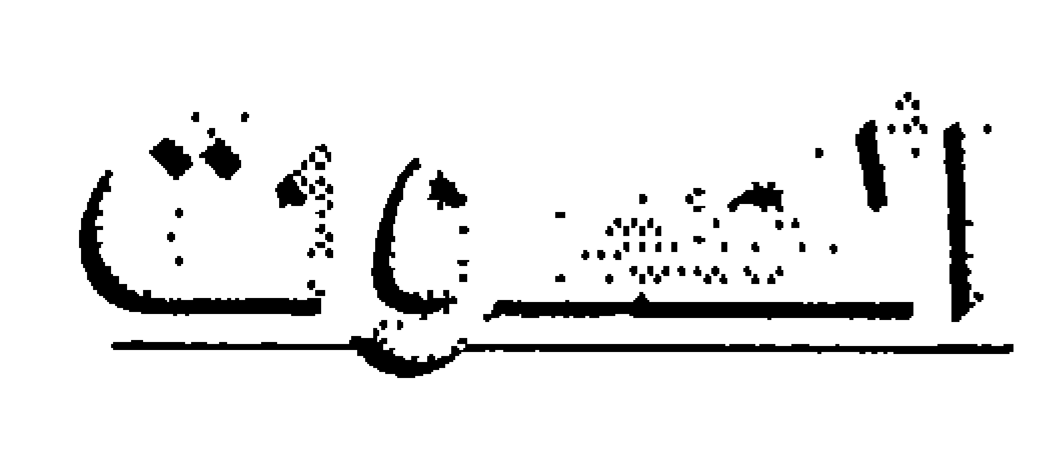
ودعهـا شوقى ورستم وشـدا على يـدها واعتـذرا لها عن التعبير عن خـالص امتنـانهما وشكـرهما على ماقـدمت لهما لأنـه يفـوق تعبيرهما ويعجـز لسانهما عن تصـويـره والتحقا بـالمجمـوعة واستمعـا لكلمات صلاح قبل أن يبدأوا السير ليلتهم الثانية فى طريقهم نحو بلدة نجيلة.

علينا تجـد فى السير ونسرع الخطى بعد أن دبـت فى أوصالنـا القوة وسرت فى عـروقنا آثـار الغـذاء الشهى.. ولنبـدأ على بـركة الله.. وتقـدم صلاح المجموعـة وتبعه الرجال فى صمت لكن بقوة لم يكـونوا عليها من قبل.

حب .. وحرب

٢٢

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧





الصوت الرخيم

الأهوال التى مرت بالرفاق الباقين من الكتيبة الشهيدة خلال الحرب الخاطفة التى لم تدم لسويعات قليلة فى موقعة جبل لبنى الشهيرة لم تقتصر فقط على مواجهة أشباح الجوع والعطش والتيه ونيران اليهود واحتمال الوقوع فى أسرهم وغير ذلك من أمور متوقعة وغير متوقعة.. وانما حملت لهم كل لحظة قادمة وكل خطوة تالية نوعا جديدا من الأخطار ودربا حديثا من دروب الألم والمشقة فى مواجهتهم غير المتكافئة مع مستقبلهم الغامض.

كانت كل حركة تحمل بين ثناياها بعضا من المواجهة تقربهم من مصيرهم المحتوم وتفرض عليهم نوعا من الاختيار المرير بين الأسر أو الاستشهاد ترى هل يلحقون بشهدائهم الأبرار من زملائهم بالكتيبة بنيران اليهود أم سحقا بجنازير دباباتهم لوحدث هذا لفازوا بجنة الخلد مع الابرار والمجاهدين وحصلوا على مراتبهم الرفيعة وثوابهم العظيم لكن الخوف كل الخوف من الوقوع فى أسر اليهود إنها الطامة الكبرى التى طالما حاولوا تفاديها وعدم الوقوع فيها.. إنها الكارثة المحققة التى تعرضهم للمهانة والاذلال طالما سمعوا عن آيات تعذيب اليهود لاسراهم من زملائهم القدامى.. فبخلاف عمليات التجويع والترويع والتعذيب

هناك أمور وصنوف أخرى مبتكرة.. هنـاك الكى بالنار والصعق بالتيار والختم على الأقفية والمؤخرة هنـاك استباحة للكرامة واستهانـة بالآدمية لـدرجـة أن الأسير يفقـد خلال فترة أسره أى رغبـة فى البقـاء ويتنـازل مـرغما عن أى تمسك بالحيـاة.. ان شبح الأسر كـان يخيم على مخيلتهم دائما ولايبارحها يجثم على الذاكرة ويسيطر على الذهن.

لم يهتز الرجـال أمام مشقة الترحال وارهـاق السير وأهوال الغرز فى الرمال وصعـود التباب والهبوط منها والانحـراف عن الاتجاه والتعرض للتيه ومغبة لقاء اليهود.. انها النهايـة بعينيها النهاية التى لامناص منها ولاأمل فى النجـاة إلا بمعجـزة إلهيـة يهبهـا الله لهم مجســدة فى طـريق مختصر غير محفوف بالمخاطر أو ربما تمثلت فى طائرة صديقة تخطفهم بعيدا عـن أعين اليهود أو ... وقبل أن يحلق شـوقى بخيالاته بعيـدا عن أرض الواقع هـروبا من الأشباح التـى تطاردهم لمح غبارا يتصـاعد عن بعد ينبىء عن توغل أحدى مركبات اليهود داخل الصحراء.

كانت المركبة نصـف الجنزير تتحرك ببطء وكأنها تقصـدهم وتوجه إليهم ماسورة الرشاش الرئيسى فى المركبة هرول الجميع بعيدا عن خط السير بـلاهدى داخـل الصحراء اتسعت الخطى وتـلاحقت ، تضـاعفت سرعتهم وهم يأخـذون بتـلابيبهم بحثـا عن النجاة ، أطلقـوا سيقـانهم للريح متخلين عن حـرصهم متمسكين بأهداب الحيـاة ولوحتى لـدقائق معدودة.. تبـا لهذه الرمال الناعمـة التى تقلل من سرعتهم والظمأ القاتل الذى يفقدهم مقاومتهم وقدرتهم على الاستمـرار.. قاتل الله اليهود الذين ليس لهم بعد استراتيجى أو خط فكرى.

لماذا انحرفـوا عن مسارهم الذى اتبعـوه منذ بدايـة مشوارهم.. لماذا تخلـوا عن طـريقهم الـذى اتخذوه دربـا لحمـلاتهم وتحركـاتهم لعلهم يبحثون عنهم.. عما تبقى من فلول الجيش المصرى.. عن بعض ضباطه المتحصنين بالصحـراء المحتمين بالفلاة.. نسى شـوقى آلام ساقـه وهو يعدو كـان فى المقدمـة بالـرغم من وثبـه على ساق واحـدة.. انها حلاوة

الروح غريزة حب البقاء ، الرغبة فى التمسك بالحياة ظلوا يعدون بلا توقف وبلا ابطاء.

لايفتأون فى النظر خلفهم حتى يتأكدوا من الابتعاد عن مرمى نيران الرشاش اللعين الذى يعلو المركبة اليهودية وحتى مع ابتعادهم بمسافة مناسبة عنه لم يتوقفوا.. امعانا فى التوغل داخل الصحراء حتى يكونوا فى أمان وحتى يتأكدوا من النجاة.. إن الحياة غالية ثمينة إذا كان هذا الحادث العارض قد زلزل تماسكهم وهز كيانهم وأفقدهم رباط جأشهم.. فما بالهم بالمواجهة السافرة مع اليهود.. إنهم يعلمون تماما انه لاقبل لهم بهذه المواجهة.. فلاتوجد ندية تذكر فى كل شىء فى العدد والعدة والعتاد فى القدرة والامكانية والظروف المحيطة.. فليبتعدوا إذن بفكرهم عن هذه الأمور التى تلح عليهم حتى لاتثقل على كاهلهم وتسبب فى مضاعفة انهيارهم.

لمح شوقى على باب السرادق مشهدا أزال الغشاوة التى ظل عليها منذ أن قبع فى مكانه بالردهة المظلمة وهو يحلق فى جموع المعزين وهى غادية وقادمة تأكد منها أن الفقيدة هى شقيقته الكبرى.. يالها من خسارة فادحة.. لقد فقد نبع الحنان الثانى بعد أمه فقد توأم روحه وصديقته الأولى فى هذه الحياة رأى اقرباءه جميعا وقد التفوا حول وحيدها الصغير يحاولون أثناءه عن حالة البكاء التى انخرط فيها ويربتون على كتفه محاولين التسرية عنه لما ألم به من حزن عميق.

لم يتعد هذا الصغير العاشرة إنه أكثر المكلومين بفقد هذه السيدة.. من سيتولى تربيته بعدها من سيتحمل مسئولية ايقاظه ثم اعداد افطاره وتجهيز ملابسه وتهيئته للمدرسة قبل أن تأتى السيارة الخاصة بها لنقله إليها مع شقيقته الصغيرة.. وبالرغم من مظاهر التأثر البالغ البادية على ملامح زوجها غير انه لايمكن أن يتحمل وحده مسئولية أطفاله انهما يحتاجان لمن ترعاهما.. ياترى من ستكون زوجة أبيهم القادمة.. من سيقع الاختيار عليها؟ من ستحل محل شقيقته التى طالما

ملأت على الأسرة حياتها وشملت جميع أعضائها بالرعاية والاهتمام. شاركت فى حمل همومهم واسهمت فى حل مشاكلهم وتدخلت بكل امكانياتها لتذليل مايعترضهم من عقاب ، رحمها الله وأسكنها فسيح جناته.. وألهمه هو ونجليها وزوجها الصبر على مصابهم . لم يكن بمقدوره أن يغادر الردهة المظلمة حتى مع تأكده أن الفقيدة شقيقته الكبرى وكان لزاما عليه أن يشارك فى عزائها.. فالجروح التى ملأت ساقيه أقعدته عن الاستمرار حتى فى الوقوف.. والملابس التى يرتديها مازالت تحول بينه وبين اجتياز تلك الأمتار القليلة فى طريقه نحو صدارة السرادق ولم يكن بوسعه إلا العودة إلى شروده وتذكره للأيام السوداء التى مرت عليهم وهم يقطعون الفياف والقفار سيرا على أقدام حافية.. دون مؤن ومياه وغذاء بل ودون غطاء أمنى ومعنوى ومع تعرضهم لأخطار وأهوال عديدة لايمكن حصرها أو مواجهتها تحول نهارهم إلى سبات يأوون فيه إلى أى نخيل يلاقونه يحتمون فى ظله الوارف وهوائه الرطب وجمار نخله الرخو ذى الطعم المستساغ وقائدته الغذائية المحدودة وقدرته الفائقة على احداث نوع من الشبع والامتلاء.

كانت حرارة شمس يونيو الحارقة.. تلفح جباههم بلهيبها لايقدرون على مقاومتها يخرون صرعى تحت نارها لم ينسوا ماأصابهم فى أول أيام سيرهم نحو العريش ولاعندما ارتدوا على أعقابهم بعد أن صدموا بسقوطها ولم يتمكنوا من دخولها . إن شبح الموت عطشا أحال نهارهم إلى سكون وحول ليلهم إلى حركة وسعى ونشاط ساعات الليل كانت تمر سريعة من خلال أحاديثهم المتبادلة التى تسرى عنهم وهم يقطعون المسافة الطويلة التى تفصل بين بير العبد ورمانة ثم القنطرة . كانوا يسيرون متجاورين متلاصقين حتى لايشرد أحدهم ويضل طريقه ويبتعد فى جنح الظلام عن المجموعة.. ظلمة الليل تحيل المساحات الشاسعة إلى عتمة موحشة تتساوى فيها المرئيات.. وينعدم من خلالها التمييز.. لايستطيعون خلالها تبين وقع أقدامهم ، بذلوا جهدا كبيرا فى

تعديل اتجاههم بعد أن هاموا على وجوههم وأطلقوا لسيقانهم العنان هربا من المركبة اليهودية الطائشة وسعيا للنجاة بأنفسهم. حاول همام عبثا أن يضبط اتجاه التحرك من جديد دون جدوى وكان عليهم أن يجدوا فى البحث عن منطقة ظليلة يمضون فيها نهارهم التعس بعد أن ابتعدوا عن المسار التقليدى الذى نهجوه. قطعوا فى محاولاتهم عدة ساعات طويلة لم يكن أخطر ماواجههم فيها التوهان فقط ولاحتى الجوع والعطش وانما ظهر لهم فى هذه المنطقة أعداء آخرون كانوا أشد فتكا وأفدح تأثيرا من كل أعدائهم السابقين وقد تمثل عدوهم الجديد فى الضوارى والسباع والذئاب ، تمثل فى الحيات والثعابين قابلوا لأول مرة فى حياتهم الحيوان الشرس المفترس الذى يعرف بالضب أنه صغير الجسم أشبه بالثعلب لكنه شديد الشراسة والنهم محبا للحوم البشر مولعا بدمائهم، كان يحوم حولهم مصدرا صوتا مخيفا بين الزئير والنباح.. استطاعوا صيده بطلقات بنادقهم وفى أغلب الأحيان كان صوت الطلقات كفيلا بهروبه وابتعاده عن التعرض لهم فقد كان شديد الخوف من النيران اعتاد الرفاق على ملاقاة الثعابين. فحيحها أصبح صوتا مألوفا لأسماعهم بل كان هذا الصوت الرخيم المحبب لهم ينبىء عن قرب تناولهم لوجبة دسمة شهية تعوض أجسادهم مافقدته من عناصر تكوينها ، تحولت هذه الحيات السامة إلى مصدر غزير للبروتين الذى تعرض حياتهم للخطر مع خلو غذائهم منه.

أما أشد ماكان يخيفهم خلال سيرهم ذلك النوع من الأفاعى المعروف «بالطريشة»، إنها تدفن نفسها فى الرمال وتتسمع وقع خطوات فريستها عن بعد.. وتحدد اتجاهها بكفاءة متناهية ثم تثب نحو فريستها وتلتصق بعنقها وتنفث سمومها فى عروقها ولاتتركها إلا جثة هامدة.. من حسن الحظ ولعظمة قدرة الله أن هذه الطريشة الملعونة كانت تصدر صوتا عاليا يسمع على بعد خطوات وكأنها تحتفل بفريستها وكانوا دائما ينجحون فى تفادى لقائها غير السار الذى ينذر

بأخطار جسيمة.. واستخدام طلقات رشاشاتهم لارهابها واعادتها لأعماق الرمال حتى لاتفقد حياتها.

الذئاب كان أمرها أسهل كثيرا من الطريشة فهى حيوانات كسولة متعطشة للدماء التى تأتى سهلة.. كانت أشكالها تيسر مهمتهم فى التمييز بينها وبين الكلاب الضالة.. ذيل الذئب يختلف كثيرا عن قرينه فى الكلب كما أن أنياب الذئب وأسنانه الأمامية أكثر قوة وبروزا وفمه غالبا مايبدو مفتوحا وكانت دفعة من النيران كفيلة بأن يهرب معها أعتى الذئاب ويبتعد من أمامهم دون محاولة للعودة.

تواصلت الليالى وتعددت الأيام والرفاق على حالهم الرتيب ليلهم يمضونه فى السعى ونهارهم فى السبات.. لايفتأون فى تفادى الأخطار ولايملون من قطع المسافات كل تبه يقطعونها تسلمهم للتبه التى خلفها فى تتابع رتيب لانهاية له.. أشبه بتتابع الأمواج فى لجة البحار والمحيطات.. تخيلوا أن الصحراء لن تنتهى وأن مشوارهم لن يفرغ وأن الله قد كتب عليهم التيه فى غياهب الصحراء المقفرة كما كتب على اليهود.

أيمكن أن تحدث المعجزة ويتبادلان المواقع اليهود ينتقلون إلى موقعهم غير المحدد مجهول الملامح والأبعاد وهم ينزلون من تبابهم وجبالهم إلى الطريق الشمالى الممهد المضاء بأنوار لامعة سواء كانت لمصابيح الطريق القريبة من بعض المدن الواقعة على ضفتيه أو أنوار العربات والمصفحات التى لاتتوقف أو تنقطع عن السير عليه ليلا ونهارا.. لكن من أين لهم فرض ارادتهم على الطريق.. انه الآن يئن تحت سير اليهود البغاة.. ان رماله وصخوره ومسطحاته وحتى «مطباته» تشكو من الدنس الذى تعيثه دبابات اليهود فيها إنه يئن متأثرا وكأنه يبكى وينعكس تأثره وبكاؤه على محياه، آثار الجنازير المحتلة تظهر بوضوح على سطحه تحدث على وجهه ندبات.. وتصيبه بنتوءات.. تحفر فى اسفلته جروحا غائرة لايمكن اصلاحها.. فلم يعد من قبل

تحمل الحملات الميكانيكية . ان مركبات اليهـود المجنزرة تعامله بفظاظة وتقسو عليه بغلظة.

جلس الـرفـاق يتدارسـون : مـاالعمل وكيف الخلاص ارتسمت على محياهم ابتسـامة سخـرية من الحالـة التى وصلوا إليهـا يتهكمون على أنفسـهم من فرط مـا ألم بهم من بأس.. ومن هول ماأصـابهم من جزع وشر البلية مايضـحـك وما لهم لايضحكون فالأمـور جميعا تساوت وإذا كـان الموت هو مصيرهـم المحتوم فليس أقل من لقـاء الله وهم راضـون وليسوا بجـزعين.. لماذا لايضحكون فليخففـوا على أنفسـهم فليس أمامهم مندوحـة وليثقوا فى قدرة الله مهما تأخـرت معجزاته ــ نعم ليس أمامهم سـوى تـوقع حـدوث المعجـزة انها فعـلا معجـزة تلك التى ينتظـرونها لنجدتهم من هؤلاء اليهود الملاعين.

حب .. وحرب

١٢

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧

المواجهة

المواجهة



قطع الرفاق المسافة بين محطتهم الأولى التى توقفوا عندها فى بئر العبد وتزودوا منها بالمياه العذبة والتهموا فيها الخبز اللذيذ الذى كان طعمه أشهى من الفطير وبين مدينة بالوظة فى عشر ليال كاملة رغم أن المسافة بينهما لاتتعدى الخمسين كيلومترا.. لكن السير فى الصحراء والتوغل داخلها خاصة بعد حادثة المركبة الإسرائيلية الطائشة ألزمهم بصعود التباب وهبوط الوهاد وتسلق المرتفعات مهما كانت المشقة وأيا كانت الصعوبات فكلها أمور محتملة تجنبهم مغبة الوقوع فى الأسر وتمنحهم الفرصة فى الاستمرار ، هاموا على وجوههم ليلا وساحوا يقطعون الفياف ويعبرون القفار مساء .. كان الضابط همام دليل المجموعة وعينها المبصرة يكتشف أحيانا أنها لم تتقدم إلا خطوات قليلة عن مكان بدايتها بالرغم من السير طوال الليل فالملاحة الليلية جعلتهم كمن يسبحون فى بحر لجى ليس له ملامح وليس محددا بأبعاد أو معروف الاتجاهات.. كانوا يشفقون على البحارة وزملائهم من رجال الحدود كيف ساسوا البحر وهادنوا الصحراء كيف امتهنوا تلك المهنة التى تعرضهم للأخطار المؤكدة.. لولا تقدم العلم وتطور المعدات لواجه هؤلاء الرجال مغبة التيه فى الصحراء رغم مساعدة السفن الحيوانية المعروفة بالجمال، صحيح الجمل صبور وصديق للإنسان لكنه عندما

يفـرغ صبره يتحول إلى وحش كـاسر ربما أنهى حيـاة صاحبـه والتهم جسده، ولم يكن همام يخبرهم مع نهايـة كل ليلة المسافة التى قطعـوها وإنما اكتفى بحفز هممهم وتجديد نشاطهم واستنفار جهودهم مع بداية السير فى أول الليل..

استغـرقت المسافـة بين مـدينتى بالـوظـة ورمانـة نصف المدة التى تطلبتها سـابقتها.. كـانت الأرض أكثر استـواء وأقل غرزا.. وكـان الأمل يتـزايد مع اقتراب الهدف.. لم يبق أمـام الـرفاق إلا بعض الكيلـومترات يقطعـونها صـوب القناة عشرة كيلـومترات أو تـزيـد قليـلا لم يكن من الأهمية معرفة المسـافة الباقية بالتحديـد فقط أن الأمل لايزال باقيا وأن الله يمدهم بعـونه ويمنحهم المقاومة التى تمكنهم من الاستمـرار.. لو أن الله حجبها عنهم أو حـرمهم على الأقل من التوفيق لواجهـوا نهايتهم منذ بـدأوا نـزولهم من جبل لبنـى فى اتجاه العـريش أو لأسرهم اليهـود على مشارفها.. لمزقت أجســادهم شظايا الألغام أو فتكت بهم نيران الـدبابات الذين ساروا بجوارها لولا هـذه العناية الإلهية التى أحاطتهم بها السماء لتمكنت منهم الضـــوارى ونهشت أجســـادهم الـذئاب وخـــروا صرعى بسموم الأفاعى والطريشة اللعينة.

على مشارف رمانة جلسوا يتـدبرون أمرهم ويتدارسون خط سيرهم ويعيـدون حســابـاتهم كيف لهم مـن عبـور القنـاة وبعضهم لايعـرف السباحـة تذكـر شوقى فى هـذه الجلسة كيف أن السبـاحة كـانت دائما تشكل عـائقا فى سبيل مستقبلـه قللت مجمـوع درجـاته فى كل سنـوات عمره الـدراسية بالكليـة لفقد الثـلاثين درجة المخصصة للسبـاحة.. بل عرضتـه للحبس لأكثر من ثلاثـة أشهر متتاليـة بعد قرار اللـواء محمد فوزى مدير الكليـة آنذاك بحرمان الطلبة الذين لايجيـدون سباحة طول الحمام من الخروج مع عطلة نهاية الأسبوع.. أعاد لعدة مئات من الطلبة تمضية فترة المستجـدين وهم على مشارف التخـرج لولا زيـارة الرئيس الجزائرى بن بيلـلا وقيـامهم بتقـديم عـرض عسكرى جيـد أمـامـه لما حصلـوا على راحـة وتنفسوا الصعـداء وهم يستنشقـون الهواء خـارج

مصنع الأبطـال كما كانـوا يطلقون على الكليـة.. ثم بعد ذلك وقف عـدم إجادته للسباحة أيضا فى وجه أن يكون من بين ضباط الصاعقة الأشداء لولا قـرار حاسم من قائد مدرسـة الصاعقة حينئذ المقـدم أحمد صلاح عبـدالحليم الذى استثنـاه من الإلمام بـالسباحـة شريطة القفـز من على مسافـة عشرة أمتار فى النيل. هكذا كـان دائما بينه وبين السباحـة عداء مستحكم تأتى هنا لتحـول دون بلوغه شاطىء الأمـان وعبور القناة إلى الضفـة الغربيـة للانضمام إلى قـواتهم.. لم يكن بين الـرفاق من يجيـد العوم سوى همام ويأتى بعده رستم ابن الإسماعيلية الخبير بكل متر فى شـاطىء القناة الممتـد لأكثر من مـائة وعشرين كيلـومترا من بورسعيـد شمالا إلى السويس جنـوبا .. بقيـة الرفاق جلسـوا يتدبـرون أمرهم مع تبدد الأمل وتعذر الخلاص، قال صـلاح ماعليكم إن أمامنا ليف النخيل متواقـر بكثرة بـالمنطقة ولا خجل من أن نعود بأيـامنا إلى الأصـول لقد كنت أرى رجـال قـريتنـا فى الصعيـد وهم يجدلـون الليف مستخـدمين أصابعهم كما يستخدم النساجون أنوالهم. لتتركوا أمر الأحبال وصنعها ليدى الماهـرة فى نسج الليف وتحويله إلى أحبال متينـة.. ولم يضع وقتا بدأ فعلا فى جدل الليف وتقدم أمير منه يساعده بينما لم يجد شوقى بدا من تجميع الليف من حـول النخيل بحثـا عن المزيد قـال همام أستطيع ومعى رستم أن نساعـدكم على العبور بمرافقتكم فرادى نحـو الشاطىء الغربى للقناة واعتذر شوقى حـاكيا تجربته غير المضيئة يوم أن تعرض للغرق بحمام الكلية عندما شجعه زملاؤه على السباحة معهم ولولا ستر الله لزهقت روحـه غرقا.. قدم عبـدالقادر للرفـاق بعض الأرب من جلود الحيوانـات وجدهـا فى إحدى العشش المهجـورة القريبـة لتسهيل مهمة العبور بالحبـال.. لكن رستم ناشدهم التوقف قـائلا مالكم تجتهدون فى جدل الليف وماذا أنتم به صـانعون إذا كان اليهود قد تمكنوا من احتلال الضفة الشرقية بكاملهـا فمن سيسمح لكم بربط الحبل على ضفة القناة المحتلـة.. وكيف تعبرون هـذا المانع المائى المتسع فى حـراسـة جنـودهم وتحت نظـر رجالـه.. صمتـوا وكأن على رؤوسهم الطير . إن الرغبـة فى

الحياة والسعى نحو الخلاص مما يواجهونه من عراقيل يدفعهم إلى إغفال بديهيات لم يكن ليفعلوها لو أنهم بكامل وعيهم وإدراكهم.. صحيح كيف سيتركهم اليهود يربطون حبالهم ويقيمون معبرهم دون أن يمطروهم بنيرانهم ويقضون عليهم فلنكف إذن عن إطلاق العنان للخيال الساذج ولنفكر فيما يعيننا على مانحن فيه بغير سطحية وبتركيز أعمق.

تحدث أمير السبكى وكان آخر المتحدثين بطبيعة أقدميته.. لماذا تفكرون فى الغد بهذه القتامة لماذا تقدرون الأمور الأسوأ وتعقدون مقارناتكم وتفاضلون بين احتمالاتكم غير المضيئة لماذا لانتوكل على الله ونواصل سيرنا صوب القناة فلربما أدركتنا عناية السماء التى لم تتخل أبدا عنا حتى الآن ولنعبر القناة مع أمثالنا من الشاردين وهم بالآلاف دون أن يفطن اليهود إلى نوعيتنا أكنا ضباطا أم جنودا ألديهم القدرة على الفصل بين رجالنا ونحن على هذه الهيئة الرثة والقوة المتهالكة.. إننا جميعا تعرضنا لأهوال كثيرة أحالت محيانا إلى خفوت ليس أشبه بخفوت الجنود وإنما أقرب كثيرا من انكسار الشحاذين.. ورد عليه صلاح باستياء ما هذا الهراء الذى ترددده يا أمير أن درايتك قليلة وخبرتك معدومة أن اليهود لن يسمحوا لنا بالمرور لن يضاروا من أسر عشرات الآلاف هم مجموع عدد ضباط الجيش المصرى فى سيناء أنهم يتفننون فى استخدام ملكاتهم الشيطانية لتعذيب الأسرى وترويعهم وما عليهم أى جهد فى ذلك فمعسكرات العمل داخل المستوطنات تستوعب الآلاف المؤلفة وليعودوا لنظام السخرة واستخدام الكرابيج فى إخراج مابجعبتنا من جهد واستنزاف طاقاتنا وقدراتنا.

قطعت جهيزة قول كل خطيب قالها شوقى بعد أن سمع كلمات لبعض الزملاء مروا عليهم عائدين فى الاتجاه العكسى من ناحية القناة سألهم صلاح لماذا عودتكم بعد أن شارفتم القنطرة قالوا بيأس قررنا أن نستوطن سيناء بعد أن تأكدنا بعيوننا أن اليهود لن يسمحوا لنا بالمرور ، أنهم يفصلوننا إلى ثلاثة أقسام الأول يحكمون عليهم بالإعدام

ويحصـدونهم بـالنيران وهم وقوف معصـوبى الأعين دون جـريـرة أو ذنب، القسم الثـانى يـزفـونهم كقطيع الماشيـة إلى عـربـات نصف نقل ويعودون بهم إلى معسكرات الأسرى بـالخلف أما القسم الثالث وهم من المحظوظين من أبنـاء الريف فيتركونهم يعبرون إلى الضفة الغـربية دون مساءلـة.. أخذ كل منهم ينظر إلى هيئتـه ليصنفها تبعا لما ذكره الـزملاء الفارون أيمكن أن يكون أحدهم ضمن النـاجين من القرويين أتساعدهم شعورهـم الكثة وجباههم التـى اسمرت بفعل حرارة الشمـس وأشعتها اللافحـة، لقد أطلقـوا لحاهم وبدلوا ثيـابهم وعبثوا بوجـوههم ومع ذلك ليس من العسير على اليهـود أن يفرقـوا بين الضباط والجنـود ليس من المجـدى أن يبالغـوا فى عمليات التشبـه بالجنـود لأن جلودهم البيضـاء وملمس أقدامهم الناعم وقوامهم الرياضى وأسلوبهم المتمدين فاضحهم لا محالة وكاشفهـم أمام اليهود الملاعين الذين لـديهم القدرة على تمييز كل شىء من خـلال إقـامتهم بمصر لفترات طـويلـة قبل التهجير.. إن بعضهم عاش فى إحيـاء بولاق والسكاكينى والفجالـة والضاهر : إن لهم حـارات تعرف بحـارات اليهـود يتحدثـون لغتنـا ولكتنا فلن يكـون من الصعب عليهم التمييز بيننا.. ويخرج عليهم أمير السبكى بفكـرة جديدة أنه دائم التفكير حتى مع آرائه السطحيـة لكنه أبـدا لم يقبع أو يركن إلى الاستسلام.. حبـاه الله بفكر متقـد كان من شبـاب شبرا المرح جرب كل شىء ورافق بعض أقرانه من هواة الترحال فأقـاموا معسكرات الكشافة وزاروا المحافظـات وتعاملوا مع فئـات كثيرة ونوعيات عـديدة فأكسبهم هذا بعض الخبرة خالـوها ثروتهم التى لاتنضب وتصـوروهـا سلاحهم الذى لايبلى.. قـال أمير إننى أملك قدرا كبيرا من المشـاغبة ولدى مـوهبة خـاصة من الغتـاتة أستطيع معهـا إثـارة اليهود وقبل أن يكمل انفجـر الـرفاق من الضحك مـرة أخـرى وشر البليـة مايضحك رغم أن القلـوب واجفـة والأنفس خـائفـة ، اسـتمر أمـير دون تحفظ وكأن ضحكهم لايعنيـه.. نعم والله أستطيع أن أثير حفيظتهم واستخـرج كـوامن شرهم وادفعهم لأن يمطـرونـا بـوابل مـن رصـاصهم وهم يقـومـون بعمليـة

المفاضلـة وتقسيمنا إلى فئات.. وبهذا يكـون قد استدرجنـاهم بعيداً عن قرار الأسر فنلنا بـذلك الشهادة ووصلنا إلى غايتنا ومبتغانـا وتفادينا أن نزف إلى عـرباتهم كقطعـان الماشية لتقلنـا إلى معسكرات النـازى أقصد الأسر.. استهجن صـلاح الفكـرة وأعلن استيـاءه بكلمات خـاليـة من المجاملة إن أفكـارك تصدمنى وآراءك تثير السخرية وتـدفع للتهكم مالنا نحن «ولغتاتك» التى تملكها أيمكن لهذه الغتـاتة التى تحكى عنها والتى لسناهـا فعلاً من خلال تعـاملنا معك أن تنجينا من أسر اليهـود والذل والهوان الـذى يكتنفــه ، أيمكن أن نعتمـد على غتـاتتك كـاستراتيجيـة نستطيع من خـلالها تحقيق هدفنـا والوصـول الى غايتنـا لا لاياأخ أمير لقد بـالغت فى الثقة بنفسك رغم أننـى شخصيا لا أنزهك مـن أن تكون على هذا القـدر من الغتاتـة أو أنقيك من تخيلك لهذه الثروة التـى حباك الله بها.. كـان صـلاح قـاسيـا على رفق الـدرب وزميل الكفـاح لم يكن كلاهما يـرتاح للآخر.. كـان صلاح يرى فى أمير الشخصية العـابثة غير المقـدرة لعواقب الأمـور وغير الملتزمـة بالمعـايير والضوابط وكـان أمير يتصور الالتـزام المطلق الذى قـد يصل لحد الجبن فى شخصيـة صلاح ولطالما جـاهد نفســه وكبح جماحها فى الانطـلاق والاعتراض على صلاح والتمرد على أوامره..

نظر أمير للـرفاق ليتبين وقع كلمات صـلاح النافـذة المتهكمة بـرأيه وأثر فى نفســه تلك الملامح التى بدت عليهـا الشفقة به والتعـاطف معه وقبل أن يندفع للثأر لكرامته من قـائد المجموعة أو على الأقل للرد عليه تـدارك شوقى الموقف وقـال لأمير : لا لا يا «أمـر» لن نستطيع الاعتماد على غتـاتتك وحدهـا مع اليهـود أنهم قوم لا أمـان لهم ولايحكمهم خط فكرى سوى انهم ينفثـون أحقادا وعقدا وغالبا مـا يأتى سلوكهم متأثرا بهذه العقد ومتمشيـا مع تلك الأحقاد واذا كان لـديك ثروة من الغتـاتة فكثير منا وأنـا أولهم لدينا مثلك قـدر مناسب منها قـالها شوقى يخفف بها عن زميله الذى أوشك أن ينفجر قالها حتى لو أنه لم يدرك أمير قبل انفجـاره فعلى الأقل يكـون هـذا الانفجار معــه هـو وليس مع رمـزهم

وقـائدهم صـلاح.. كان شـوقى يحاول الحفـاظ على تـوازن المجموعـة وروابطها مهما كلفـه الأمر انهم كعصبة أقـوى كثيرا منهم كأفراد لماذا يبعثرون قـدراتهم ويفرقـون وحدتهم . الغريـب أن أمير أدرك ما رمى اليه شـوقى وآثر التعقـل مفضلا الصمت على مـواجهة صلاح التـى قد تؤدى الى طريق اللاعودة بينهما..

ارتسمت على الجنـود بقيـادة الرقيب عبـدالقـادر عـلامات الـرضـا والارتياح إنهم أقـرب أعضاء المجموعة إلى النجـاة ورغم أن بعضـهم كان من أبناء المدينة إلا أن هيئتهم كانت تنبىء على نوعيتهم ولا تحتاج لكثير من الجهد فى عمليـات الاستغراق فى توضيـح معالم الجنديـة والبعد عن مظاهـر الضباط ومع كل هذه الثـورة المكتومة والغليان الصـامت الذى واكب الجميع قال عبـدالقادر كلمات قليلـة حدث بها نفسـه« الله يرحمك ياوالدى لولاك ما كتب الله حاليا لى النجاة لولا ارغامك لى على التطوع فى صفوف الجندية وإحجامك عن تكملة رسالتك وانفاقك على تعليمى لكنت أواجه حاليـا المصير المظلم الذى يواجهه حضرات الضـابط.. الله يرحمك ياوالـدى سلمتنى بنفسك إلى شيخ البلد وطلبت منـه مرافقتى إلى مـركز التطوع بالقاهرة لعدم قدرتك على ذلك.. لم يكن لدى قبل بمواجهة شيخ البلد كان رمز السلطة فى القرية والـرجل القوى بعد العمدة يومها أمرنى أن أجهز نفسى غـدا ومن يومهـا لم أعد لقـريتنا إلا فى إجـازات كل عدة أشهـر يرحمك الله يـا والدى على هـذا الجميل الذى لن أنسـاه».. ابتسم الرفاق لكلمات عبدالقادر الذى جاءت عفـوية برغم قسوة مايشعرون به من مآسى ومـرارة المفاضلة التى عليهم أن يختاروا بينهـا الشهادة.. أم الأسر.. خيـاران كـلاهما مـر.. خيـاران لا ثـالث لهما.. تـرى أيهما يـواجهون.. يـودون الاستشهـاد لكن قـد يوقعهم قـدرهم فى الأسر إنـه الشبح الـذى خيم عليهم وأقض مضـجعهم وعكر مـزاجهم منذ أن بـدأوا مشوارهم الطـويل.. سيطر على فكـرهم وحرمهم من التفكـر فى ورطتهم والخروج من أزمتهم كـان الأسر هـو الخطر المحـدق بهم بعينـه كانـوا أحيانا يتحسسون أقفيتهم وظهـورهم ومقاعدهم وكأنهم يهيئونها لتلقى

آثار التعـذيب التى تنتظرهم فى معسكر النـازى إن اليهود ابتكروا طـرقا لتعـذيب أسراهم لم تكن أيام النـازى ، استحدثـوا فيها أدوات ومعـدات جـديدة وطـوروا طـرقا وأســاليب غير تقليـدية تتمشى مع «ســاديتهم» وتتناسب مع شذوذهم الفكرى . أيكـون مصـيرهم الأسر بعد كل مالاقوه من صنوف العذاب وألوان الهوان؟ أتكـون نهايتهم بهذه القسوة بعد كل معـانـاتهم وآلامهم ؟ .. ومع كل ليس أمـامهم سـوى الصـبر.. وليس فى مقدورهم سوى الامتثال.

حب ..
وحرب
١٤

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧

ثنايا الموت

عندما يعز الموت

طالت جلسة الرجال على مشارف مدينة رمانة كان الأمر جللا والخطب فادحا والقرار غاية فى الصعوبة.. ماذا هم فاعلون؟.. إذا قرروا الحركة إلى أين وإلى متى.. أيتقدمون صوب القناة ويسلمون أنفسهم طواعية لليهود ليفاضلوا بينهم.. يواجه معظمهم الأسر وينقلون فى شاحنات الى معسكرات النازى ويلقى البعض الآخر الموت رميا برصاصاتهم الغادرة وينجو قلة منهم تشاء الأقدار نجاتهم فيعبرون القناة ضفة النجاة المسماة بالضفة الغربية أم يرتدون على أدبارهم ويعودون من جديد من حيث أتوا الى الشيخ عيد زعيم قبيلة العبايدة فى بير العبد.. يتزوجون من بناته وينخرطون ضمن رجال القبيلة فى أعمالهم التى تنحصر فى رعى الأغنام والأتجار فى الدخان.. سكون رهيب ران الصمت على جلسة الرفاق وشملهم جميعا بلا استثناء وأخيرا تحدث صلاح وجاء صوته خفيضا حزينا خافتا كأنه صدر من العالم الآخر من عالم الأرواح عالم الأشباح نزلت كلماته عليهم كالصاعقة ألجمت السنتهم وجمدت أفكارهم واصابتهم بالذهول والصدمة.. أطلق صلاح قنبلته الأخيرة فى مرحلة قيادته للمجموعة زلزلت قنبلته كيان الجميع وفجرت آثارا بركانية كانت قد اختفت داخلهم طوال مشوارهم الشاق.. لابد أن نتخلص من الحياة بإرادتنا ، لا أن نحرر أرواحنا من

قيد أجسـادنا، لابد أن نـزيح من على كاهلنـا شبح الأسر البغيض وآثاره المدمرة ونتائجه المزلزلة ، نعم أيها الرفاق وتعمد أن تكون كلماته التالية أكثـر تحديدا ووضـوحـا لابـد أن ننتحر بأيـدينـا قبل أن تنـالنا أيـدى اليهود.. لابد أن تـواجه صدورنا نيران بنادقنـا قبل ان تئن قلوبنا تحت وطأة نيرانهم الغـادرة على الأقل سنلقى بعـض الـرعـايـة من زمـلائنـا الجنـود ، على الأقل سيتمكن بعضهم من أن يـوارى اجسـادنـا التراب.. وقبل.. أن ينهى صـلاح كلماتـه اصـدر تعليماتـه ليقـوم أمير السبكى بالـدور الرئيسى فى هـذه المهمة الصعبة ليطلق نيران مـدفعه الـرشاش علينا ، إنه أقدرنا على مـواجهة هذه المواقف وليعينه الله بعد ذلك على قتل نفسه..

انفجر بركـان الغضب الثائر لدى أمير ، شهـدت المجموعة أول تمرد حقيقى ، أول مواجهة سافرة وصلـت العلاقة بين صلاح وأمير الى نقطة الـلاعـودة . صـاح أمير يهذى بكلمات رافضـة ويصيح ويسب الجميع بألفـاظ خارجـة وينعتهم بشتائم وقحـة ويقـول طالما تحملت أوامـركم التعسفيـة طـالما نفـذت تعليماتكم الغبيـة واقنعت نفسى بـالاضطـلاع بمهـامكم العجيبـة قاتل الله الأقـدميـة التى اجبرتنى على الانصيـاع لكم والالتـزام بكـلامكم ، تبالكم جميعـا وسحقـا لأوامـركم الأننى تخرجت بعدكم احتمل رزالتكم وأصبر على سخفكم وانفـذ مهمة إزهاق أرواحكم. ماهذه القـرارات التافهة السطحية التى تصدر منكم مـا هذا العبث الذى تتفننون فى صياغة الحديث عنه أنه «الهبل» بعينه ولن أكون صنيعكم فى تنفيـذه فلتـذهبوا الى الجحيم بعيـدا عنى لكن لن تقترف يـدى مثل هـذا الجرم الشنيع وتـرتكب هـذه الجريمـة النكـراء.. آثـرت عـدم الـرد على تطاولات المدعو صلاح قائدكم المفـدى واستمعت لنصائح شوقى ونفذت كل ماكلفت به من مهام كنت أنظر الى بعضها على أنه ظلم بين لشخصى ومع كل هذا التحمل والصبر وصلت الى هذه الدرجة من الغليان التى لن تعرفوا مداها أو تقيموا حجمهـا إلا إذا نطق أحدكم ببنت شفة موجها لى أى نقـد أو فـارضـا علىّ أى أوامـر وإن شئتم فـأنـا لست منكم وحتى

النهاية.. قالها أمير وأدار ظهره للمجموعة وكأنه يعلن عن تمرده الكامل ومروقه السافر..

كان لابد من تدخل شوقى الذى لعب دور مخفف الصدمة لعلاقاته الوطيدة بين طرف المجموعة.. الكبار صلاح وهمام والأحدث رستم وأمير حدث شوقى مهدئا روع أمير ومعتذرا لصلاح نيابة عنه لقد كنت على صواب يا أمير عندما رفضت قتلنا فما بيننا من عشرة وأواصر يجعل من العسير على أى فرد من المجموعة ازهاق روح بقية الرفاق بيديه.. كما أنه عمل مناف لأى شرائع وأديان.. وإذا كنت أؤيدك فى رفضك إلا أننى عاتب عليك انفعالك الزائد عن الحد الذى وصل بك الى حد الهياج فصلاح لايستحق منا جميعا إلا كل اعزاز وتقدير.. إنه قائدنا وأخونا قبل أن يكون رئيسنا وأقدمنا وقد كان نعم الأخ طوال مشوارنا الشاق الذى لايبدو له نهاية وإذا كان قد قسا عليك فى القول أو اعتمد عليك فى العمل فلأنه يعتبرك أخاه الأصغر ويتمنى لك الوضع الأفضل فضلا عن ثقته الكبيرة فى امكاناتك وقدراتك.. حاول أمير أن يسوق بعض مبرراته واعتدل فى جلسته وقبل أن يطلق كلماته التى وضح أنها ستدمر جهود شوقى بادره الأخير لا عليك يا أمير من الاعتذار فنحن جميعا نعتذر نيابة عنك ونقبل صلاح ونستسمحه ونطلب منه العفو والنسيان.. وأنا شخصيا أرى أننى شريك معك فى الخطأ فلقد كان واجبا على أن أناقش صلاح فى أوامره التى كلفك بها ومن ثم فقد تباطأت فى التدخل وهو ماجعل الأمور تستفحل ولا يسعنى الآن إلا أن أطلب من صلاح أن يتولى بنفسه قتل الرفاق. إذا كان مصرا على رأيه.. ولن يجد منا إلا كل انصياع ورضا بقضاء الله وبتلقائية سريعة أخذ صلاح يرد لا..لا..لا لايمكن أن أقوم بتلك المهمة ليس اشفاقا عليكم وارتباطا بكم فحسب وإنما أيضا لأننى أجبن من أن انفذ الانتحار مع نفسى ولن استطيع العيش بدونكم ولاقبل لى بمواجهة أهوال الأسر بمفردى.. وتبادر الى ذهنه فكرة ظن أنه يهرب بها من تكليف شوقى المباغت.. إذا كنا متفقين على أن الانتحار هو الحل الأمثل لظروفنا الحالية وهو السبيل الوحيد

لتفادى شبح الأسر المهين فلماذا لاينفذ تلك المهمة الرقيب عبدالقادر لن تعوزه الشجاعة ولن يفتقد القدرة كما أنه ليس فى حاجة الى مواجهة نفسه والتردد أمامها لأنه لن يقوم بالانتحار بعدنا وبعفوية شديدة خرجت كلمات عبدالقادر تناشد الرفاق اعفاءه من هذه المهمة الثقيلة لا أيها القادة استمحيكم عذرا فلم أكد أصدق ان الله كتب لى النجاة بعد سماعى لتصنيف اليهود للشاردين منا وادراجى فى الفئة الثالثة مع المحظوظين.. ولقد توجهت بالشكر بعد الله لوالدى الذى بخل عن الانفاق على وتكملة تربيتى وتعليمى لا أكاد أصدق ذلك حتى أوقع نفسى فى شراك القيام بجريمة عسكرية قد تعرضنى لعقوبة الاعدام.. لو أن أحدا أبلغ العقيد عاطف قائد الكتيبة الحازم لما أفلت من رصاصات جماعة ضرب النار التى تقوم بتنفيذ عقوبة الاعدام على المحكوم عليهم بها..

أيها السادة لقد كنت نعم الأخ المطيع إليكم بل وكنت دائما أنا ورفاقى أكثر من الخدم رعاية وصونا لحضراتكم.. فلا تشعرونى أن مكافأتكم لى تكون بحرمانى من الهبة التى منحنا الله أياها وكتب لنا البقاء والحياة حتى مع تعرضنا لملاقاة اليهود على ضفة القناة حال وصولنا إليها.. انتهت كلمات عبدالقادر وأسلم الجميع بعدها الى الخلود للتفكير والصمت.. وتعجبوا من الأقدار.. حتى الموت الذى يكرهه كافة البشر أصبح صعب المنال.. عاد حلما.. وبات رفاهية لايمكن توفيرها.. أمير تمرد وصلاح اعترف بعدم قدرته على ذلك حتى لو كان هذا يدخله فى عداد الجبناء.. والرقيب عبدالقادر أعلن عن تخوفه من تعرضه لحساب وعقاب القائد وليس خشية عليهم وحبا فيهم.. يالسخرية القدر الموت الذى قيل فى الأوراد إنه الحقيقة المؤكدة فى هذه الحياة الدنيا أصبح متعذر الوجود وصعب التحقيق.. اعتدل شوقى فى جلسته وناشد الجميع أن يسمعوه بتركيز وأن يتبينوا مقصده والايسيئوا فهم غرضه وبنبرة خطابية وصوت جهورى قال: إن الله لن يتركنا نهبا لرصاصات اليهود أو فريسة لنيرانهم.. كما أنه سينجينا من الوقوع فى أسرهم وملاقاة إذلالهم لو أن إرادة الله لم تشملنا برعايتها وعنايتها للحقنا

بزملائنا الشهداء الأبرار ولواجهنا نفس المصير الذى واجهه الشهيد سيد عبدالغفار والشهيد سيد ياسين والرائد رمسيس رياض والنقيب ممدوح والرقيب فاروق وعلى سليمان وغيرهم وغيرهم ممن لاتسعفنى الذاكرة على ذكرهم.. لكانت أجسادنا مسجاة منذ فترة فى قبورها بلا حركة ولا حياة .. لكانت أرواحنا قد صعدت إلى بارئها فى هدوء واستلمتها الملائكة يفردون لها الصحف وينشرون لها الأعمال أبعد أن شملتنا العناية الإلهية برحمتها وحفتنا حماية الله بعطفه وقدرته نقوم نحن ببعثرة هذه الهبات وإهدار هذه النعم.. مالكم أيها الرفاق تلقون أسلحتكم المعنوية فى يأس وتسلمون مقدراتكم فى قنوط وتفقدون مقاومتكم بغرابة.. سيطر عليكم الخوف من المجهول وهزتكم بعض الكلمات التى صدرت بلا تحفظ من أفراد لايتسلحون بالإيمان ولا يعرفون اليقين ، خارت قواهم وقرروا التسليم تحت ضغط مارأوه على ضفة القناة.. ربما خدعتهم أبصارهم وربما تغير موقف اليهود وربما شملنا الله برعايته وأنقذنا كما أنقذنا من قبل من عدة مواقف وصعاب كان أقلها كفيلا بالتسبب فى هلاكنا وفنائنا.

وأردف شوقى يكمل محاولات إقناعه لرفاقه بنبذ فكرة الانتحار قائلا: لابد أن الله قد أراد بنا خيرا أذ نجانا حتى الآن مما حاق برفاقنا من أخطار نالت منهم وواجهوا معها الموت فلنكن شاكرين لفضله حامدين لعطفه طائعين لأوامره.. ويجب علينا أن نمعن فكرنا بهدوء ونجهد ذهننا بتركيز فى محاولة جادة للخروج من هذا المأزق الحرج.. لا أن نفكر بهذه السذاجة وتلك السطحية فى التخلص من حياتنا والانتحار بأيدينا.. إنه الضعف بعينه.. إنه هروب من أقدارنا.. إنه مروق وعصيان لأوامر الله.. لن يكون الخوف من أهوال الأسر وما سمعناه عن قسوة اليهود وفظاظتهم مع أسراهم مبررا لنا أمام الله يبيح لنا الأقدام على هذه الفعلة الشنعاء.. بل على العكس إنه يعرضنا لغضبه ويحكم علينا بدخول النار.. اسمحوا لى أيها الرفاق أن أعلن أمامكم رفضى لهذه الفكرة ودحضى لهذا الاقتراح وبرغم اعتراف

بفضلكم وامتنانى لتعاونكم معى غير أننى أفضل الاستمـرار فى مواجهة تلك الأخطار عن الـركون إلى هذا القرار الخاطىء بـالتخلص من الحياة. وحتى مع مـواجهتى لاحتمالات الأسر على يـد اليهـود وحتى مع اعترافى وتوقعى لألـوان وصنوف العذابـات المختلفة.. غير أننى أفضلهـا راضيا بها على الاعتراض على مقدرات الله ومـواجهة غضبـه والتعرض لارتكـاب أفظع المعاصى والآثام واقتراف جريمة الانتحار.

وقعت كلمات شوقى على نفـوس الرفاق بلسما شافيـا لهم من الآثار المدمـرة للفكـرة الطـائشـة التى اقترحهـا صـــلاح.. ورفعت قليـلا من معنويـاتهم المنهارة وروحهم المتهـالكة.. وران الصمت عليهم من جـديد كل يفكر فيما تكون عليه الخطوة التـالية وكيف لهم الخلاص وكان لابد من طرح القضيـة للمناقشـة وإتاحـة الفرصـة المتساويـة أمام الجميع للتدبـر والتفكير.. المفاضلة إذن بين خيـارين.. الحركة صـوب القناة مع احتمال التعـرض لمواجهــة اليهــود ومن ثم الـــوقـــوع فى الأسر أو الاستشهاد.. أم الخلود والبقاء فى مـوقعهم ولو حتى على سبيل الانتظار المؤقت.

وعـاد صــلاح يطرح القضيـة للمنـاقشـة فالخيـاران غير مأمـونين العـواقب.. الأول وهو التقـدم صــوب القناة ستكـون نهايتـه المحتومـة ملاقاة اليهود.. أما الثـانى فليس لهم قبل باستمراره من أين لهم الغذاء والشراب؟.. نعم هم على مشارف مـدينة رمانة التى تبعد عـدة مئات من الأمتار عنهم.. لكنهم لايستطيعـون الدخول إليها أو التعـامل مع أهلها.. فلـربما فـرض اليهـود حصارا حـولها وانتشر جنـودهم فى طـرقـاتها.. يعيثون فيهـا فسادا ويعبثون بمقدرات أهلهـا وزائريها.. وتحدث صلاح بنبرات عميقة حزينة.. بـالرغم من الآثار المؤلمة التى سببها اقتراحى غير الموفق ومـاتبعـه من هجوم شرس لـلأخ أمير على شخصى رغم نـزاهـة ونظـافة تـوجهاتى إلا أنـه لابـد لى من الاضطلاع بـواجبى ومادمتم قـد قبلتمونى قائدا مؤقتا لحضراتكم خـلال مشوارنا الصعب بحكم أقدميتى وسنى فـلابد أن تكـون لى المبادرة فى بحـث مانتعـرض إليه من أخطـار

ولعلى أرى أنــه لامناص أمــامنــا من إرســال بعض الرفــاق إلى حــوانيت رمــانــة يبتاعــون منهــا بعض الغــذاء والأطعمة ويحاولــون إعــادة ملء زمــازمنا وإمــدادنا ببعض الفــواكــه والثمار ولعلى أترك لكم اختيــار من يصلح للمهمة لكننى احتفظ لنفسى بضرورة الحذر كل الحذر فى اختيار من يقوم بها واقترح أن يكونوا من الجنود.

بسرعة تــم تكليف الرقيب عبــدالقادر ومعه اثنــان من الجنود كــانت هيئتهم تــدل دلالــة واضحــة على أنهم ليســـوا من فئــة الضبــاط وعلى بركــةالله توكلوا موجهين وجهتهم شطــر مدينة رمانــة.. بينما جلس بقية الرفاق يتناقشــون فى خطوتهم التالية لتحديد مصيرهم المجهول، لم يفت صلاح بــوصفه قائد المجمــوعة من أن يتأكــد بنفسه من هيئة المجمــوعة التى تكلفت بإحضــار الغذاء مــن حوانيت رمــانة وتــوصيــة عبدالقــادر بتفادى أى مواجهة مع جنود اليهود إذا كــان لهم تواجد بطرقات المدينة مهما كلفــه ذلك ولو كــان على حساب العــودة دون شراء مايلــزمهم من طعام وشراب لأنه أفضل كثيرا من الصدام معهم.

ورغم أن صلاح فتح باب المناقشة أمام الجميع فى الحديث وناشدهم على أن يــدلوا بــدلــوهم فى تحديد مستقبلهم وتقــريــر ملامح خطــوتهم التالية.. غير أن أحدا منهم لم يجد لديه الرغبة فى الكلام.. ضاقت الحلقة واستحكمت العراقيل وسدت المنافــذ وليس من سبيل أمامهم إلى النجاة. ضرب الفشل أطنابه فى النفوس واحكم القنــوط فى العزائم وخارت القوى وتهاوت المقــاومــات.. شرد الجميع بنظراتهم وزاغت الأبصــار وطــاشت الأفكار.

وهم على حالهم هذا وصل عبدالقــادر ورفيقه وحملوا ثلاثتهم بعض الأرغفــة الآليـــة وبعض الأطعمــة الشهيـــة والثمار النــاضجـــة.. ورغم إحساس الــرفاق بــالجوع ورغم عوزهم الــواضح طوال الــرحلة غير أن النفس افتقـــدت الشهيـــة وعـــافت الأطعمـــة وظلت الأكف على الخدود وانطلقت الخيالات فى محاولة لفك رموز وطلاسم موقفهم الغامض.

حب .. وحرب ٢٥

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧



الإعرابى الحافى

تفرس شوقـى فى جموع المعزين لعله يتبين منها ما يعينـه على تأكيد استنتاجه بأن شقيقته الكبرى هى الفقيـدة بعينها .. وليس غيرها .. كان القارىء يتلو آيات الذكـر الحكيم ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون .. كل نفـس ذائقة الموت ونبلوكم بـالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ (صدق الله العظيم).

رأى أشقـاء زوج شقيقتـه الصغـرى يقفون بجـواره وقـد بـدا على وجوههم مظـاهر فرط التأثـر والحزن حمر الوجوه متـورمو الأعين من البكـاء.. بعث هذا المشهـد فى نفســه بعض الشك .. لم تكن علاقـة أسرة زوج شقيقتـه الصغـرى قويـة لهذه الـدرجـة بشقيقتـه الكبرى بل لعل الشقيقتين لم تكن تتبـادلان الزيـارات الأسرية لاختـلاف طبائع وسمات الـزوجين فما بال أشقـاء زوج شقيقتـه يبـالغون فى تأثـرهم .. أتكـون شقيقته الصغـرى هى الفقيدة؟ .. إنه لم يتأكد بعـد من شىء .. تداخلت الأمور تضـاربت الاستنتـاجات .. لم يعد يدرى من الفقيدة كل مـا يدريه أنها ليست والدته .. ويحمد الله كثيراً على ذلك . فلقـد أبقاها الله له ليبثها شوقـه ويواسيهـا فى مصائبها بـالرغم من أنـه يستحق نفس القدر من المواساة .. إنه يحب أشقاءه حبـا جما .. كان لايستطيع فراقهم ولايقوى على الاستغناء عنهم..

ومن فرط جـزعه وعجـزه عاد بذهنـه من جديد ليتـذكر رفـاقه وهـم جـالســـون وكأن على رؤوسهم الطير على مشـارف رمـانـــة .. لاتـزال الأطعمـة التى جلبهـا عبـدالقـادر أمـامهم لم تمس .. أفـواههم مطبقـة ونفسـهم مسـدودة حتى عن الكلام فمابـالك بتناول الطعـام أنه يحتـاج لقدر كبير من التـوافق مع الذات وذواتهم أصـلا منهارة .. ومعنـوياتهم منعدمة.

بينما هم سـاهون لمح أمير وكـان لايزال معرضـا عن المجمـوعة ولم ينس بعد حـالة الهياج التى انتابته اعـرابيا يسير بجوارهم كانـت ثيابه رثة ولحيته كثه وأثمالـه بالية ممزقة ومرتقـة .. كان ميمما وجهته شطر الشمال قادما من اتجاه القناة ناداه وبادره بالسؤال عما تبحث وإلى أين تتجه؟ ورد الاعـرابى بعفويـة لا أبحث عن شىء واسير فى اتجاه قبيلتى المنتشرة على بعد عـدة كيلو مترات من المنطقـة .. وأين كنت؟ ورد الرجل بنفس التلقائيـة .. كنت فى مهمة انسانيـة مع بعض الرجـال الشاردين.. قمت بقيادتهم متفاديا أمـاكن تمركز وانتشار اليهود وحتى أوصلتهم إلى الضفة الغربية للقناة.

آه .. أطلقـوهـا جميعـا هـذه المرة بسعـادة غـامـرة وكأن الاعـرابى انتشلهم من الغرق من بحـر الصحراء المظلم .. وكأنه قادهم فعـلا نحو النجاة وصـوب الخلاص، نسوا حـالتهم النفسية المكتئبـة وتبدد اليأس الذى تفشى بينهم والـدمار الـذى حاق بهم .. آه لقد جـاء الفرج وارسل الله معجزتـه متمثلة فى هـذا الاعرابى الحافى . إنها ارادة الله التـى تفرض مقـدراتها على رقـاب الجميع فما بـالك بـاليهـود الملاعين الخارجين عن تعـــاليم الأديـــان المحـــرفين للـرســـالات السماويـــة الســـائرين على بروتـوكولاتهم الوضعية . إن تـرتيب السماء خير من تدابير البشر حتى ولـو اجتمعوا على كلمـة رجل واحـد .. يالـرحمة الله بعبـاده .. يالقـدرة الخالق ببشره ، إنـه الواهب الـرحمن الرحيم .. عجـزوا تماماً عن نجـدة أنفسهم.. وقبل أن يستسلمـوا لحتفهم وتضيق بهم السبل وتعـز عليهم الحياة أرسل اليهم معجزته وبعث لهم المدد ووهبهم العون .. ومأدراهم

بأنـه اعرابى ربما كـان ملكـا من السماء أرسلـه الله ليهديهم إلى طـريق الانقاذ .. ربما كان من أولياء الله الصـالحين دفعه الله اليهم لانتشال تلك الأرواح والأنفس الطاهـرة البريئة قبل أن ترتكب جـريمتها وتتخلص من حياتها وتزهق روحها .. مادام الله قـدر لهم الحياة فلن تقف أمام قدرته ارادة ولن تعترض مشيئتـه عقبـة .. الحمـدلله الحمدلله رددهـا الجميع بصـــوت خـاشع .. نطقت بها القلـــوب .. وهتفت بها الأفئـدة تضرعـــا وامتنــانــا لله عـز وجل أن كتب لهم الحيـاة بعـد أن اشرفـوا على الهلاك وامتـدت لهم يد العنـاية الالهيـة لتنقـذهم من المصير المؤلم الذى كـان ينتظرهم ويخيم على مسيرتهم.

بمجـرد ان استمع شوقى لاجـابـات الأعرابـى استعد بأسهل مهمـة وهى اتمام الاتفـاق مع الـرجل لتكـرار مشـواره الـذى انقـذ بـه أرواح زملائهم من قبل وخطب وده واستنفر تعاطفه عنـدما بادره بقوله أليس من الممكن أن تقـوم بعمل بطولى للمـرة الثانيـة فى وقت قياسي وتعـاود قطع هـذا المشوار الشـاق فى محاولـة انقاذنـا وقيـادتنا بعيـداً عن أعين ومتنـاول اليهـود ؟.. اننا لـن ننسى لك هذا الجميـل ما حيينـا إن هـذا الصنيع سيطوق أعناقنا بفضل لن نبخسك حقك فيه ابداً وسيكون بيننا وبينك وصـال لاينقطع وأواصر لاتنفصم .. وكيف لايحدث هذا التقـارب بيننا وبينك وقد انتشلت أرواحنـا من مستنقع الموت وأنقذت انفسنا من هاوية الاسر.

لم يستمع الرجل لكـل توسلات شـوقى وكلماته المشجعـة .. وسأله بسفـور شديـد .. كم سأتقاضـى منكم مقـابل مشوارى معكم لقـد دفع السابقـون خمسين جنيها للفرد الـواحد .. وأراكم تـزيدون عن العشرة.. وأتـوقـع أن يـرتفع المبلغ إلى الخمسمائة جنيـه .. فغـر شـوقـى فـاه وارتسمت على مـلامح الـرفاق آيـات الاستغـراب والتعجب .. لم يخجل الرجل من أن يطالب بأجر مادى نظير قيـامه بمهمة وطنية انسانية.. الا يعلم أن المادة إذا تدخلت فى مثل هذه الاعمال القومية انتفت عنها الملامح الداخلية المخلصـة وحرمتها من الدوافع الرفيعة السـامية لكنهم شعروا

بعد برهة أنهم يظلمونه وأنهم بـالغوا فى تقييمه .. الرجل اعرابى مسكين ليس لديه قـوت يومه ولايملك ما يدفع عنـه عوز الاحتياج وربما الجوع فكيف يتحلى بمثل هـــذه الشعـارات التى ليس لها أى وجـــود فى عـالمه المتخلف! كيف له اهدار تلك الفـرصة التى لن يجود الزمان بمثلهـا ماله هو ومـالهذا الكلام الضخم الفخم الـذى لايفهم ابعاده ولايدرك مـراميه إنها مهمة كأى مهمـة يقوم بها فى قبيلته يستـأجره رجال القبيلـة لرعى الأغنام بمقابل .. ربما لايكون بـالجنيهات وربما اكتفى بأحدى الصغار الـوليدة وبعض الألبـان المنتجة .. أنـه لم يـر من قبل مثل هذه المبـالغ الكبيرة .. ولعله لم يشـاهد الورقـة فئة العشر جنيهات فى حيـاته الا بين يدى زعيم القبيلة نفســه ما عليه من كل هذا إنــه أمام صفقة كبيرة ربما رفعته من عداد الـرجال الذين يعملون بالأجـر إلى بعض أصحاب النفوذ بين القبيلـــة من الـذين يلعبـــون أدوارا هـامـــة ويتـدخلـــون فى رسم استراتيجيتها وبحث واتخاذ قراراتها المصيرية..

فلنتفق اذن على المقابل الذى تطلبه قـالها شوقى وقضى بكلماته على حالـة الشرود التى انتابت المجموعـة وهم يتفرسون فى الأعـرابى ويكاد ينقضون عليـه للفتك به .. لم يرد شـوقى اهدار الأمل الذى لاح مـؤخرا وبدد الظلمة الحالكة والعتمة القاتمة لن أزيدكم عن المهمة السابقة لى مع زملائكم بالرغم من أن قدماى لم تعد قادرتين على حملى وطاقتى لم تعد تستطيع تحمل مهام أخـرى.. أراد الأعرابى بمقولتـه أن يستحث شوقى على الـدفع ويخاطب إنسـانيتـه لاجـــزال العطـاء ويثير فى نفس الـوقت حفيظته وشكوكه من أنه قد يرفـض القيام بالمهمة تماما وبهذا يكون قد هدم آخر آمالهم فى البقاء ودمر مـا تبقى لهم من مقاومة وأجاب شـوقى من فوره .. ماعلى فأنا أضمن لك المبلغ الـذى حددته لكننى أود توضيح أمـر قد يكـون خافيـا عليك اننا نتقسم فيما بيننـا إلى ضباط وجنـود.. الضبـاط قـادرون على دفع المبلغ الـــذى طلبتـه بكـاملـه لكن الجنـود سيرافقوننا دون مقـابل .. هكذا هم دائماً منذ بدأنا المشـوار لايشاركون فى الـدفع لأن مرتبـاتهم لاتكاد تكفيهـم الخمسة أيـام الأولى من يونيـو

لضـآلتها وطالما اتفقنا على ذلك فإنه لك فى ذمتى مائتان وخمسون جنيها نظير قيادتك لنـا نحن الخمسة اتعهد بـدفعها لك بمجرد وصولنـا إلى بر الأمان الذى تعرفه .. لم تظهر على ملامح الرجل أى بادرة رضا ولم يبد أى استعـداد للحـركـة وكأنـه لم يعجبـه الاتفـاق ولم يعتمـده .. اقترب شـوقى أكثر من الاعـرابى فى محاولة لاستمالتـه وترضيتـه .. ربت على كتفه قائلا مالك يا أخا العـرب وكأنك تبدو غير راض .. لقد وعدتك بدفع المبلغ الذى حددته وناشدتك بـاعفاء الجنود من الدفع لظروفهم الصعبة وبعد كل هذا لابد أن تقدر بمشاعر الامتنان التى نحملها لك نظير قيامك بهذ الجهد المضنى وما ننويه من تسجيل ذلك فى التقارير التى سنرفعها لقيادتنـا نعترف فيها بفضلك ونمجد فيها تضحيـاتك .. لم يكن الأعرابى يسمع أى كلمات قد تبعده عن صفقته المادية فلقد كان اعترافه فقط بلغة النقود أما سلاح المعنويات وعبـارات الاشادة والمديح فقد كانت بالنسبة له عملـة مزيفة لاتعرف طـريقها إلى قلبه وعقلـه .. إذا كنتم موافقين على المبلغ فلماذا لم أر للآن أى نقـود؟ لماذا لاتقومون بالدفـع الفورى؟ قالها الاعـرابى وهـو مـادا يـده ويتهيأ لاستقبـال المبلغ لم يفت شـوقى مـا استحثه الأعـرابى عليه لكنه لم يفهم دوافعـه إلى ذلك .. وقال بهدوء لماذا تصر على تحصيل المبلغ الآن وقد وعـدتك بدفعـه فور وصولنـا إلى مرفأ النجاة الذى ستقودنا نحـوه .. وماذا يضمن لنا نجاح مهمتك .. ثم الأمر الأهم من كل هـذا أليس من الممكن أن أقوم بـدفـع المبلغ بكاملـه الآن ثم اغتصبك ايـاه بمجـرد وصـولنـا إلى غايتنـا؟ فـرغ شـوقى من اطـلاق استفسـاراته وكأن الأعـرابى تـوقعها مسبقـاً .. وبهدوء قـاتل وتلقائيـة فطريـة قال الـرجل .. مشواركم الـذى سأقطعه معكم أحفظـه عن ظهر قلب ولم أكد انتهى منـه منذ ثوان معـدودة ولا أدعى أننى أعرف دروب أغـوار سيناء فحسب فـأنا أزعم أننى عليم بكل شبر فيهـا، حـافظ لكل معالمهـا، واع بكل ابعادهـا وملامحهـا .. ونحن لن نختلف على ذلك فإذا كنتم غير واثقين من نجاحى فى مهمتى معكم فـلا تغامروا باسنـادها لى ولتبحثـوا لكم عنـد بـديل كفء غيرى أو حتى تعتمـدوا على أنفسكم

وعلمكم ، معـداتكم الحديثة التى أراهـا بين ايـديكم وتريحونى من هـذا العبء الثقيل .. أما إذا لم يغـامركم الشك فى هـذا لنتوكل سـويا على الله ولنعتمد على توفيقه وهدايته ..

وأضـاف الاعـرابى هذا مـن حيث المهمة أمـا عن المقـابل وامكـانكم استرداده حـالـة وصـولكم إلى غـايتكـم منى عنـوة فلن يكـون هـذا فى مقـدوركم لسبب بسيط هـو أننى سأدفنـه فى الـرمال أمـامكم بمجـرد استلامى لـه .. وسأنقب عنه واستخلصـه لنفسى وأنا فى طـريق العودة وهذا مافعلته فى مهمتى الأولى ولعلكم تلاحظون أننى لاأحمل نقداً وإنما فى طريقى اليها حيث قابلت الرجال السابقين على بعد أمتار من مجلسكم هذا..

تبين الرجـال أنهم أمام شخصيـة واعية وليست كما تصـوروها من سذاجـة.. واستحال عليهم القيام بأى نـوع من أنواع المناورة معـه وما عليهم إلا الاذعـان والتسليـم .. ولم يكن أمـام شـوقـى سـوى أن يهم بتحصيل مبلغ الخمسين جنيهـا من زملائه وبمجرد أن أومـأ اليهم بادر الرفـاق بمناولتـه اياها واجتمعت كلمتهم على الموافقـة وسلمها بكـاملها لـلأعرابـى الذى أعـاد عـدها والتتميم عليهـا وبعـد أن اطمأن لاكتمالها استأذنهم فى الابتعـاد عـدة خطوات وقـام بـربطهـا ووضعها فى حفـرة صغيرة وضع فوقها حجرا مميـزاً من المنتشر بالمنطقة وعاد اليهم ينبئهم أنه على أهبة الاستعداد للبدء.

كان لابد أن يتحـاور همام عين الجماعة أكثر أفرادها إلمامـا بالملاحة البرية مع الإعرابى ويتفهم منه وجهتـه حتى لايفاجأ الجميع بوقوعهم فى قبضة اليهود وانتهاء أملهم فى البقاء وبادره همام صف لى يا أخا العرب ماذا أنت فـاعل بنا وفى محاولة لترضيتـه وعدم اغضابـه أردف قائلا .. نحن لانتشكك فى قدرتك بل لعلنـا نثق تماما فيها لكن من بـاب التشاور نود أن تشـارك الرأى وبعـد أن نقتنع لن يكون لنـا معك أى اعتراض أو مقاومة ودون أى اكتراث أو أى تـردد تحدث الأعرابى وقد اطمأن إلى أن المبلغ الذى تقـاضاه لن يصل العفـريت إليه بعـد أن اخفاه فى الـرمال ..

وهذا كل مايعنيـه لايهمه أى شىء سواه وحتى لو أنهم تعـرفوا على خط السير وأرادوا أن يقطعوه بمفردهم فيلفعلوا ويكون قـد فاز هو بالمكافأة دون أن يبـذل أى جهد أو مشقـة .. انتم الآن تسيرون بمحازاة الطـريق الشمالى فى اتجاه القنطرة .. ومـادام القنطرة قـد وقعت فى قبضـة اليهود فهى اذن لاتصلح الآن لاستقبالكم

وما علينـا إلا أن نغير خط السير تماما ونتحـول بمحازاة القنـاة بعد أن نقطع الطـريق الشمالى فى اتجاه بـورفـؤاد وأردف الاعـرابى وكأنـه يشرح خطة عمليات كاملة .. أمـامنا الآن تحفظان الأول أن نقطع الطريق الشمالى قبل حلول النهار حتى لاتكون قـافلة الشمال اليهودية التى تقل الأسرى إلى المعتقـلات فى طريقهـا صـوب العـريش .. ثـانيا أن نتفـادى المشى فى الملاحـات حتى لا تستنزف الجزء الأكبر مـن طاقتكم وتبعثـر جهدكم وحاوره همام اذن بورفؤاد مازالـت صامدة تقاوم اليهود .. قال الاعرابى وكأن شيئـا لايعنيه اليهود لم يحاولـوا اصلا اقتحام بـورفؤاد ولعل هـذه المدينة فى حمايـة الملاحـات والأرض الغرز المنتشرة حـولها.. اليهود يدركون تماما طبيعة وطبوغـرافية المنطقة انتشروا بدباباتهم فقط على ضفـة القناة الشرقيـة وابتعدوا عن منـاطق الغرز حتى لا تتعـرض دبابـاتهم لأى خسائر .. وواصل همام استفسـاراته .. وكـم بيننا وبين بـورفؤاد؟ ليس أقل من سبعين كيلـو مترا هكذا رد الأعـرابى باقتضـاب أولا هناك عشرة كيلو مترات أو تزيد قليلا بيننا وبين الطريق الشمالى ثم بعد ذلك مايقـرب من ستين كيلومترا أخرى بين القنطرة وبـورفؤاد قالها الأعرابى واضعـا فى اعتباره انهم سيسلكـون طرقـاً ممهدة وأن هـذا قد يزيد المسافة طولا .. ونظر همام إلى رفـاقه وكأنه يقول بعينيه إنه مقتنع بما قاله الرجل شريطة أن تكون معلـوماته صحيحة فبعد الأيام العجاف التى أمضـوها فى قطع المسـافـات الطويلـة سيرا على الأقدام والاخطـار والأهوال التى صـادفوها لم يعـد لديهم ثقة فى أى شىء سـوى فى قدرة الله وعنايته ولطفـه بمجموعتهم والذى ابقاهم حتـى الآن على قيد الحياة والا لكانوا جميعاً من الهالكين .

عقد الـرفاق الخمسـة اجتماعاً مغلقـاً مستغلين انشغال الاعـرابى فى احـاديث جانبيـة مع الجنود ليتـدبروا أمـرهم ويحسموا كلمتهم .. فقـد كانت الخطوة التاليـة تعنى الكثير .. لم يكن المبلغ الضـخم الذى تقاضاه الأعرابى يشكل أى أهمية لهم، انعدم احساسهم بقيمة الماديات بل لعلهم شاهدوا أمير السبكى وهو يصنع لفـائف التبغ بلف بعض الدخان الذى حصل عليه من العرب الرحل بـورق الجنيهات الخضراء .. كان احتياجه للتدخين يفـوق حرصه على الأوراق الماليـة التى لاتشكل بالنسبـة له أى مقابل.. انها مجرد أوراق لاعائد منها ولافائدة لها لكنهم يودون مراجعة معلوماتهم للتأكد من سلامـة تحركاتهم صوب بورفؤاد .. لم يكن همام أكثر منهم درايـة أو معرفة بعـد أن بلغوا هذا المنعطف واضطـر صلاح للتدخل مادمنا جميعا نستوى فى الجهل بطبو غرافية المكان فليس أمامنا إلا أن نعقلها ونتوكل .. فلن يكون تحركنا هو أسوأ ما تعرضنا له خلال مسيرتنـا على الأقل أنه أفضل من الاستسـلام وليس أمامنـا سبيل غير الاعتماد على هذا الاعـرابى الجشع ونسلم له قيـادتنا .. من يـدرينا لعل الله ارسلـه لنا لينقـذنا ممـا يحيق بنـا ولاتدركـه بصائرنـا .. واجتمعت كلمتهم على أن قيـادة الأعـرابى لهم فى الفترة القـادمـة ليس لها بـديل.. وكـان الـرجل قد دنـا منهم والشمس قـد مـالت للمغيب واختفى بـريق أشعتها وتـوارت أضواؤها فى الشفق الأحمر الـداكن فأحالت الـرمال إلى حمرة مصفرة أشبه بمناجم الحديد..

تحدث الأعرابى بعـد أن انتصب أمامهم وسألهم هـل أنتم مستعدون يا رفاق ؟ورد الجميع على بـركة الله فلنبدأ مسيرتنا ولنتـوكل على مولانا وهـادينا وتقـدم همام إلى الأمام فى محاولـة للمشـاركة فى القيـادة لكن الأعرابى قال له لن تجديك بـوصلتهم ولن اعتمد على معداتك هى لك أما أنـا فيكفينى النجمات السـاطعـات والتى ستتـلألأ فى كبـد السماء بعـد سويعات قليلـة .. ومضى الجميع تحفهم عناية السماء وترعـاهم بركات الرب ويتوجهون بقلوبهم إليه أن يمنحهم التوفيق فى المرحلة الأخيرة من مشوارهم الشاق.

حب .. وحرب ١٦

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧

الثلاثات

الملاحقات

تسرب إلى شوقى احساس باليأس وهـو يستسلم إلى العقبة الكئود التى حـرمتـه من قطع الخطـوات القليلة التى تفصلـه عن منـزلهم والمتمثلـة فى السرادق الضخم الذى أقيم أمامه.. وتضاعف هذا اليأس عندما فشل فى فك رموز الطلسـم وتحديد شخصيـة الفقيدة بعد أن تضـاربت الاستنتـاجات وتداخلت التوقعات وتعارضت المشـاهد.. مرة قطع بأن شقيقته الكبرى هى التى أقيم من أجلهـا السرادق الشاهق ومـرة أخـرى تصور أنها الصغـرى ومع حيرته فى تحديـد شخصية الفقيدة ومع استسلامـه للبقاء فى وقفته إلى أن ينفض جموع المعـزين من تأديـة واجب العزاء انطلـق خيالـه فى اجترار ذكريات المشـوار الرهيب والاخطار التى صادفتهم مـع كل لحظة مروا بها إلى أن اسلمـوا قيـادتهم لـلأعـرابى وغيروا من مسـارهم ليكـون اتجاههم صوب بور فؤاد بدلا من القنطرة.

استمـرت الجماعة على سيرهـا منـذ الغـروب وحتى فجـر اليوم التـالى لم تتوقف إلا للحظـات لتبادل الرأى والمشورة.. فقد كـان من المفروض أن يعبروا الطـريق الشمالى فى جنح الظلام قبـل أن يطلع النهار حتى يتفـادوا مـواجهة تحركـات اليهـود النشطـة التى تبدأ منـذ الصبـاح البـاكر عليـه وبحسبة بسيطة ومع التسليم بأن المسافة التى كانت تفصلهم عن الطريق الشمالى لاتزيد عن عشرة كيلو مترات فقد كان عليهم إذا صحت وجهتهم أن

يعبروا الطريق فى تمام الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.. إلا أن هـذا لم يحدث وقد قـاربت الساعـة الخامسـة وأصبح النهار على الأبـواب وبات وقـوعهم فى أيدى اليهـود أمرا متـوقعا فيما لـو استمروا على سيرهم دون توقف.. وتدخل صلاح وقال لـلأعرابى أراك قد ضللت الطريق وحدت عن الاتجاه السليم وإلا لكنـا قد عبرنا الطـريق الشمالى منذ مـدة.. وقبل أن يرد الاعرابى عـاجله همام قائلا اننا نحاسبك على اتفاقك معنـا لقد قلت اننا سنعبر الطـريق الشمالى ونحن نسير فى محازاة القنـاة فى اتجاهنـا صـوب بـورفؤاد.. وبما اننـا لم نكن نبعد عـن الطريق سـوى بضعة كيلـو مترات فمالنا لم نعبره حتى الآن؟ وتلعثم الاعرابى ولم يحر جـوابا.. فأدرك الرفاق أنهم تاهوا بين التبـاب والكثبان الرملية المتماثلة خاصـة وأن الاعرابى كان يفضل السير نهارا غير انهم أصروا على اتبـاع أسلوبهم التقليـدى فى الخلود إلى الـراحـة نهارا والسير ليـلا احتماء بستره وتفـاديـا للعطش الـذى قـد يصيبهم لفقدهم لكثير من العرق خلال السير.

وللمرة الثانية استرد صلاح القيادة من الاعـرابى وقال لرفاقه فلنتوقف فى مكـاننا ونمضى بقيـة النهـار فيه لاننـا لانضمن عـواقب استمرارنـا فى السير.. من الـواضح ان اخانـا الأعـرابى قد تـداخلت عليـه الهيئات وفقـد اتجاهه الصحيح وحتى نبتعـد عن المحظور فلنفكـر فى كيفية تهيئـة المكان لاستقبالنا طوال ساعات النهار وحجب أشعة الشمس عن أن تلفح وجوهنا وأجسامنا خاصة وقت القيلولة التى لاتطاق..

وبدأ كل عضو فى المجموعة يفكر فى قرار صلاح وبسرعة طافوا فى المكان يبحثون عن شىء يحميهم من حرارة الشمس.. وتحدث همام قبل أن يبتعد الرجال عن المكان سنحفر عدة حفر مستطيلة الشكل بحيث تكفى كل حفرة لشخصين معـــا.. ولنبحث فى المنطقـــة عن بعض الشجيرات «وكـــدى الحشيش» وهى نـوع من أنواع الزرع يطلع عشـوائيا بـالصحراء وشـديد الشبه بـورد النيل ينمو ويتكـاثر تلقـائيا على صفحتـه لتغطية الحفـر بعد الـولوج فيهـا.. وبذلـوا كثيرا من الجهـد فى البحث عن مواد تصلح لتغطيـة الحفـر التى ستـؤويهم طـوال نهارهم إلا أن جهـدهم راح سـدى فلم يكن

بـا المنطقة مـايمكن الاعتماد عليـه أو الركـون إليـه.. اختار كل اثنين حفـرة صغيرة تم حفـرها على عجل وقـاموا بتغطيتهـا ببعض الحشائش بسرعـة فـائقة وقبـل أن تقهر أشعـة الشمس المضيئـة عتمة الليـل الداكنـة تحول الرجال إلى عدة قبور اختيارية ضم كل واحد منها فردين.

اختـار صلاح لـرفقتـه همام.. واستسلم شـوقى لحضن رستم وسكن أمير خاضعـا لظلم الاقـدمية إلى صدر الـرقيب عبد القـادر برغـم اختلاف المشارب والابعـاد.. واطمأنوا إلى أن الاعرابى قـد قبع فى حضن فرغلى دون مقاومـة حتى لايطلق سـاقيه للـريح بعد أول عقبـة صادفتـه فى قيادتهم.. وقبل أن يتـوارى الفجـر وتصدح أشعـة الشمس تعلن عن انبـلاج النهـار استسلم الرفـاق لحالة من السبات الاجبارى تفـاديا من مواجهات قـدرية ليس لهم قبل بمواجهتهـا.. أشعة الشمس الملتهبة فى هـذا التوقيت الصيفى الحار والتى كادت من قبل أن تودى بحيـاتهم عطشا وظمأ على مشارف بير العبد واليهود الـذين يتحولون مع بداية الصبح إلى خـلايا دؤوب تتحرك فى كل اتجاه لتعزيز مواقعهم وامداد رجالهم باحتياجاتهم الأساسية.

قطع سكونهم العميق صوت أشبه بالصراخ.. النجدة.. النجدة.. فلتهبوا من سباتهم أيها الرفاق.. فلتلحقـوا أنفسكم قبل أن يحيق بكم خطر مؤكد.. انكم على مشارف الأسر.. انكم تنامون على فـوهة بركان.. وانتفض الجميع خـارجين من قبـورهم الاختيـارية لتلمس الأخبـار والـوقـوف على دوافع الصراخ.. ويالهول مـا رأوا.. وجدوا همام وقد وقف مذهـولا لايقوى إلا على أن يشير بـاصبعـه صـوب الغـرب.. التفتـوا إلى حيث أشـار.. لم يكن من الصعب عليهم أن يتبينـوا الخطـر الفظيع المحدق بهم.. رأوا أنهم اختـاروا قبورهـم فى جنح الظلام وهى لاتبعـد خطوات قليلة من الطـريق الشمالى.. نعم انه الطـريق بامتداده الـداكن وأعمدة التليفـونات المصطفة على جـانبه الأيمن وأعمدة الاضـاءة المنتشرة حول ضفتيه وأرضه الاسفلتيـة اللامعة.. جاءت صرخـة همام عندما هب من سبـاته بعد أن اكتشف انـه نسـى قضاء حاجتـه قبل أن يركن إلى حضن صـلاح.. وكان الصبح قد بـدأ نشر أشعته فشملت المنطقة وأوضحت الرؤية .

وبدون اتفاق وبـلا قرار هرع الجميع يجرون بلا تـدبر أو ترتيب الكل يجرى بكل طاقته وبأسرع مايمكن ليتوغل الناحية الأخرى من الطريق قبل اكتمال ضوء النهار حتى لايراهم اليهود وهـم فى طريقهم مع قافلة الصباح المتجهة مـن القنطرة إلى العريـش.. تساوت الرؤوس فى سبـاقهم هربـا من شبح الأسر وبحثـا عن النجـاه.. الكل يحاول أن يحقق الـرقم القيـاسى فى السرعة ليفلت بنفسه من مرمى نيران اليهـود لو أنهم أدركوهم.. ربما كانت المسافـة التى قد تنقـذهم من نيران اليهود مجرد خطـوة ينأوون بها خارج مـرمى النيران.. ظلوا على جـريهم دون ابطـاء.. الـروح غاليـة.. وجميعهم يتمسك بأهـداب الحياة.. سبحان الله وجل شـأنه.. من شاهـدهم وهم على هذا النحو من الفـزع والهلع لايتصور أنهم منذ فترة ليست بالطويلـة كانوا قد قـرروا الانتحار.. كان أقـربهم إلى شاطىء النجـاه معظم الجنود ومعهم على نفس الخط رستم ذو القوام الريـاضى المشوق والنفس الطويل فأمير ويأتى بعد ذلك كل من صلاح فهمام واحتل مؤخـرة السباق شوقى بساقه المعتلة وبرفقته الاعرابى المرهق من فعل المشوار الذى قطعه من قبل.

ظلت المجموعة تعدو منذ الساعة السادسة صباحا وحتى التاسعة وهى لاتصـدق أنها أصبحت فى مأمن.. ولم يتـوقف أحـد منهم عن العـدو حتى أيقنـوا أنهم خارج مـرامى كل الأسلحـة الصغيرة لليهود ولكن لايضمنـوا مطـاردة عـربـاتهم الجيب المجهـزة بمـدافع رشـاشـة اذن لايجب عليهم التوقف.. فليستمـروا فى الجرى لفترة أخرى حتى بعد أن خـارت مقاومتهم وضعفت قـدرتهم على الاستمـرار.. فجأة وجـدوا أنفسهم وسط مـلاحـة.. تغوص أقدامهم فيها أكثـر من نصف متر.. تتحطم القشرة الرقيقة العليا لها تحت وطأة ثقلهم وتصطدم أقدامهم بعد أن تقطع هـذه المسافة خلال المياه الملحية بنتوءات صلبة أشبه بالمسامير.. ومع كل خطوة ومع كل حركة تنال تلك المسامير من أقـدامهم فتدميها.. أصبح الـرفاق يتحركون وسط بـركة من الدماء.. اختلطت دماؤهم بالميـاه الملحة فأحالت لونها الأبيض إلى حمرة داكنـة.. وتغلغل الملح فى خلايـاهم فأصابهم بـالألم غير المحتمل.. ومع كل هذه المعاناة.. ومع هذه الآلام الفظيعـة لم يتوقف الركب إلا بعد أن انتصفت

الشمس كبد السماء.. استحـالت الحركة مع هذه المقـاومة الحادة.. لم تكن مســامير الملح هى العـائق الـوحيد أمـام استمـرار سيرهم.. وإنما تأثـرت أقدامهم بالمياه الساخنة من حرارة الشمس .. ومع سخونة المياه والجروح التى مـلأت أقــدامهم.. التهبت سيقـانهم واحمرت وبـــات عليهم ضرورة التصرف حيال هــذه المستجدات التى لايمكن مـواجهتها.. هذه الصعـوبات التى حالت دون استمرار تقدمهم وتعذر معها سيرهم صوب بور فؤاد..

كان الاعـرابى هو الـوحيد بينهم الـذى لم يتأثر بفعل النتـوءات المحلية وسخـونة الميـاه ..حبا الله قـدميـه بطبقة تستطيع مقـاومة أى شىء.. لقـد قطعت هذه الأقدام مئات الكيلو مترات دون كلل أو شكوى..

باتت قدماه أشبه بخف الجمل الـذى يحمى أرجله من الغوص فى الرمال الناعمــة والتأثـر بسخونتهـا المحرقة.. كـان الاعرابـى يحاول قدر طـاقته التخفيف عن بقيـة الرفـاق تصور أنه المسئـول الأول عن سلامتهـم.. هو الذى أوقعهم فى هــذا المطب غير مأمون العواقب كان أرحم لهم مـواجهة أى شىء ولـو حتى أهوال الأسر بمعسكـرات اليهود ومعتقلاتهم عـن التعرض لهذه الآلام غير المحتملة.. أصبح مـن المألوف أن يطلق كل فـرد فى الجماعة صرخة ألم وصيحة جزع مع كل خطوة يخطوها.. وتبادل الرفاق الصرخات وأصبحـوا يسيرون على مـــارشـــات ونغمات حـــادة تنطلق من أعماقهم فى محاولة للتخفيف عـن معاناتهم الـرهيبة.. كـان همام أشدهم ألما وبـالتالى أكثرهم وأعـلاهم صياحا.. ومع أن بقية الـرفاق لم يكونوا أقل منـه تعرضا لمأســاة السير فى الملاحـات بأقـدام حـافيـــة فى هــذا الـوقت القـائظ إلا أن صرخاتهم كانت أكثـر خفوتا. وأمام هذه الصرخات والتأوهـات قرر صلاح التوقف ولو للحظات لامعان الفكر بعد استحالة الاستمرار..

ظل كل منهم فى مكانــه بعد أن تعـذر عليهم الاقتراب.. كل خطوة أصبح لها ثمن.. وكل حركة كانت تعنى مـواجهة المزيد من الآلام والتعرض لجراح وأوجـاع إضـافيـة. لأول مـرة يتبـادل الرفـاق المشـورة بـالصوت العـالى والاشـــارات ماذا نحن فـاعلـون وكيف التصرف حيال هــذا الموقف الحرج وقبل أن يتحدثوا بادرهم الاعرابى مـؤكدا أن مابقى أقصر كثيرا مما قطعوه

وأنهم واصلـون لغـايتهم ببورفـؤاد لـو أنهم تـذرعوا بـالصبر وتسلحـوا بالمقاومة.. ورد عليـه صلاح أية مقاومة أيها الوغد لم تـذكر فى اتفاقنا معك اننا سنتعرض لمثل هذه المشقة وهـذه الآلام المبرحة بل لعلك حددت بلسانك أنك ستجشمنـا مشقة السير فى الملاحـات خاصـة وأننا غير مسلحين لهذه الآلام.. فقد تخلصنا من أحذيتنا منذ بدأنـا مشوارنا.. ولم يبق أمامنا مانقى به أقدامنا من مغبة هذه الأوجـاع المرعبة.. ان جراحنا رغم انها غير غائرة إلا انها كثيرة وتنـزف دماء غـزيرة وهـو مـاقد يعـرضنا للفنـاء قبل أن نصل لهدفنا الـوهمى الذى حـددته.. حـاول الاعرابى تبريـر موقفـه لكن كلماته تهاوت وسط صيحـات الــرجـال ومع ذلك أصر على الكــلام ليس بهدف اقناعهم بســلامة موقفه وإنما خـوفا من تعرضــه لبطشـهم وانتقامهم وهم يتعـرضون لهلاك مـؤكـد.. لاتنســوا أن خوفكم بعـد أن اكتشفتم نـومكم بالقرب من الطريق جعلكم تجرون مذعورين دون تحديد اتجاه أو الالتزام بهدف.

وكان من الصعوبة الفائقة السيطرة على تحرككم أو التأثير فيكم.. ولقد حاولت مرارا توقيفكم لتعـديل اتجاهكم لكن ذهبت محاولاتى ادراج الرياح وليشـهد على الأخ شوقـى الذى كان يجرى إلى جوارى بسبب سـاقه المعتلة وشـهد شــوقى فعلا بما ساقه الاعـرابى من تبريرات وأكد أن الـرجل حاول لكن محاولاته ذهبت ســدى بسبب الفزع الذى استـولى على النفوس والهلع الذى حاق بـالرفاق.. ورغم صيحات الألم ورغم الأوجـاع التى فاق تأثيرها قوة تحمل البشر.. قال صلاح فلنفكـر فى كيفية تخفيف آثار الجروح وتقليل النزف منهـا لمزيد من المقاومة والبقـاء.. وبمجرد انتهائه من عبارتـه صاح أمير أيها الرفـاق لماذا لانقوم بـربط رجلنا كما يـربطها عمال الأسمنت وهم يصنعون خلطة «المسلح»، ان هذه الربطة تحول دون تأثر أقدامنا بنتوءات الملح وتقلل التهابها بفعل الميـاه الساخنــة لدرجة الغليـان ورد رستم وكان أقربهم لموقع أمير.. ولكن من أين لنا هذه الأربطـة وكيف نوفرها ونحن على هذه الحالة من العجـز.. وكأن أمير كان يتوقع مثل هذا الســؤال وأعد نفسه للرد عايـه.. ليس أمامنا الآن إلا مــلابسنا.. ومن حسن حظنا أن ثيـابنا من

قماش سميك النسيج قوى التحمل.. وقبل أن يتم تنقيح الفكـرة أو التحاور بشأنها بادره أمير سأصنعها لنفسى وما عليكم إلا تقليدى أو الاستمرار فى مواجهة الآلام.. وقبل أن يكمل عبـارته صدرت منه صرخــة مدوية تعبر عما شعر به من صــدمة عندما استسلمت مقعدته للمياه الســاخنة وهو يجلس عليها لــربط قدميه «بسترة الأفــرول».. استمر أمير فى ربط قــدميه وتحمل الآلام الفظيعة التى ألمت بمقعدته بفعل الميـاه.. إلى أن انتهى من تنفيذ فكرته تنفس الصعداء واعتـدل واقفا وابتسم لزملائه قائلا: لم تصطـدم مقعدتى من قبل بهذه السخـونـة الشـديـدة.. وأنتم تعـرفـون أيها الـرفـاق مـدى حساسيــة هذا المكـان بل ومدى أهميته ولم يستطع الـرفاق منع ابتســامة باهتة علت شفاههم ـ شر البليـة ما يضحك ـ وكان عليهم أن يأخذوا العبرة من أمير. فقد كان لــه بعض الأفكار النيرة التى توحى بذكاء فطـرى شديد.. لا بأس من ربط الأقــدام بالأفــرول وربما علت هذه الأربطة لتحمـى أيضا السيقان حيث تهبط بهم القشرة الـرقيقة من الملح المتماسك إلى عمق نصف متر فى الميــاه الساخنـة.. لكن فلنتعــاون فى مساعـدة القـائم بالـربط حتى لايضطر إلى الجلوس على المياه التى تغلى فتلهب جلد مقعدته الحساس..

وبـدأ أمير يتنقل بينهم ومعــه الاعــرابى ذو القـدمين اللتين حبـاهما الله بجلد سميك لايتأثــر بهذه الدرجة التــى تأثروا هم بها لمساعـدة القائم على لف قدميه بــالأربطة.. هم يسندونه وهو واقف على قدم واحــدة وهو يمزق ثيابــه إلى أشرطة طوليــة ليقوم واحد منهم بالــربط.. وبعد عدة دقــائق كان الجميع أشبه بعمال التراحيل أو مــا يسمونهم «الفــواعلية» الــذين يخلطون الرمال مع الاسمنت والمياه والزلط لصنع خلطة المسلح.. واستعدوا لمعاودة المسيرة لكن بسرعة أقل وخطوات وئيدة متثاقلة.

ومــاهى الا خطـوات قليلــة إلا وتوقف الـركب.. لقــد حلت أربطــة أمير صــاحب الابتكار الفـريد غمـرت الميــاه الأربطة وتخللهــا الملح فزاد ثقلهــا وانفكت من القدم وكان لــزاما على المجموعة أن تسير عــدة خطوات لتتوقف لحظات ريثما يصلح أحدهم ربطة قدمــه ويحكم وثاقها على رجله ومع أنهم جميعا قد استسلمــوا لتنفيذ فكرة أمير بشد الأربطــة على الأقدام غير أن هذا

لم يقلل من صراخهم مع كل خطوة وصياحهم مع كل حركة.

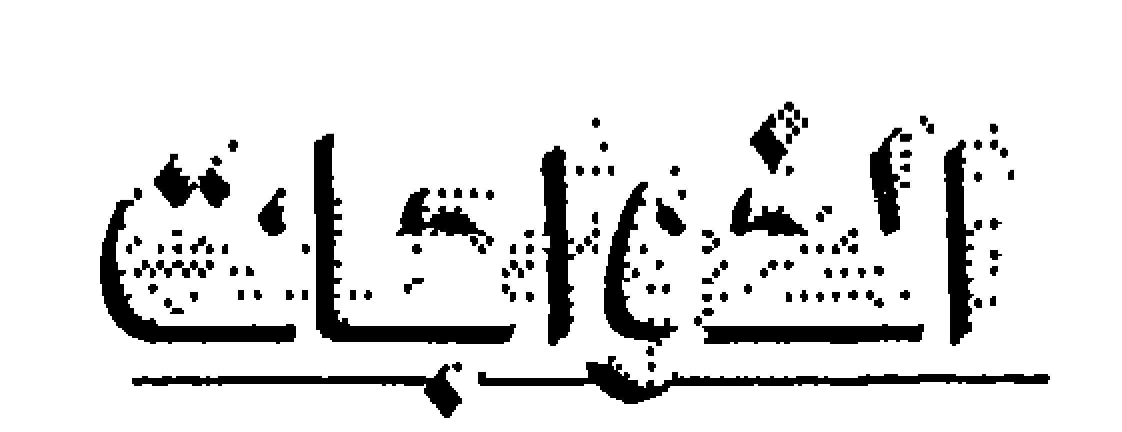
أصبح الرفـاق كالغرقى.. لاهم قـادرون على الاستمرار فى السير وسط هذه المياه الساخنة والنتـوءات الملحية الصلبة.. ولاهم بمستطيعين التوقف لانـه يعنى استمـرار النـزف وزيـادة الالتهـــابـات كما أن التـوقف يعنى الاستسلام الكامل والموت غرقا فى الملاحـات.. ومع تأزم موقفهم وصعوبة مايـواجهونه من عـراقيل تسرب اليأس من جديد إلى نفـوسهم وسيطر على عقولهم..

لم ينهزم الرفاق من قبل كما انهزموا أمام هذه الملاحة اللعينة.. قاتل الله الاعـرابى واليـوم الأسود الـذى ســاقتــه إليهم فيــه الأقدار.. هــذه نهايــة الاستسلام للجهل.. انها نهايـة من يسلم قيادتـه إلى شـخص أحمق لم يدر عنه من قبل شىء لم يقدهم كما وعدهم إلى مـرفأ النجاة وبر السلامة.. بل دفع بهم إلى مستنقع الهلاك وهــاويـة الندامــة.. وعنـدمـا وصلوا إلى هــذه المرحلـة من التـدنى الفكـرى نظـر جميعهم إلى قـائدهم الاعـرابى الأحمق واتفقت أعينهم وهى تنظر إليـه أن لابد من الانتقام منـه قبل أن يستسلموا لأقـدارهم ويلقوا حتفهـم.. لابد أن يكـون أول ضحـايا الملاحــة.. يجب أن نحـرمــه من الاستمتـاع بأمـوالنا انــه لايستطيع أن يعيـدهــا إلينــا وحتى لو أعـادها فلن نستفيد منها.. اننــا لن نقاوم ولن نستمر طـويلا : إن شبح الموت يخيم علينـا.. ان عـزرائيل يرفـرف حـولنـا.. انه يستعـد لان يــزف أرواحنا إلى قبضتــه.. كم هو سعيـد لان هذا العدد الكبير سيـواجه النهــاية المحتومة.. النهايـة التى هربوا منها مرارا منذ أن وطأت الدبــابات اليهودية هامات الـرجال ومروا بالألغام والظمأ والجوع ومـواجهة الضوارى ونيران مـركبات اليهـود الطــائشـــة ثم التيه عبر الصحــراء وغير ذلك من صنـوف العذاب وأنواع الأهوال التى تقود إلى الموت حتما.

حب .. وحرب

٢٢

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧



الغواصات

مع مرور الوقت زادت سخونة المياه بفعل أشعة الشمس الحارقة حتى قاربت درجة الغليان وتوغل الملح وأنساب مع الدماء عبر الشرايين يلسع الشعيرات الحسية فيحيلها إلى كتلة من النيران الملتهبة.. وكلما وضع أحد الرفاق قدمه على الأرض مع بداية خطوة جديدة انطلقت صرخته مدوية من لسعة الألم.. وكلما جلس فى محاولة إصلاح ربطة قدمه صاح بجزع.. تأثرت مقعدته بسخونة المياه.. وأصبحت الصرخات تتوالى مرة بسبب آلام الأقدام والسيقان والمرة الأخرى بسبب حرقه المقعدة.. ومع كل هذه الأهوال لم تتوقف المسيرة.. كان تحركها أشبه بتحرك السلحفاة لكنه تحرك والسلام.. ولم يستسلم الرفاق بعد ولم تنفد عزيمتهم ولم يسيطر اليأس على قواهم.. استمرت هذه العلقة الساخنة من العاشرة صباحا وحتى الرابعة بعد الظهر.. تصور الرفاق أنهم ساروا مسافات بعيدة، أنهم قطعوا ضعف المشوار الذى يفصلهم عن بورفؤاد.. لكن الحقيقة كانت مخالفة تماما لما تصوروا.. فالمسافات يزداد الإحساس بطولها مع اختلاف الظروف المحيطة سواء أكانت ليلا أو غرزا أو خلافه.. فما حالهم وهم يقطعون تلك المسافات فى أقسى وأقظع ظروف ممكن يواجهها إنسان.

كانت صرخاتهم تشق عنان السماء وتتردد أصداؤها تعلن عن شدة

الآلام وقسوة الأحاسيس كانوا يطلقونها من أعماقهم ويتخففون بها من بعض مـا ألم بهم وجثم على صــدورهــم.. ومن فـرط معـانـاتهم زاغت أبصارهم واهتزت الرؤية أمـامهم.. وفوجئوا برجال انشقت الأرض عنهم يجرون نحـوهم وقـد ارتـدوا «بـرانيـط»: فـوق رؤوسهم «وتـزالك» فى أقدامهم كـان الرجال يهرولـون بسهولة تجاههم فى هـذه الأرض المهلكة بعـد أن وقــوا سيقـانهم بهذه الأحـذيـة ذات المواصفــات الخاصــة .. صدمتهم المفاجأة وسيطر الرعب على قلوبهم.. إن هذا النهار الذى قارب على نهايتـه لهو أســود نهار مر بهم منـذ أن بـدأوا مسيرتهم.. بل لعلـه أسود كثيرا من نهار الخامس من يونيو الكئيب.. أبعد هذه المعاناة وهذه الملحمة الـرائعة من الصبر العميق وقوة التحمل والثقة فى عنـاية ورحمة السماء بالعبـاد يقعون فى الأسر.. لاشك أن هؤلاء الـرجال الـذين يعدون نحـوهم ولا تفصل بينهم سوى بضعـة أقدام من اليهـود.. من يمكن أن يرتدى البرانيط سوى الخواجات الملاعين من اليهود وهذه «التزالك» من يستطيع أن يقى بها قـدميـه سوى أفـراد القـوات المسلحة الإسرائيليـة الذين تجهزهم الولايات المتحدة الأمريكية بأحدث المعدات الفنية.. بسرعة عملت الأذهـان واشتغلت الأفكـار وسيطـر الفـزع والـرعب وجثم الأسر بأهـواله وقظـاعتـه على العقـول فلم تجد منجى أو مهربـا من كل هـذه الأثقـال ســوى الفقـد الاختيار للـوعى وهى حـالـة نفسيـة تنتـاب من يتعـرضون لكـوارث لحظية فجـائية.. وقـد تتصاعـد حدة تأثير الحالـة فتودى بـالحياة ويفقد معهـا الإنسان روحه.. غـاب الرفـاق عن الوعى وراحوا فى سبـات عميق من هول الصدمـة وكاد بعضهم يموت غـرقا فى مياه الملاحة قبل أن تمتد إليهم أيدى الرجال القادمين نحوهم.

واجـه رجال قنـاة السـويس العـاملين بمنطقة الكـاب وهى محطـة بحريــة فى وسط الطريق بين القنطرة وبـورسعيد مشقة بالغـة فى القيام بمهمة إفـاقة أعضـاء الجماعة المغشى عليهم ولم يـدركوا للـوهلة الأولى ماسبب هـذه الظاهرة الجماعية الغـريبة.. لولا أن الأعـرابى ظل محتفظا بتماسكه وهدوئه وقال لهم لقد ظنـوكم من اليهود وتصوروا أنهم وقعوا

فى الأسر الذى حـاولوا تقـاديه منـذ بدأوا مشوارهم.. لم يكـن مع رجال هيئة القناة مواد إفاقة ولم يجدوا مندوحة فى استخدام الأساليب البدائية فى الصفع الخفيف على الـوجه ودعـك الجفون أسفل الأعين ورش الميـاه الباردة التى حملوهـا معهم على وجوه القوم لافاقتهم بـدلا من الاحتفاظ بها لتروى ظمأهم.

استغرقت عملية افاقة رجـال المجموعة فترة ليست بالقصيرة. وكان الأمر الغـريب أن ينتاب بعضهم إغماءه تاليـة بمجرد افاقتـه فى محاولة لاإرادية للهروب مـن هول مايراه بعد أن تصـور أنه وقع فى الأسر.. ولم يأخذ الـرجال العاملـون بهيئة القناة أى فـرصة لإثبات هـويتهم وتأكيد حسن نوايـاهم وحرصهم على إنقـاذ رجال المجمـوعة.. كـانوا قـد أهلوا أنفسهم على تحمل هذه المهمـة الصعبة وأنجزوها بنجاح عـدة مرات من قبل مع زمـلائهم الشـاردين الذين وصلـوا قبلهم ومنـذ وضعت الحرب أوزارها وواجهت القوات المسلحة المصرية الشتات فى صحراء سيناء.

لم يصدق الرفاق أنفسهم وهم محمولون على ظهور العاملين بمنطقة الكاب بهيئة قنـاة السويس كان هؤلاء الرجال يقبلـون على القيام بنجدة الرفـاق وكأنهم يقدمـون قربانـا يدخلهم الجنـة ويمنحهم رضوان الله.. أمطروا مسـامعهم بعبارات الإشـادة والمديح ونعتوهـم بألقاب البطـولة والفروسيـة.. لحظة لايمكن لأحد وصفها.. لايمكن تسجيلهـا.. لحظة هى بـالعمر كلـه.. أغلى من ذلك بكثير.. أخيرا شملهم الله بـرعايتـه وخصهم بعنـايتـه.. إنها حقـا معجـزة بجميع المقـاييس والمعـايير.. بل لاشك أن استمرار حيـاتهم مع ماتحملـوه من أخطار ولاقـوه من آلام معجزة وأى معجزة.. ان عظمـة الخالق أن يجرى معجزاتـه على أيدى رجـال بسطاء ليس لهم سلطة ولاجـاه.. وصدق رسـول الله إذ يقول: «رب اشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره».

حمل كل رجل من هيئـة القناة واحـدا من أفـراد الجماعة على ظهـره وقطع به المسافة العرضية التى تفصلهـم عن حافة القناة.. ولم يصدقوا أنفسهم أن الله أنقذهم من هذا المستنقع الذى كاد يقضى عليهم.. وجدوا

قــوارب ولنشات راسيــة على الشاطىء الشرقــي للقناة.. أنــزلوهم إليهـا بــرفق وحرص شــديــدين.. كانت الــدمــاء تنزف من جــروحهم المنتشرة بأقدامهــم وحتى أعلى الفخذين كانــت جلودهم أشبه بلــون الطماطم من أثر الالتهاب.. لم يقو أحد منهم على أن يضع قدمه على حافة القارب من فــرط الإرهاق.. ارتموا كــالجوالات وحــرصــوا فقط على تغطية عــوراتهم بأيــديهم بعــد أن استنفدوا ثيــابهم فى ربط سيقــانهم وأرجلهم ولم يبق منها سوى الغيار الداخلى السفلى.

تحركت اللنشات حــاملة الــرفاق صــوب معسكر الكــاب على الضفة الغــربية.. أنعشتهم نسمات الهواء الــرطبــة وشحذت أفكــارهم ودفعتهم لتخيل ماهم عليــه الآن.. لايمكن أن يصدقوا أعينهم كانــوا يتخيلون تلك اللحظــة وكأنها حلم بعيــد المنــال.. بل هــو معجــزة لايمكن أن تتحقق.. وكيف تتحقق وقــد ضرب اليأس أطنــابــه بينهم وسيطــر على مقــدراتهم وأحــال عــزيمتهم إلى وهن وقـــدرتهم إلى هــزال وتصميمهم إلى خيــال.. أقلتهم اللنشات سريعــا إلى استراحة هيئة قنــاة السويس بمحطــة الكاب حيث استسلموا لفريق من الأطبــاء وبعض الحكيمات استقدمتهن الهيئة من الإدارة الطبية المركزية لهذا الغرض.. أخذ الرجال والسيدات يطيبون جراحهم ويضمــدون قروحهم ويلفون سيقــانهم وأقدامهم بعد إضــافة المساحيق والــدهانات المطهرة.. كــان الرفاق يخجلون من الظهــور أمام السيدات دون أغطية وقد كشفت عوراتهم إلا القليل منها.. لكن إخواتهم الحكيمات كن يشجعنهم ويخففن من شعــورهم بالخجل قــائلات «نحن إخــواتكــم.. وإنكم فى حــالــة إجبـــاريــة تعجــزون معهـــا عن التصرف وتواجهــون فيها مصــاعب كثيرة وتتجرعــون آلاما خطيرة فما عليكم من محاولــة تغطية عــوراتكم ولو على حســاب آلامكم.. فنحن لن نعبأ بمثل هذه الأمــور ولن ينال منــا الخجل ويقعدنا عن القيــام بواجبنــا نحوكم» قام الرفــاق بالارتواء من المياه المثلجــة السلسبيل كانوا قد حــرموا منها بعــد أن رشــوهــا على وجوههم لإفــاقتهم وافتقــدوهــا لأكثــر من عشرة ساعات كاملة.. فليشربــوا هنيئا وليرووا ظمأهم بعد أن استقر بهم المقام

وشعـروا بحـالـة من الأمـان.. لاترهبهم مـواجهـة اليهـود ولا تفـزعهم معسكـرات الأسر التى يتوقعـونها بين كل لحظة تمر عليهم ولن يفكـروا فى إزهاق أرواحهم بأيديهم.. أعادت قطـرات المياه المثلجة التى توافرت لهم بكثـرة الحيـاة إلى أوصالهم وبعثـت النشاط فى أبـدانهم فـانـدفعت الدمـاء غزيرة فى عـروقهم وعادت القـوة إلى عضلاتهم.. باتـوا يشعرون بقـدرتهم على السير من جـديـد مئـات الكيلـومترات.. ولـو طلبـوا منهم معـاودة السير من بـورسعيـد إلى القـاهـرة لما كلت أقـدامهم ولما وهنت عزائمهم ولما خارت قواهم.

وقف الرجال ونساء محطة الكاب يـودعون الرفاق والعربة تقلهم إلى بورسعيـد حملوهم بين حنـاياهم وأجلسوهم على مقـاعدهم وأحـاطوهم بعنـايتهم ورعايتهم وكأنهم فلـذات أكبـادهم.. لم يستطيعوا أن يمنعـوا زفرات ساخنة أن تنهمر على وجـوههم بعد أن نشأت بينهم وبين الرفاق عـلاقـات أخويـة سريعـة سـاعـدت ظروفهـم الصعبة على تـرسيخهـا وتعميقها.. حمل الـرفاق معهم من محطـة الكاب سجـلا بأسماء كل من أعـانهم على استعادة قـواهم وأرقـام تليفونـاتهم مع وعـد أكيد بتبـادل الاتصـال.. قطعت العربة المسافة بين الكاب وبورسعيد فى دقائق معدودة كان الرفـاق يضجعون على مقاعدهم وكأنهم يركبون وسيلـة مواصلات لأول مرة فى حياتهم.. كانت سيقـانهم قد تعودت السير ونست ذاكرتهم وسائل المواصـلات المعروفة..آخـر مرة شاهـدوا فيها سيـارة كانت تلك العـربة المصفحـة الطائشـة التى طاردهم بها اليهـود عدة كيلـومترات.. ولـذلك كان آخـر عهدهم بـالسيـارات ذكرى غير طيبـة ساعـدتهم على النسيان.

كان الرفـاق أسعد الناس برؤيـة شوارع مدينة بـورسعيد الجماهير يغدون ويروحون دون تحفظ أو قيود..

الحيـاة تسير فى مجراها الطبيعى رغم أن الليل أرخى أستـاره وأطبق جوانحه على جنبـات المدينة.. اصطدمت أعينهم بالألوان الـزاهية بعد أن اعتادت لفترة طـويلة على اللون الأصفـر فقط.. هذا اللـون الكئيب الذى

انطبع فى ذاكـرتهم وسيطـر على أعينهم طـاردا كـل مـاعـداه من ألـوان أخرى.. الصحراء المترامية الأطراف هى التى كانت مآقيهم تشـاهدها فى كل اتجاه تطلع إليـه.. تباب ووهـاد ورمال وجبـال وكثبان رمليـة.. إنها فقط العملة المتاحة وسط هذه الدياجير الكثيبة.

وصلت قافلتهم الصغيرة إلى أحـد المبانى اتخذتـه الأجهزة التنفيـذية بالمحافظـة معسكرا لإيواء الشاردين.. كتب على واجهتـه مدرسة الجميل الإعداديـة.. ذكرتهم اللافتة بحـرب ٥٦ عندما أسقطت القوات المتحـالفة إنجلترا وفـرنسـا وصنيعتهما إسرائيل مظليين بمطـار الجميل.. عنـدمـا اشتعلت المقـاومـة وقضوا على الجنـود الهابطين عن بكـرة أبيهم.. كـان الاعلام المصرى وقتهـا إعلاما صـادقا فتحـرى الدقة.. وتـوخى الصدق لم يكذب على الجماهير وصارحهم بالحقيقة.. حتـى عندما توالى إسقاط المظليين ونفدت مقـاومة أهل بـورسعيد البـواسل.. نقل الاعلام المصرى نبأ استسـلامهم وكـان أول من بث إلى الجماهير سيطـرة المحتل على المطار.. بادرهم رجل العلاقات العـامة الذى استقبل السيارة التى أقلتهم بالترحيب والتهنئة بسلامة الوصـول.. وأبلغهم أنهم سيلقون كل الرعاية وأنهم سينعمون بـاستكمال العلاج وسيجدون الخدمة الطبيـة والنفسية المكاملة وسيمدون بالملابس والأحذية وكل مايحتاجون إليه.

هبطـوا من العـربـة بترتيب جلـوسهم لابأقـدميتهم.. أحـاط رجل العلاقـات العامة وسـائق العربة بشوقى لمسـاعدته على الهبـوط بعد أن ضعفت قدماه عن حملـه.. فوجىء المارة بالرجـال يهبطون وقد انحسرت مـلابسهم إلا عن جـزء ضئيل من عـورتهم.. وتقدم أحـدهم بـدافع من شهامـة ووطنية فطـرية عـارضا على شـوقى ملابسـه قائلا لك يـابطل هديتى المتـواضعة إنه لشرف لى أن أمنحك مـلابسى وليسعنى منزلى إذا لم يكن لدى بدل منها.. وحاول شـوقى الاعتذار بكياسة دون أن يصدم مشاعر الـرجل وتدخل مسئول العلاقـات العامة بالمحـافظة لكن أبدا لم تفلح الجهـود فى إثنـاء الرجـل عن قراره وأقسـم إلا أن يرتـدى شـوقى ملابسه فـاكتفى بارتداء سترته فقط وحصل على عنوانه لإعـادتها حالة

استلامه لزى كامل بالداخل.. آمن شوقى ساعتئذ أن الدنيا مازالت بخير وأن الشهامة والمروءة لم تصبحا من العملات البالية المندثرة. وأن هناك أقـوامـا كثيرة يتحلـون بهذه السمات النــادرة وهـذه مكـارم الأخـلاق العزيـزة.. وليعلم اليهود أن شعبـا كهذا بـرجولتـه وعطائه وتضحيـاته لايمكن أن يستسلم وأن تخور قـواه أمام جحـافلهم وجيـوشهم.. ليعلم اليهود أن إرادة الـرجال أقـوى من صلابـة الفولاذ.. عزيمتهـم أشد من متانة الصلب.. أن حديد المدرعات اليهودية قد يلحق به الصدأ أو تسيحه النيران.. لكن المعادن النفيســة للرجـال لايلحق بها الصدأ ولا تنـال منها الظروف والعوامل المناخية الطارئة.

دلف الـرفـاق إلى أروقـة معسكـر الشـاردين تحوطهم كـوكبـة من العاملين فيـه حاولوا مساعـدتهم وأحاطوهم بكل رعايتهم وبـذلوا معهم غايـة طاقتهم.. حملوهم على أكتـافهم وصعدوا بهم عدة درجـات للطابق الثانى واسكنـوهم أحد العنـابر الفسيحـة المجهزة بأسرة عليهـا ملاءات بيضـاء جديـدة.. وبمجرد دخـولـه استلمتهم أيد خبيرة لبعض الأطبـاء المتطوعين أعادوا فك أربطتهم وعاملوا جـروحهم وقروحهم بأسلوب أكثر تخصصا.. وطافت بأسرتهم مناضد العمليـات المكتظة بأنواع عديدة من مساحيق المطهرات والدهانات والأربطة الطبية المتنوعة.

وفى لحظـات استسلم جميعهم لنـوم عميق هـادئ بعد أن تنـاولـوا جرعـات مكثفة من المهـدئات والمطمئنات أعـادت لهم سكينتهم المفقودة وبعضا من معنوياتهم المنهارة.

أفاق الرفاق من نومهم على أصـوات استغاثات وهتافات صدرت من معظمهم بـالتنـاوب من «كـوابيس» ألمت بهم.. بعضهـا يطلب النجـدة.. والبعض الآخر يعبر عن جزعه وهلعه من مـواجهة اليهود وما تعرض له خلال تـواجده فى معسكـرات الأسر من صنوف العـذاب وألوان الهوان.. وللحقيقة كان صلاح أقدمهم يهب لإيقاظ الرفاق من كوابيسهم وغفلتهم ولم ينس قط أنه مسئول عنهم أو أنه أب لهم.

استقبل الرفاق جوقة مـن «الحائكين» استقدمتهم أجهزة المحافظة فى

صباح اليوم التالى لأخذ مقاساتهم وإعداد ملابس جديدة لهم.. وفى لحظات قصيرة استلم الرفاق أفرولات كاكى أعدت على عجل وتم تدبير أحذية كاوتشوك من «باتا» ذات مقاسات كبيرة.. كما قام بعض الحلاقين بحلق شعورهم الكثة وذقونهم التى لم تلمسها شفرات زهاء الشهر فطالت دون إرادة وحولت هيئاتهم وكأنهم بعض رجال الدين والعاملين بالوعظ والدعوة.

وبعد أن تناولوا وجبة الغداء حرص على زيارتهم محافظ المدينة ومعه نخبة من المسئولين بالمحافظة ووعدهم بتسهيل نقلهم فى أقرب فرصة إلى القاهرة عن طريق تخصيص قطار خاص يقلهم وحتى الكلية الحربية التى خصصتها القوات المسلحة كمعسكر لتجميع الشاردين العائدين من مسرح العمليات بسيناء.

حب .. وحرب

١٢٨

قصة واقعية عن بطولات معركة ١٩٦٧

السرادق

السرادق

عقدت الدهشة ألسنة الرفاق.. وأدارت المفاجأة رؤوسهم.. وجدوا العقيد عاطف بين ظهرانيهم بمعسكر الشاردين.. انشقت الأرض عنه وظهر بينهم فجأة قبل ساعات من رحيلهم بقطار خاص إلى القاهرة.. هجموا عليه.. أمطروه بوابل من القبلات الحارة واستسلموا لأحضانه الأبوية الدافئة وعانقوه لفترات طويلة.. تبادلوا معه كلمات الترحيب.. حمدا لله على سلامتك.. ظنناك على رأس قائمة الشهداء.. توقعنا أنك لقيت حتفك مع الرائد رمسيس والنقباء سيد ياسين وسيد عبدالغفار وحلمى كامل وغيرهم وغيرهم.. إننا نعلم أنك لاتخشى التضحية بنفسك فى سبيل المجموع.. تصورنا أنك افتديت الكتيبة وتقدمت الرجال كأول الشهداء حتى بعد أن رأيناك لم نصدق أعيننا فى بادىء لقائنا معك.

استمرت مراسم الترحيب وحفاوة اللقاء فترة طويلة.. تنقل العقيد عاطف بين الرفاق واحدا تلو الآخر.. عانقهم طويلا.. وشد على أيديهم.. لم يفته أن يصنع مع الجنود مافعله مع الضباط.. كان دائما يشعرهم أنه لافرق بينهما.. ألم يكونوا فى خندق واحد.. لم تفرق بينهم رصاصات اليهود.. كانوا رفقاء الدرب والمشوار الطويل.. جاءت كلماته لهم موحية معبرة كما هى عادته معهم دائما.. وابتدرهم قائلا: تودون معرفة كل شىء .. تدور بأذهانكم استفسارات كثيرة.. لن أزيد

حيرتكم.. فأنا اعلم أنكم تسألون عن زملائكم من استشهد ومن كتب له النجاة.. وكيف نجـوت بنفسي.. ومتى وصلت ماذا أعرف عن الســاعات الأخيرة قبل انهيـار دفـاعاتنـا.. لاتتعجبـوا إذ قلت لكم أننى تصـورتكم جميعا فى عـداد الشهداء.. لقـد رأيت بعينى عربـة شوقى وهـى تنفجر.. صحيح لم أتأكد من وجوده بداخلها لكنـه ولو حتى كان بجوارها فلعله أصيب إصـابة بـالغـة.. صـلاح ورستم تأكدت مـن استشهادهما بعـد سقـوط مواقع السريـة الثالثـة.. وأمير كان معهما كتفـا بكتف.. الوحيـد الذى ظننتـه فى مأمن من نيران اليهـود كان همام لـوجوده أثنـاء القتال فوق قمة جبل لبنى..

لاتتصوروا كم كانت سعادتى عنـدما علمت بنبأ وصولكم كنت أتابع يوميا كشف بأسماء الشاردين الـذين وصلوا إلى مدن القناة الثلاث.. لن تصدقونى إذ قلت لكم أننى قبلت تلك القائمة التى حوت أسماءكم ذرفت الدمـوع غزيرة سـاعتها.. كنت أتمنى أن الحق بكم فـور وصولكم.. لكن إجـراءات إعـادة تجميع وتجهيـز الكتيبة من جـديـد حـالت دون ذلك.. حـددوا لنا مقـرا مؤقتـا فى الماظة.. وضمـوا علينا عـدة مئات من جنـود الاحتيـاط وكنت أرنو إلى وصـول أحدكم كم استنشق عبيركم وأهفـو إلى لقيـاكم.. وهاأنـذا أحمد الله على وجودى بينكم وعلى عـودتكم من جديـد لبيتكم الغـالى .. كتيبتكم العـريقة.. لم يفت العقيـدعـاطف أن يقص على الرفـاق قصة نجـاته وقال: كنت أقـود المعركة من مـركز قيـادة الكتيبة وغير مصـدقـا للبسالـة النـادرة والقـدرة الفائقـة التى دافع بها رجـال سريتك ياصلاح.. كانت نيرانهم تخرج من فـوهات بنادقهم للأمام فكنت استنتج أن اليهود لايزالون متقدمين صـوبهم.. لكن عندما مالت نيرانهم يمينا ويســارا أيقنت أنهم تمكنوا من اقتحام الحدود الأمـامية لدفـاعات الكتيبة وعندمـا رأيت نيران رجالنا تتجه نحونا آمنت ألا أمل بـاقيا.. لقد سقطت المواقع وانهارت المقـاومة وتمكن اليهـود من الكتيبـة.. شاهـدت الرائد رمسيس وهو مـدرج بدمائه وكذلك المرحومان سيـد ياسين وسيد عبدالغفار.. وساعتئذ أفـاقنى سائقى.. وقال لى فيم تفكر ولماذا السبات؟

لابد أن تتصرف لابد أن تحاول حضرتك أن تنجو بنفسك بعد أن عزت النجاة على الرجال.. كنت أعرف أن لنا قواتا صامدة بالحسنة.. قدت عربتي بنفسي وبجوارى سائقي وتوجهت إلى هناك.. وبعد بعض المداولات مع القادة اتخذوا قرار انسحاب جزئى لبعض القوات ووصلت فى نفس اليوم إلى الضفة الغربية للقناة.

ظل العقيد عاطف يروى والرفاق ينصتون وكأن على رؤوسهم الطير.. كنت أتلمس وأتحسس أخباركم.. ذهبت للسؤال على كل فرد فيكم بمنزله أقف على مشارف المنزل وأبعث بسائق ليسأل ذويكم.. أصابنى بعض الحرج ذات مرة عندما تتبع زوج شقيقة شوقى السائق ولقيته واجهنى بحدة وعنف وطلب أن أريحهم جميعا من حالة القلق والتوتر التى يعايشونها منذ أن وضعت الحرب أوزارها ولم يعد ابنهم.. أقسمت له أننى لاأستطيع أن أجزم بشىء ولم أعرف أى معلومة عنه سوى أننى شاهدت عربته تحترق ولست أدرى أكان بداخلها أم لا. وتكرر نفس الشىء عند همام لكنى فى هذه المرة أكدت لشقيقته نجاته وأنه لابد فى الطريق إليهم.

أزف موعد الرحيل.. عاود الزملاء عناقهم وتقبيلهم لقائدهم وكأنهم يودعونه بلا أمل فى لقاء تال.. اتفقوا على التجمع بعد عدة أيام بمقر الكتيبة الجديد بألماظة.. اقتنعوا بكلمات وتوجيهات العقيد عاطف إذا كان أهلوكم فى احتياج إليكم.. فإن مصر كلها تنتظركم.. أرض مصر تناديكم.. هلموا للخلاص.. فلتعملوا على تطهير ترابى من براثن المحتل الغاصب أنا اعلم أنكم بحاجة ماسة للراحة.. الجروح التى فى سيقانكم تستلزم علاجا لعدة أيام.. لكنها أبدا لن تصل إلى أسابيع.. لن أحدد موعدا مؤكدا لعودة.. لكن يكفينى تقديركم للمسئولية.

غادرهم العقيد عاطف واستقل عربته الأميرية إلى القاهرة بينما ركبوا هم القطار يمنون أنفسهم بقرب لقاء الأهل والأحباب ويتخيلون أحضان أمهاتهم الدافئة وقبلاتهن الحانية.. آه قالها شوقى لو لم يكن هذا السرادق اللعين الذى حال بينه وبين حضن أمه لكن الآن ينعم بالهدوء

والسكينة فيه.. لكانت تمطره بقبلاتها. وتلثمه بشفتيها وتغمره بعناقها.. آه يا أمـاه كم اشتاق إليك.. كم أهفو إلى لحظـة بين أحضانك ولتكن هى النهاية.. وليكن بعدها الفناء.

وهو فى غمرة أفكاره وفى ذروة شروده.. كان ينظر إلى السرادق وكأنه غريمه لو أن بندقيته فى جنبه لاطاح به بعيدا عن طريقه نحو حضن أمه. ولكن ماذا يفعل.. وقد قاربت الساعة على منتصف الليل.. وكأن المعذبين يتشبثون بـالبقاء فى هـذا السرادق اللعين.. ماذا يعجبهم فيـه.. إنه حتى خافت الإضاءة.. غير مسقوف لكنه طويل وزاخر بالناس.. يعج بالمعزين من كل حدب وصـوب من كل الفئات والأعمار.. الشبـاب والشيوخ ذوى الطبقة الغنيـة.. والعمال من أصحاب الحرف.. لم يكن شـوقى يدرى أن لأحدى شقيقتيه هذه الشعبية الجارفة وهذه الجماهيرية ذائعة الصيت.

فجأة انتفض شوقى مذعورا على صوت صرخـة مدوية بجوار أذنيه.. تـوالت الصرخـات بسرعة خـاطفـة .. بعضهـا يعبر عن الجزع والبعض الآخـر عن الفـرح.. بعضها مفهـوم.. والأخـريـات غير مفهومـة.. لكنـه استطـاع أن يميـز شيئين.. أن الذى أطلق الصرخـات مشمش المكـوجى صاحـب المحل أسفل منزلهم وأن معظمهـا تحمد الله وتشكـره على هذه المعجزة.

هجم مشمش المكـوجى على شـوقى وحملـه عنـوة من الخلف فـوق عنقـه. واندفع بـه حامـلا إياه نحـو السرادق وهو يـردد.. الله أكبر.. الله أكبر.. أحمدك يارب.. أشكـرك يالله إنه الميت الحى.. إنه الشهيـد الباقى.. ولم لا فمعجزات الله باقية.. خالدة إنه أكبر من الجميع إنه فوق الكل.

أصـابت شوقى حـالة من الـذعر أول الأمـر من مشمش.. ظنه وقـد مسه شيطان أو أصابه جـان.. إنه يهذى بكلمات كثيرة لايفهمها.. أحيانا ينظـر إليه على أنـه مـارد لدرجـة أن شـوقى اضطر لافـاقتـه وقال لـه مشمش.. مشمش.. أنـا شوقى يامشمـش ألا تعرفنى.. إننى جـارك منذ خمسة وعشرين عامـا.. مابالك وقد ارتعـدت أوصالك وتخبطت فرائسك. لكن مشمش كان فى حالة لاتسمح له بـالاستقبال كان يرسل فقط.. كان

قد ذهب فى مهمة إحضار المزيـد من البن لمواجهة جموع المعزين التى فى السرادق بعد أن نفدت الكميـة التى أعدوها لذلك.. وهو فى طـريق عودته اختصر المسـافة وجـاء من الردهـة المظلمة خلف المكـان الذى قبع فيـه شوقى لعـدة ساعات.. عنـدما وقع نظـره عليه فى أول الأمر تصـور أنه مارد.. لابد أنه عفريت من الجن.. كيف يكون هو شوقى بلحمه وشحمه بينما السرادق المنصوب أمـامه أقيم من أجلـه.. لقد أبلغوهم رسميـا أنه استشهـد.. شهـد على ذلك بعض زملائه مـن الجنود والضبـاط الـذين سبقوه فى العـودة ولم ينف العقيد عـاطف نفسه هـذه المعلومـة بل لعله أكدها عنـدما قطع بأنه شاهد عربتـه وهى تنفجر.. إذن كيف يطلع عليه عفريت شـوقى وقد استشهد فى سينـاء.. إنه لم يقتل فى الردهـة المظلمة كى يخرج علينا فيها عفريته.. تردد كثيرا قبل أن يتقدم نحوه لكنه تذكر قدرة الله فى خلقـه.. معجزاتـه التى لاتنضب.. انطلقت أعماقه تحدثـه أنه شوقى وليس عفـريته.. وترجمت حنجرتـه تلك الانطلاقة التلقـائية التى تضـاربت فيها المشاعر واختلطت الأحاسيس.. الفـرحة العارمة والدهشة الأخاذة والذهول العميق.. وتجمع كل هذا على لسانه فظل يهتف ويكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. أحمدك ياالله.. أشكرك يارب.

اقتحم مشمش السرادق حـاملا شوقى على كتفيـه.. فمالبث السرادق أن تحول فى ثـوان إلى عرس.. إلى زفـة.. موكب مشمش وشـوقى يخترق جموع المعـزين الذن التفـوا حولـه فى محاولـة مستميتة للـوصول إليـه لتقبيله.. فـإن لم يستطيعوا فللمسه للتبرك بـه وكأنه أصبـح فى لحظات من أوليـاء الله الصـالحين.. إنـه ضريح متحـرك لأحـد الأئمـة والنـاس يتجمهرون حـوله ويتدافعون تجاهـه.. البعض أصابه الـذهول فلم يحر حركة أو ينطلق بكلمة.. أما الغالبيـة فقد استمرت فى سعيها نحو شوقى بـاستماتة ولم يكن هـو قـادر على استيعاب كل مـايـدور حولـه.. انها طلاسم عويصة.. أكثر تعقيدا من طلسم السرادق الذى ظل يحاوره لعدة سـاعات.. إنـه يرى الـدهشـة فى العيون والتعجب فى الملامح.. والشكـر والحمد لله باديـان على الجميع.. إنهم ينظرون إليه وكأنـه إحدى عجائب

الدنيا السبع.. وكأنـه أحد أهرامات الجيزة.. إنـه محمول وسطهم وكأنه أبو الهول.. ماذا دهـاهم؟ ماذا أصابهم؟ إنه لم يلبث أن غـاب عنهم عدة أيام ربما طالت لشهر فقط.

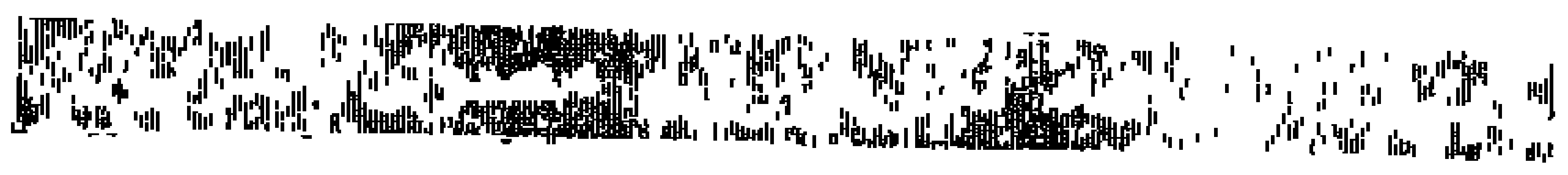
زاد من دهشـة شـوقى مـراسم الفرح التى خـرجت عشـوائيـة من شرفـات المنازل المحيطـة بالسرادق على هيئـة «زغـاريد» أطلقتهـا جميع السيدات بلا استثناء.. وانهمار دموع سيدات العائلة التى تدافعت وسط جموع المعـزين.. لمح أمـه تعـدو نحـوه وشقيقتـاه تتحسسـان جـروح ساقيه.. من لم يستطعن منهن الوصول إليه كدن أن يلقين بأنفسهن من الشرفـات وهن متشحات بـالسـواد.. لم يستطع شقيقـه الوحيـد تحمل الموقف خـر فـريسـة لإغماءة طـويلـة.. ولحقت بـه أمـه ثم شقيقتـاه.. واضطر مشمش سـاعتها فقط أن ينزلـه من على كتفيه ليلتصق بعـائلته وهى فى حالة إغماء.

الفهرس

رقم الإيداع ٩٦/٥٣٢٧
الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 08 - 0535 - L

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
كورنيش النيل - بولاق - القاهرة
تلكس جيبو UN ٩٣٩٣٢
القاهرة ت: ٧٧٥٢٢٨ - ٧٧٥٠٠٠
فاكس: ٧٥٤٢١٣ (٠٠٢٠٢)





مجلات هيئة الكتاب الثقافية منارات مضيئة فى بحور الثقافة والمعرفة.

● تواصل هيئة الكتاب رسالتها فى باع الثقافة والمعرفة ليس بنشر الكتاب المتميز فقط ولا باقامة المعارض الدولية لكن بمواصلة اصداراتها من المجلات الثقافية التى تقف كمنارات تواصل اشعاعاتها المضيئة لكل قارىء ومثقف ومجلات الهيئة منها ماهو اصدار شهرى وماهو اصدار فصلى كل ثلاثة شهور وهى كما يلى:

اولا: مجلات تصدر كل شهر:

القـــــاهرة

مجلة الفكر والفن المعاصر شهرية تصدر يوم ١٥ من كل شهر تثير قضايا فكرية تشغل اهتمامات المجتمع الثقافى فى مصر والعالم العربى وتقتحم مجالات متعددة من صور الفكر المعاصر بهدف المحافظة على الايقاع العام لهذا العصر وعدم التخلف عن كل اشكال الرقى والتقدم

الثمن ٢٠٠ قرش

رئيس التحرير
ا. د. غالى شكرى

العلم والحياة

مجلة العلم والحياة تنقلك الى مواقع اهم الاحداث العلمية تتبنى القضايا البيئية وتتابع اللقاءات والمؤتمرات العلمية فى مختلف أنحاء العالم

وبجانب انها مجلة علمية فهى ايضا تحرص على تقديم العديد من الخدمات لقرائها عبر ابواب الملاح الحسابى والاستشارات العلمية الى جانب ملحق العالم الصغير المخصص للطفل والذى يقدم موسوعة علمية مبسطة للطفل

الثمن ١٠ قرش

رئيس التحرير
ا. د. محمد شرف

المســرح

وهى المجلة الشهرية الوحيدة فى العالم العربى التى تخصصت فى الثقافة المسرحية على المستوى التخصصى الاكاديمى وعلى مستوى القارىء العادى وهى توفر التغطية الشاملة للعروض المسرحية المصرية وتوثيقها ورسم مناهج النقد المسرحى عمليا بانتماء خلق تيار علمى موضوعى فى النقد المسرحى والدراسات المتخصصة الجادة فى شتى فنون المسرح والنصوص المسرحية الاجنبية المترجمة فى كل عدد الى جانب مقدمات نقدية أو تعريفية في كل عدد بلد من بلدان العالم وبلغاته المختلفة والموضوعات الصحفية ذات الاهمية المعاصرة فى شتى المجالات المسرحية مثل التحقيقات واللقاءات والسوتريهات وتغطية الندوات والاحتفالات والمهرجانات المسرحية وتحليل الاتجاهات الفنية والفكرية التى تبرز فيها

الثمن ١٥٠ قرشا

رئيس التحرير ا. د. محمد عنانى



ابداع

تصدر المجلة اول كل شهر فى قطع متميز وتتبنى مفهوما شاملا للابداع من مختلف مجالاته الفنية والادبية والفكرية

وتعمل من خلال هذا المفهوم على التواصل مع تراث حركة التنوير المصرية والعربية وعلى اثارة القضايا الملحة من الواقع الثقافى من خلال رؤية تجعل من الحرية شرطا للابداع

الثمن ١٥٠ قرشا

رئيس التحرير
أحمد عبد المعطى حجازى



ثانيا: مجلات [illegible] كل ثلاثة شهور

فصول

وهى المجلة الادبية والثقافية التى حققت انتشارا فى مصر والعالم العربى حيث انها تبنى نشوء الادب والنقد الادبى كما انها المجلة الوحيدة التى اعيد طبع اعدادها بعد نفاد الكميات المطروحة منها بالكامل وقد وفرت لها الهيئة كل الامكانات الى جانب الطباعة الراقية التى يربو فيها عدد الصفحات لكثر من ثلثمائة صفحة ويقوم على تحريرها نخبة من اعلام الادب والفكر والثقافة من مصر والعالم العربى

الثمن ٢ قرش

رئيس التحرير
ا. د. جابر عصفور

عالم الـــــكتاب

تهتم هذه المجلة بالكتاب كصناعة وفكر وتزود القارىء بأحدث البحوث والمعلومات والمقالات الفنية والاحصاءات فى مجال الكتاب وتهدف المجلة الى مسايرة التطور الببليوجرافى المصرى والعربى وتقدم نماذج لتقنيات الوصف الببليوجرافى للمكتبة العربية

الثمن ٢٠ قرش

رئيس التحرير
ا. د. سعد محمد الهجرسى

الفنون الشعبية

مجلة متخصصة فى مجالات المأثورات الشعبية (الفولكلور)، تصدر كل ثلاثة شهور وتنشر الدراسات التى تعرف بهذه المأثورات ومناهجها، والمادة الشعبية المأثورة، وكذلك المتداولة بين الناس وهى اقدم المجلات المتخصصة فى هذا الفرع من فروع العلم فى الوطن العربى، فقد اسسها ورأس تحريرها عام ١٩٦٥ الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس.

الثمن ٢ قرش

رئيس التحرير
ا. د أحمد على مرسى

علم النفس

تعد مجلة علم النفس احدى المجلات الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب وهى مجلة متخصصة فى مجال الدراسات والبحوث النفسية التى تناقش قضايا الفرد والاسرة والمجتمع والطفل، فضلا عن انها تقدم ثقافة نفسية لغير المتخصصين كما انها تزود الباحث فى مصر والعالم العربى بالدراسات والبحوث فى هذا المجال

وهى مجلة فصلية تدخل عامها التاسع دون انقطاع وتعد الوحيدة المتخصصة على مستوى العالم العربى كله وتفى لاحتياجات باحثيه ودارسيه

الثمن ٢٠ قرش

رئيس التحرير
ا. د. كاميليا عبد الفتاح

هذا الكتاب

الكتاب يروى ملحمة بطولة وصمود مجموعة من الضباط والجنود خاضوا معركة غير متكافئة فى يونيو ٦٧.. واجهوا مدرعات اليهود بصدورهم وقلوبهم بعد أن عجزت نيرانهم على مواجهتها.. ورفضوا الوقوع فى الاسر مهما كانت المصاعب والعودة للانضمام الى القوات المصرية غرب القناة.

ورحلة العودة هى ملحمة أخرى ولكن ملحمة انسانية فقد ظلوا يسيرون فى الصحراء فى عز حر يونيو.. حفاة بعد أن تخلصوا من احذيتهم العسكرية.. وبدون طعام أو مياه.. ولم تكفهم كل تلك الاهوال.. بل كانت عربات العدو المدرعة التى تجوب الصحراء بحثا عن الجنود المصريين تجعلهم يتوهون أكثر فى الصحراء هربا منها.. وشاهدوا بأنفسهم كيف يقتل الجنود الاسرائيليون جنودنا الذين استسلموا!!

وقد برع شوقى حامد فى كتابة الاحداث الحقيقية لتلك الايام السوداء باعتباره واحدا من ضباط تلك المجموعة الباسلة باسلوب روائى جذاب ومشوق.

وهذه الرواية الحقيقية خير شاهد على معركة يونيو ٦٧.. وهى شهادة تنشر لأول مرة.

نبيل أباظة

الثمن ٤ جنيهات

طبع بمطابع أخبار اليوم